# حب دافئ تحت الثلج

مصطفى الحمداوي

الكتاب: حب دافئ تحت الثلج (رواية)

المؤلف : مصطفى الحمداوي

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٥

رقم الإيداع : ١٥٨١ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 205 - 2

---

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى – المقطم – القاهرة

ت فاكس ٢٧٢٧٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

---




# حب دافئ تحت الثلج

رواية

مصطفى الحمداوي

# قصيدة إلى أخي الأبيض

## الشاعر السنغالي: سيدار سنغور

أخي الأبيض العزيز ،

عندما كبرتُ، كنتُ أسودَ

عندما أكونُ تحتَ الشمس، أكونُ أسودَ ،

عندما أمرضُ، أكون أسودَ ،

عندما سأموتُ، سأكونُ أسودَ

لكنكَ أنتَ أيها الإنسان الأبيضُ،

عندما ولِدتَ، كنتَ ورديًا ،

عندما كبرتَ، كنتَ أبيضَ،

عندما تذهبُ إلى الشمس، تكون أحمرَ ،

عندما تبرد ، تكونُ أزرقَ،

عندما تخافُ، تكونُ أخضرَ ،

عندما تمرضُ، تكون أصفرَ ،

عندما ستموتُ، ستكونُ رماديًا .

فأيّنا ، إذن،

الإنسانُ الملونُ؟

# حدث سريعًا كما لو كنتُ في حلم

انبثقَ من ثنايا الفيس بوك، وجهٌ أنثويٌّ فاتن، وجهٌ جعلني أسيرًا لألوان الشالِّ المخملي، والمايكوب الدقيق الذي ارتسمَ كذراتٍ من نورٍ على شفتين كرزيتين، وعينين زرقاوين.. كنتُ كما لو أنني أعيش حُلمًا في فصل صيفٍ دافئ.

كتبتُ بتلهف، ثم ضغطتُ على Enter:

- ( لستُ مشاكسًا؛ ولا أريدُ أن أكونَ كذلك، ولكنني أحبُّ أن أتعرفَ عليكِ ).

مضتْ فترةٌ طويلةٌ لم أتلقَ خلالها أيَّ جواب... وفي اللحظة التي كدتُ أن أبدأ محادثةً جديدة، جاءني الرد:

- ( لماذا؟ )
- ( لست أدري.. إنه إحساس غامض )
- ( هههه... إحساس غامض! ما اسمك؟.. أقصد الاسم الحقيقي )
- ( عمر،... وأنت؟ )
- ( ريم )
- ( ريم.. من أي بلاد أنت يا ريم؟ )

انتظرتُ الجواب.. طويلاً، وربما طويلاً جدًا، قبل أن أقرأ على صفحة المحادثة:

- ( ريم يكتب ) كانت تكتب ثم تنقطع لفترة، وسرعان ما تعود للكتابة، حتى خلتُ أنها تكتب مئات الكلمات. وفي الأخير سمعت رنة وصول الرسالة النصية القصيرة:

- ( لا تشغل بالك بي، ربما كان ذلك مُريحًا لك، قرأتُ بياناتك، وعرفتُ بأنك مقيم في باريس، وأدركتُ على الفور استحالة تلاقٍ ممكن ولو على مستوى سطحي بريء.. هل تدري؟ قد أكون أميرة، أو ربما عروس بحر.. أو.. لا شيء.. )

كتبتُ من أجل محاولة شبه يائسة:

- ( أريد صورة... صورة شخصية لك.. صورة فقط.. ممكن؟.. هذا بريدي الإلكتروني: ( #=!+^+*@^%#.com )

لم أتلق جوابًا طيلة وقت طويل، رغم أنها كانت موجودة على صفحة الدردشة، وفي اليوم التالي عثرتُ في بريدي على صور جميلة جدًا لريم باسمها الحقيقي الكامل "ربما"، وحين فتحت صفحة الدردشة لأشكرها وأواصل تعارفي معها، وجدتها قد اختفتْ تمامًا. لأكتشف لاحقًا أنها حذفتني من لائحة الأصدقاء. هل خافت علي، أم تكون خافت على نفسها، أم.. على كلينا ؟!!..

مرَّ كل شيء هادئ في الأيام التالية، ولكنني أصبحتُ لاحقًا أشعر بحضور ريم قويًا داخلي، ولم أستطع التخلص من كلماتها الأخيرة، والنظر إلى صورها الفاتنة.

## ( ١ )

لسبب ما كان يجب أن أكون جالسًا، بالصدفة، في ذلك المساء الشتوي من شهر أكتوبر في بار "دوفلور" بحي "سانت جيرمان". كنتُ قد خرجت من متاهات الإنترنت قبل خروجي بقليل من شقتي، غادرتُ مؤقتًا تلك المتاهة الافتراضية التي تستهلك قسطًا كبيرًا من زمني الخائب الذي أعيشه في وحشة ودروب مدينة باريس الباكية في كل شتاء من شتاءاتها الباردة.. لم أكن على موعد مع شخص معين، ولا حتى على موعد مع نفسي، ساقتني إلى ذلك البار لحظة من التجلي الغامض، لحظة اقتحمتني برغبة دفينة لاكتشاف بئر نفسي العميقة وسط زخم من التنوع البشري العجيب، لم أتعود عليه في مقاهي وبارات باريس الرخيصة التي أَلِفتُ ارتيادها. فكّرتُ في صورة ذلك الوجه المضمخ بالبهاء، ذلك الوجه الذي انبثق فجأة أمامي من ثنايا الإنترنت في لحظة خاطفة وسالبة للحواس، حين تبادلنا أنا وريم دردشة كتابية قصيرة ولكنها مؤثرة، وبعدها اختفت إلى الأبد.. ابتلعتها الشبكة العنكبوتية.

كأي شرقي ملفوح النفس بحرارة صحراء الواقع المغربي العتيق، وغباره الذي لم يفارق سحنتي السمراء؛ تأملتُ الشقراوات الجميلات وهنَّ يتبخترنَ أمام أعيني بتلقائية ووداعة، داخلات خارجات من

البار الذي لم يكن مكتظًا بالروّاد في ذلك الوقت. أنا المُحمَّل بعبءِ الغُربة الثقيل، أحِنُّ إلى ذلك الوجه النوراني الذي اشتعل في عيني كحلم غامض وملتبس، أنا الغريب في بلاد غريبة أعيش مع تلك العربية، تلك المُهرة الجموحة، حلمًا افتراضيًا عبْرَ متاهات وغياهب الإنترنت المعقدة كثيرة الدهاليز والسراديب.. أنا القادم من بلد الشمس الحارة، لم يكن ممكنًا بالنسبة لي تحمل برودة وثلج هذا البلد الأوروبي، من دون أن أبحث عن الدفء في مكانٍ ما، دفء وجدته في فضاء هذا البار الفرنسي الذي يختزل البلد في ليبراليته وحريته الذين يبدوان وكأنهما بلا حدود.

في لحظة مباغتة، لمحتُ كارولين التي أخرجتني من شرود ذهني عميق، حيَّيت الفتاة التي كانت تشتغل مؤقتًا مساء كل جمعة وسبت في المطعم المختص بالطبخ الإيطالي الذي أشتغل فيه، قبل أن تنقطع نهائيًا عن العمل، وتتفرغ في الأخير للدراسة.. بادلتني التحية، وأقبلت نحوي، ثم اتخذت لنفسها مكانًا ضمن الطاولة التي أجلس إليها. لم أرها منذ زمن طويل، طرأ عليها تحول كبير، أصبحت أكثر أنوثة وجمالاً، وامتلأ جسمها امتلاءً خفيفًا ومثيرًا. ولم يفارقها ذلك الحبور البهيج الذي طالما لازمها أيام كانت تشتغل بيننا في المطعم.

بعد كلامٍ وديٍّ ومجاملات لطيفة ومقتضبة، اقترحتْ كارولين أن نكمل الجلسة في بيتها الذي لا يبعد عن البار إلا ببضع دقائق.. استجبتُ للدعوة على الفور.

كانت تقطن شقة صغيرة في الطابق الثالث من بناية صغيرة تطلُّ على شارع صغير، شارع زُرعت على جنباته متاجر ومراقص ليلية، ومطاعم متواضعة. من الأكل الصيني، إلى الأكل الإيطالي والفرنسي، وأيضًا التركي والمغاربي. شقتها صغيرة وضيقة، لكنها كافية بالنسبة لسكن طالبة وحيدة بدون رفيق؛ هكذا خمَّنتُ، لأنني لم أشاهد إلا سريرًا واحدًا وأريكة وحيدة أيضًا. جلست هي على حافة السرير، وطلبت مني بودٍّ أن أجلس على الأريكة المقابلة. كانت أصص ورود التوليب والكاميليا تزين حافة شرفتها، وانتصبت في الركن القصي مكتبة صغيرة مكتظة بالكتب، ومنصة صغيرة تراصت عليها عدة أقراص موسيقية لأشهر المغنيين العالميين... نظرت إلى زهرات الكاميليا والتوليب، إنها الألوان نفسها التي تتوشح بها ريم، تلك الألوان الأنيقة، وذلك التناسق المدهش الذي يحيل إلى عوالم عبقة بالجمال والأحلام، حتى ليخيل للمرء وكأنه ينظر إلى لوحات باهرة الإتقان من رسم فنان يحمل في ريشته كل إعجاز الفن وألقه الباهر.

- ماذا تشرب؟

- بيرة لو تفضلتِ.

ذهبتْ وأحضرتْ لي عبوة البيرة، ثم عادت إلى المطبخ وأعدَّت لنفسها بسرعة كأس قهوة. ثم جلستْ من جديد على السرير، بعد أن كانت قد نزعتْ عنها الرداء الشتوي الثقيل، وبانت

تفاصيل جسدها المتناسق مرسومة بدقة تحت قميص أسود قصير الأكمام مشدود حول نهديها، القميص الذي يكاد لا يخفي أي شيء من سُرَّتها وأسفل بطنها.

بعد أن سألتني عن الشغل في المطعم، وبعد أن أخبرتني بأنها تعدّ لرسالة الماجستير في الآداب العصرية، كنت مضطرًا لأقول بدوري شيئًا، سألتُها إذا كانت قرأتْ الكتاب العربي التراثي "ألف ليلة وليلة"؟ فأجابت بصدق لم أتوقعه:

- قرأتُ فصولاً كثيرة منه، لكنه لم يرقني، كل حكاياته تدور حول الجنّ والسحر ومغامرات البحارة السخيفة.

لست أدري لماذا شعرتُ بإهانة لجوابها، ولكنني أدركت أن طبع البعض من الأوروبيين على الأقل، بعيد جدًا عن المجاملة المجانية، وبالتالي فإن هذه الفتاة التي تشبه قطة صغيرة وديعة، هذه الفتاة التي تجلس أمامي الآن ليست استثناءً طبعًا.

انتهيتُ من شُرب زجاجة البيرة الأولى فعرضتْ عليَّ أخرى، لم أرفض، أحضرتْها في الحال. وبينما كانت تسلّمني إياها؛ وجدتُ يدي تقبض على يدها وأنا أكاد أجرُّها للجلوس إلى جانبي، تلوَّن وجهها على الفور، استحالت سحنتها الجميلة إلى امتقاعٍ غطَّى فجأة خديها وعيونها الزرقاء.. فزعتْ كارولين لتصرفي الأرعن، بالقدر نفسه الذي فوجئتُ فيه أنا أيضًا للحماقة التي ارتكبتُها. لم تقل كارولين الجميلة شيئًا، ظلَّت صامتة بوجوم بدا بهيًا على وجهها المصدوم. فتحتْ باب بيتها وراحت تنظر إليَّ بهدوء بارد، لحُسن

الحظٌ لم أكن من البلادة بحيث لا أفهم قصدها، خرجتُ مطأطئ الرأس، قلتُ لها بحياء وأنا أجتاز عتبة الباب:

- أعتذر، كان تصرفًا غبيًا، لا أجد له مبررًا.

وقلتُ في نفسي: إذا كان هناك من مبرر حقًا لتصرفي الأرعن فلن يكون إلا السُّكر، وصور ريم التي شاهدتُها طويلاً وكثيرًا على الإنترنت، وهو الأمر الذي أثارني فعلاً، وجرني إلى تصرف بليد أمام هذه الفرنسية الجميلة...

قرَّرتُ في الحال أن أكسر جهاز الكمبيوتر فور عودتي لشقتي، ولكن هل كنت أملك الجرأة لأفعل ذلك؟ أكيد كنت أستطيع الجزم منذ تلك اللحظة بأنني لن أستطيع، لعدة اعتبارات، لعل أولها أن إعجابي بتلك الصور البارعة الجمال، لم يكن مجرد إعجاب عابر ومحدود التأثير على أحاسيسي، بل هو شيء شبيه بالوخز الجارح الذي يلامس القلب بنشوة يبقى صداها ممتدًا لزمن طويل.

أغلقت كارولين الباب خلفي بهدوء دون أن تتفوه ببنت شفة.

وأنا أنزل الأدراج إلى الأسفل كنت أدرك أنني لا أزال أحمل في نفسي المثقلة بالحزن، روح الشرق، وشمسي الحارقة وغبار بلدي، والريح اللافحة وكل شيء من الضفة الجنوبية البعيدة خلف البحر.

في الشارع المغمور بضباب المطر والرذاذ الخريفي الخفيف، وأشعة أعمدة النور التي ترشُّ أرضية الرصيف المبلطة بأحجار ربما تعود لعقود غابرة، قرَّرتُ أنه يجب أن أعتذر لكارولين يومًا ما، ولكن كيف أستطيع ذلك؟.. قد تفهم الأمر على أنه محاولة للتقرب منها، وهو الانطباع الذي لا أريد أن يترسخ في ذهنها، ورغم ذلك كان يجب أن أعتذر لها.. يومًا ما.

جرجرتُ رجلَي بخيبة ليلية حزينة، تكوي نفسي التي كانت في غمرة الصخب الصامت للأشياء من حولي؛ تبحث عن صور ريم البعيدة، في أغوار ملف بعيد من كمبيوتري الشقي، الذي يقبع وحيدًا في شقة تستوطن طابقًا قصيًا في عمارة بُنيت غداة الحرب العالمية الثانية، عمارة عتيقة ربما تؤشر بشكل ما على حالة عتاقة نفسية أعانيها في ليالي ونهارات باريس الصعبة.

دخلتُ شقتي، كنت جائعًا؛ جائعًا جدًا، ولكنني لم أفكِّر في الأكل، فتحتُ بسرعة جهاز الكمبيوتر، وبحثت عن الملف الذي وضعت فيه صور ريم، صور كثيرة ومتنوعة. ياه ؟! يا له من إشعاع يتفجر من قسمات وجهها البهي، يا له من قبس من نور يحيطها ليضفي عليها هالة جمالية باهرة.. بحلقتُ ببلاهة طيلة الوقت في تلك الصور، التي اكتشفت على حين غرة، بأنها ستطاردني العمر كله.

واصلتُ احتساء زجاجات البيرة بشكل متواصل وغير محدود.. إلى أي نهاية كنت أودُّ الوصول إليها في تلك الليلة الحزينة التي جمعتْ خيبة تصرفي المجنون مع كارولين، وحنينًا أكثر جنونًا لصور افتراضية، وامرأة افتراضية تسكن كياني وقلبي كله؟... لا أدري متى استسلمتُ لنوم عميق.

استيقظتُ في الصباح متأخرًا جدًا،كانت أحداث الأمس تسكنني بقوة، لم أستطع فهم تلك المفارقة العجيبة التي ربطت تصرفي المتهور مع كارولين، والاستحضار الذهني لصور ريم.. نهضتُ من الفراش بتثاقل، أخذت حمامًا ساخنًا، حلقت ذقني، ثم أعددتُ لنفسي كأس قهوة بالحليب ورغيف خبز محشو بجبن فرنسي ومربى الفراولة.. حين انتهيتُ من تناول وجبة الفطور، توجهت إلى جهاز الكمبيوتر، وضعت فيه قرصًا مضغوطًا ونسختُ عليه صور ريم ، ثم وضعت القرص في مغلف صغير، وخرجت إلى الشارع.

كانت رياح الشتاء تهبُّ محملة برذاذ مطري بارد ، أحكمت الشال حول عنقي، وتوجهت إلى أقرب محل للصور الفوتوغرافية، أودعتُ لديه القرص، وسجلت بياناتي واسمي فوق المغلف على أن أعود إليه في المساء.

قضيتُ ما تبقى من صباح ذلك اليوم في التسكع على ضفاف نهر السين، مستمتعًا بشاعرية الرذاذ المتساقط، والجو الضبابي القاتم المعتم، والصقيع الذي يتسرب إلى مسام جلدي الذي فجّر في

معدتي رغبة ملحة للتوجه إلى مطعم مأكولات مغاربية... شربت حساء حريرة أشاعت دفئًا سريعًا في جسمي البارد، ثم تناولت أكلة معدة بالجزر ولحم الضأن. جلست قليلاً بالمطعم، ودردشت قليلاً أيضًا مع بعض روّاده الدائمين، والمعارف الذين ألاقيهم هناك من حينٍ لآخر، قبل أن أتوجه في الأخير إلى محل الصور الفوتوغرافية.. سحبت الصور وغادرت وأنا أتأمل كل صورة على حدة، انتابني شعور اكتشفته برعشة سرت في جسدي كله، إن ريم التي كنت أشاهد صورها على الإنترنت هي غير تلك التي كانت أمامي في الصور. ريم تبدو وكأنها بشكلها الحقيقي الواقعي.

ذهبت إلى حجرتي، وضعت الصور على المكتب إلى جانب الكمبيوتر الذي سيقلّ ترددي عليه من الآن فصاعدًا. انتقيت صورة من تلك الصور، وضعتها جانبًا، ثم بعد أن ارتديت ملابس الشغل، أدخلت تلك الصورة في جيبي.. سأتبجح أمام زميلي باتريك المستفز في الشغل، وأتباهى بهذه الصورة التي لا شك ستجلب إلى قلبه الكثير من الحسد والغيرة.

وأنا أدخل المطعم الإيطالي، الذي يشتغل فيه بضعة عمال، فرنسيين وإفريقي واحد، وجزائري، ومغربيين، التقيت باتريك، قال لي ضاحكًا وساخرًا في الوقت نفسه:

- تبدو بشوشًا اليوم، هل فزتَ بجائزة اليانصيب؟

- نعم.

قلت له بثقة لم أشعر بمثلها من قبل، ثم عرضت عليه صورة ريم.

- يا إلهي؟

صاح بإعجاب انفلت منه بدون وعي:

- إنها أيقونة يا عزيزي باتريك.

ظلّ باتريك هادئًا وصامتًا وهو يتأمل الصورة، ولكنني قرأت إعجابًا لم يستطع مداراته حيال ما يراه. سألني:

- هل هي صديقتك الجديدة؟

قلت بزهو وفخر غير متناه:

- نعم، إنها صديقتي، ألا ترى بأنها ليست أقل جمالاً من سيدة قصر الاليزي ونجمة الغناء والإغراء كارلا بروني؟

كان كلامي يحمل كَمًّا ثقيلاً تعمدته من السخرية والاستهزاء من زميلي في الشغل، ابتسم باتريك ابتسامة صفراء باهتة، كنت في الواقع أحاول تحطيم كبريائه الفرنسي الذي ما فتئ يشهره في وجهي.

أراد أن يغيِّر الموضوع بسرعة:

- يجب أن نلتحق بمطبخ المطعم حالاً، هناك أشغال كثيرة تنتظرنا.

قلت لأزيد من إغاظته:

- مع ذلك يا باتريك، يا سليل نابليون بونابارت المتعجرف، حبيبتي ريم، أجمل من كارلا بروني، وأجمل من الملكة

الغابرة أنطوانيت، والممثلة الجميلة في أيام عزها بريجيت باردو، وكل أميرات الدنيا وملكات جمالها.

ذهبنا أخيرًا إلى مطبخ المطعم وعيناي لا تفارقان صورة ريم، إلى أن ولجنا إلى الداخل، فكان لزامًا عليَّ حينذاك أن أخفي الصورة في جيب سترتي، وأشمِّر عن ساعدي استعدادًا لعمل قد يستمر غالبًا حتى حدود الواحدة من الليل.

في صباح الغد، هاتفت الصديقة المخلصة التي نحتاج بعضنا عند الحاجة، كريمة المراكشية المستعدة دائمًا للحضور إلى غرفتي في أي وقت أطلبها، أو تفعل ذلك من تلقاء نفسها.. كريمة تشتغل في مصنع نسيج بحي صناعي في ضواحي باريس، فتاة مكافحة مجتهدة، تعرق لأجل كسب قوت يومها، تسكن مثلي في منزل صغير جدًا معلق كاللقلق في عمارة عتيقة من عشر طوابق. كانت قد تزوجت في عمر مبكر من حياتها تحت تأثير وضغط من والديها، وبعد مدة قصيرة من الزواج، نشأت صراعات بينها وبين زوجها بسبب اختلافات جوهرية عميقة في الذهنيات وطريقة التفكير. كان زوجها يكبرها بأكثر من عشر سنوات وكانت هي مراهقة تحمل البعض من نزق تلك المرحلة التي تتسم غالبًا بالاندفاع والانفعال السريع. في الأخير وجدا نفسيهما، هي وزوجها، أمام الباب المسدود، ولم يكن هناك من حل عملي إلا الطلاق، وهو الأمر الذي حدث في نهاية الأمر. لم يبد على كريمة أنها ندمت على زواجها من ذلك الشخص، ولا على فراقه.

طبعها متفرد وعجيب، لا تعبأ بشيء، تتصرف بتلقائية، لا تهمها؛ ظاهريًا على الأقل؛ الأعراف والتقاليد، تتصرف غالبًا أو دائمًا حسب أهوائها وبعفوية تامة، وهو الأمر الذي يحبِّبني فيها ويجعلها أثيرة لدي، وهي بفطرتها الذكية الماكرة، والطيبة في نفس الوقت، تدرك ذلك. لذلك هي أيضًا تؤثرني في نفسها، وأشعر أنها تفسح لي مجالاً واسعًا من ودِّها واحترامها. ولكي أكون دقيقًا، لم أكن أحب كريمة، ولا كانت كريمة تحبني، لم يكن الحب هو الذي يجمعنا في واقع الأمر، كان هناك استلطاف وحميمية تلقائية تجمعنا، ووُدٌّ حقيقي صادق متبادل بيننا، ربما كانت تلك الرابطة أوسع وأشمل من علاقة حب كلاسيكية محكومة بالتزامات صارمة.

حين ولجتْ كريمة إلى حجرتي، بدأتْ بسرعة تعانقني وتقبِّلني دون أن تتوقف عن الكلام والثرثرة. بعد ذلك ذهبتْ لتعبث بكل شيء في حجرتي، وتحاول ترتيب مكتبي وسريري وكل الفوضى المشاعة في مجالي المهمل المفعم فقط بجمالية صور ريم التي وقعت فجأة في أيدي كريمة. كريمة التي تصفحت بسرعة وبفضول كبير كل الصور واحدة بعد واحدة وهي صامتة وغارقة في تأمل هو أشبه بالتأمل الصوفي العميق... بدا إعجابها، أو ربما بعض الغيرة أيضًا واضحًا بالصور من خلال التعبيرات التي ارتسمت على تقاطيع وجهها المليح.

قالت لي وهي لا تزال تحدِّق في الصور:

- هل تنوي الزواج يا عمر؟

ضحكتُ وقلتُ محاولا استثارة غيرتها:

- نعم.

- أين عثرت على هذه الجوهرة الغالية؟

قالت ذلك بسخرية مبطنة ربما.

أجبتُ:

- سؤال صعب يا كريمة، ليس بمقدوري الإجابة عليه، ثم إن هناك سر يجب ألا أبوح به.

- لاشك أنها سقطت عليك من السماء السابعة.

- كلامك صحيح، كيف عرفتِ ذلك؟

- هذا الوجه الملائكي المشرق الجميل لا يمكن إلا أن ينبثق من السماء.

قلتُ وأنا أداعب شعرها:

- ولكن كيف لم تشعري بأي نوع من الغيرة؟

- من قال لك بأنني لم أشعر بالغيرة؟!

- عذرًا إذن، شكرًا لك.

التفتت إليَّ وقالت بخبث ذكي:

- ولكنني أشعر بالغيرة من جمال هذه المرأة وليس لأنك ستتزوج منها، لست أنت المعني بهذه الغيرة على أية حال.

- كم أنتِ قاسية يا كريمة.

- قل بالله، هل صحيح ستتزوج يا عمر؟

كان سؤالها هذه المرة يحمل صبغة جادة جدًا، كما خمنت.

- نعم يا كريمة، وسأنتقم منك، لأنك لم تغاري من كوني سأتزوج.

لم يبد أنها أخذت كلامي على محمل الجد؛ أو هكذا بدا لي.

كان اليوم هو يوم أحد، وكنت معفيًا من العمل، توجهت كريمة إلى المطبخ لإعداد طاجين بضلع البقر والزيتون وبعض الخضر. أخذت أعاونها وأنا أداعب أردافها المدورة المشدودة تحت سروال جينز ملتصق بجسدها أشد ما يكون الالتصاق. كانت كريمة تنتشي بذلك، وتطلق ضحكات حلوة بنبرات ساحرة تتناثر في الأرجاء كوقع رخيم وعذب لخرير ماء سلسبيل ينساب عبر صخور جبلية نقية.

- كذبتُ عليكِ، لن أتزوج، تلك الصور لامرأة ما، التقطتها من الإنترنت على سبيل التسلية، أثارت إعجابي بالوقار الذي ينسجم تمامًا مع الجمال الذي تحتوي عليه.

ضحكت كريمة بغير كثير اهتمام، أو بكثير اهتمام، لكنها سألت سؤالاً ذكيًا:

- هل اقتضى الأمر أن تستنسخ لها صورًا عديدة وتنثرها على مكتبك؟ لا شك أنك مجنون لتفعل كل ذلك.

- لو لم أكن مجنونًا لما دعوتك لقضاء الليلة معي.

تناولنا الطاجين، واحتسيت معه النبيذ، ثم تسربنا إلى الفراش بعد أن تعرَّت كريمة أمامي تحت ضوء المصباح بتلقائية عادية كما دأبت على فعله دائمًا، تنزع قميصها أولاً ثم سروالها، وبعد ذلك تبانها القصير جدًا الذي لا يخفي إلا القليل من أردافها، وفي النهاية حامل النهدين. وكما العادة فهي توقد في غرائزي لهيبًا حارقًا لا ينطفئ إلا حين نُطفأ كلانا كما تنطفئ فجأة جمرة ملتهبة وهي تلقى في ماء بارد.

أحسستُ بكريمة في الصباح الباكر تتسلل بهدوء من تحت الفراش بجانبي، وتتوجه بخطوات أنيقة لتأخذ حمامًا دافئًا يعيدها إلى نفسها بعد صخب وجموح الليلة المجنونة السابقة. تطلعتُ إليها بعيون موغلة في الإعجاب بجسدها المرسوم بجمالية مثيرة، وتقاطيع أنثوية طافحة بالإغراء. في واقع الأمر لا يجب رؤية المرأة دائمًا إلا وهي عارية تمامًا، لأن المرأة حينذاك فقط تكون امرأة حقيقية ومفرغة من كل ما يشوه أنوثتها الكاملة. فكرَّت بذلك وأنا أنظر إلى كريمة المجردة من قشورها وألبستها. أيقظت من جديد في نفسي كل الشياطين، رغبتُ في تلك اللحظة أن أتبعها إلى الحمام لأمارس معها طيشي وجنوني الأرعن الذي يباغتني أحيانًا في لحظات مجنونة ورعناء أيضًا، لكنني في المقابل لا أريد إفساد صباحها الذي كانت تهيئه لعمل طويل في الضاحية الجنوبية لباريس، ثم إنها حتمًا لن تكون مستعدة لمغامرة صباحية تستهلك وقتها وطاقتها أيضًا.

كنت لا أزال منكمشًا في فراشي أستمتع بالدفء والحرارة التي أشاعها جسد كريمة في السرير، ورائحة عنفوانها المفرط في إثارته، جسدها الساحر الذي يحيلني في الأخير إلى مجرد كائن من رماد ودخان. وكنت أسمع شرشرة الماء في الحمام، وكريمة التي تفيق على الدوام مليئة بالحبور والتفاؤل، تترنم بأغنية شعبية مراكشية تنسجم تمامًا مع الشرشرة التي يرسلها انهمار الحمام فتثير نوعًا رائقًا من الموسيقى العذبة التي تنفذ بمرونة إلى الوجدان. توقفتْ شرشرة الماء، وبعد لحظة جفَّفتْ فيها كريمة جسدها الساحر، وعادت عارية مرة أخرى إلى الغرفة، غير عابئة بنظراتي النهمة إليها وإلى كل تفاصيل جغرافية جسدها البهي... تنبهتْ إلى استيقاظي:

- صباح الخير عمر.

قالت وهي تواصل تجفيف جسدها العاري تمامًا.

قلتُ لها مبتسمًا:

- صباح الخير أيتها اللذيذة، ألا يمكنك الاستغناء عن العمل اليوم لتعودي من جديد لدفء الفراش؟ أعدك، لن تندمي يا شوكولاطتي الحلوة.

- أنت بلا شك أحمق ومجنون، من الآن فصاعدًا سأفكِّر مليون مرة قبل أن أجيء إليك.

- أتحداكِ، لن تستطيعي، لأنكِ مجنونة مثلي تمامًا.

- لن أصل أبدًا إلى مستوى جنونك.

قالت ذلك وهي ترتدي التبان القصير جدًا الذي أصبح نصفه محشوًا بين ردفيها، ثم سروال الجينز وقميصًا شتويًا من الصوف، ومعطفًا جميلاً ينحصر حول خاصرتها، وهو الأمر الذي أضفى عليها مسحة جمالية بموضة باريسية خالصة.

انحنتْ عليَّ في الفراش، قبَّلتني قبلة قوية وصادقة، ثم ودَّعتني على أمل لقاء قالت بأنه لن يتأخر طويلاً، ثم خرجتْ بخطوات أنيقة وخفيفة.

نهضتُ بدوري من الفراش، أخذتُ حمامًا دافئا ومنعشًا أدخل الحيوية والعنفوان إلى نفسي بعد حريق الليلة الملتهبة التي قضيتها في الفراش رفقة كريمة. لبستُ ثيابي، أحب سراويل الجينز ذات النوعية العالية، وأحب أن أتهندم كما ينبغي لرجل يحترم رجولته أن يفعل، لبستُ المعطف الأثير لدي، وخرجت لتناول وجبة الفطور بكافيتيريا قريبة من محل سكناي. أحسستُ في الخارج بالبرد يتسرب إلى بطني الفارغة. كانت السماء ملبدة بغيوم سوداء داكنة تنذر بسقوط الأمطار في أي وقت، وكنت أسمع وقع حذائي الرتيب على الرصيف مترادفًا مع صخب المارة، والريح التي تهز الأشجار النابتة على أطراف الشارع.

دخلتُ الكافيتيريا، وسرعان ما انتشرتْ داخلي موجة دفء أعادت لنفسي حيويتها ونشاطها وعنفوانها الصحراوي الحار المعهود. طلبتُ كأس قهوة كابوتشينو مع قطعتي كرواسان، ثم تناولت فطوري

**بلذة وبهدوء وأنا أسترجع في ذهني سحر ريم في صورها الباهرة، وجنون كريمة الشرس الذي تمارسه في حميمياتنا، وخلال ذلك كنت أتحسر على وقت مهدور من زمن خائب، أعيش قسطًا وافرًا منه على مستوى افتراضي تخيلي غير مجدٍ في شيء. يجب أن أعترف، أن تعلقي البليد بصور أفرزها الإنترنت في لحظة غبية ومباغتة، ما هو إلا انعكاس لحالة من الضياع النفسي الذي ظلّ مترسخًا وغائرًا في أعماقي.**

• • • •

( ٢ )

مرَّ الأسبوع رتيبًا ومملاً في العمل بالمطعم الإيطالي، كنت أشعر باستفزاز مستمر من باتريك ونكاته السمجة التي لا يضحك لها إلا هو، بعد ذلك كان عليَّ انتظار الموعد الذي حدَّدته كريمة في الحديقة. تصوَّرتها حين التقينا وكأنها تحاول الطيران فوق السحاب، بل خُيِّل لي أنها تطير فعلاً مثل طائر كناري فوق الأشجار العملاقة، كانت منتشية وفرحة، إنها تحب الحرية والمساحات المفتوحة على الحبور والانشراح. بينما كنت أنا المثقل من الداخل في ذلك اليوم بصور ريم، أشعر بتعب يهدُّ أعصابي، تعب يجعلني سجين حالة من الكسل لا تتلاءم مع طبيعة كريمة المنطلقة المليئة بالحياة والحيوية. لم أختر بمحض إرادتي، في هذا الجو الغائم المفعم بروح شتاء باريس التي كانت ذلك اليوم غير مندفعة في عدائها الذي ما فتئ يهاجمني في لحظات ضعف برد يستبدُّ بي من الداخل أكثر منه من الخارج، لم أختر من تلقاء نفسي أن أجوس متجولاً بجانب كريمة في هذا المكان العبق بشاعريته المؤجلة، شاعريته التي لم يحن موعدها وأوانها بعد.

في الحديقة الجميلة، راحت كريمة تختبئ خلف الأشجار، في لعبة مسلية أرادت من خلالها أن تجرَّ خيالي بدون وعي منها إلى طقوس من الطفولة البعيدة التي كانت لا تزال عالقة في ذهني

وأنا في المغرب، حين كان عالمي مزيجًا من مرح المراهقة الصبياني البريء، وشقاوتها التي تتسم أحيانًا بكل ما هو غير لائق؛ في عُرف أخلاق المجتمع، الذي كان يرسم لنا حدودًا ضيقة على جميع تصرفاتنا العفوية وغير العفوية... يا لها من طفلة غرة وحُرَّة وساذجة وفطنة هذه الكريمة التي تجمع المتناقضات كلها في آنٍ واحد.

جريت خلفها، كدت أقبض عليها، لكنني تقاعست، تثاقلت قليلاً حتى أفسح المجال لإثارة أكبر. أخذتْ كريمة تجري منتشية بنفسها وبعالمها الخاص الذي بدا آنذاك أنها تعيشه لوحدها، بينما كنت أنا لا أزال سجين تلك الصور التي اخترقت مخيلتي عبر الإنترنت، عابرة كل مشاعري وأحاسيسي وعواطفي التي انقادت نحوها بطريقة غير مفهومة. أخيرًا، وبعد مطاردة مصطنعة لعدة دقائق، ألقيت القبض على كريمة وهي متلبسة بجرم الهروب المتعمد من عتمة يوم لا شمس فيه، يوم لم يتميز إلا بفرح كريمة التي تنثره حولها كأوراق ورد جميل، وفي يوم أرادته كريمة عطلة تتحرر فيه من ضغط وتعب العمل الذي ما فتئ يستبد بها من حين لآخر. ضممتُها إلى صدري، طوَّقتُ خاصرتها بذراعي، بينما كانت هي تواصل اللهث بسبب الجري الذي مارسته بكل متعة في الغابة، ووسط أشجارها العارية، وفوق الأرض التي تراكمت عليها الأوراق الصفراء الذابلة المبللة بشتاء باريس الكئيب. لثمتها على شفتيها لثمًا خفيفًا وعذبًا... استمرت اللعبة

لعدة لحظات، قبل أن ترتفع وتيرة اللثمات التي أصبحت قُبْلاً نارية نتبادلها بكل الحرارة والعنفوان.

أخذتُ يد كريمة وتجولنا في الحديقة كعاشقين حقيقين، بينما الأمر في الواقع لا يعدو كوننا مجرد صديقين نتبادل حميمياتنا أحيانًا بمتعة وشراسة ماحقة، بعيدًا عن المشاعر والأحاسيس التي تمَّ تحييدها عن بعضنا ضمنيًا حتى لا نرتبط بالتزامات معينة كنا في الواقع في غنى عنها.

للحديقة سحر خاص، سحر التحرر من كل شيء، كل شخص يمارس فيها واقعه اليومي أو اللحظي بالطريقة التي تروق له، يمكنك هناك أن ترى عجوزين يمشيان ببطء، مستمتعين بخريف عمرهما، والمراحل الأخيرة من حياتهما. كما أنك سترى شبابًا يافعًا يمارس طقوس عشق بريء يحلُّ ضيفًا خفيفًا ورائقًا بينهم.. ثم أنك لن تستطيع تفادي رؤية مدمني المخدرات الذين تعاين بأسى يمزق القلب؛ كيف يسعون بمحض إرادتهم لهدم حياتهم، وتشتيت ماء العمر فيهم، ليظل مجرد حطام متبقٍ منهم، الحطام المرتسم كغمام قاتم على وجوههم الشاحبة الذابلة المفرغة من أي مسحة لحياة ما يمكن أن تظهر على سحناتهم اليابسة...

هل تمثِّل هذه الحديقة حقيقة وواقع مدينة باريس بكل تناقضاتها الكثيرة المعقدة؟ ربما، ولكن لباريس أوجه أخرى تحيلك إلى عوالم مختلفة ما عليك إلا أن تنتقي موقعك منها

إذا كنتَ تمتلك حقًا حرية الانتقاء، وهي العملية التي ليست متاحة إلا لقلة قليلة جدًا. لكنني وكريمة كنا نملك فعلاً انتقاء لحظاتنا التي نعيشها بكل وهج الدهشة والمتعة التي تزرعها داخلنا الحرية التي بنيناها بإصرار كريمة أولاً، وحتمية مواجهة إكراهات واقع مُرٍّ لا سلاح لنا فيه غير المواجهة والانتصار. لم نكن نحتاج المشي على السجاد الأحمر المخملي لنثبت ذاتنا في مدينة لا تعترف بأي شيء، حتى بذاتها. مجرد المشي إلى جوار كريمة يمنحني شعورًا دائمًا بالنشوة والفرح، فرح لا أشعره عابرًا، إنه فرح يستبدُّ بي، بل ويُخيل إليَّ وكأنني لن أنفك منه أبدًا.

فجأة سألتني كريمة وأخرجتني من شرود عميق وبعيد، كنا لا نزال نمسك بأيدي بعضنا البعض:

- تحول ما يطرأ عليك في الآونة الأخيرة ؟
- تحول؟!!
- تشرد شرودًا، غالبًا ما يكتسي طابعًا حالمًا لا أفهمه، شرود يبعدك ليس فقط عني، بل يبعدك حتى عن نفسك.

كانت محقة كريمة، وكنت أفهم مرماها، منذ أن هاجمتني صور ريم بشراسة جميلة وأنا مسكون بلوعة خادشة لفؤادي وأفكاري التي أصبحت أكثر شرودًا.

قلت لها وأنا أبدي القليل من الاكتراث لملاحظتها:

- في هذه الحياة نحن معرضون دائمًا لتحولات غير متوقعة، وأحيانًا كثيرة بدون سبب وجيه، على الأقل في وضعيتي.. هل تتفقين معي؟

نظرتْ إليَّ نظرة متفحصة ثم قالت:

- أسألك لأطمئن عليك.

- شكرًا على اهتمامك يا كريمتي العزيزة.

ابتسمتْ ابتسامة عريضة وسألتْ السؤال ذاته الذي دأبتْ على طرحه بمزحة لا تحمل أي مدلول:

- ولكن لماذا لم تطلب يدي؟.. ولو على سبيل التجربة.. قد أوافق.. من يدري؟ لستَ رجلاً سيئًا أبدًا.

- لن أرتكب هذا الجنون، أقصد الزواج،.. إنه أسوأ شيء في الحياة.

خرجنا من الحديقة، واندمجنا في زحام وحركة شوارع وأزقة باريس الهادرة بأهلها وبمواصلاتها، لم يكن لدينا برنامجٌ محددٌ لذلك اليوم، اللهم إلا الشغل الذي ينتظرني مساءً بالمطعم الإيطالي، بينما كانت كريمة متحررة من كل شيء، حتى من نفسها. كانت لدي رغبة لارتياد بار لاحتساء زجاجات بيرة، لكن كريمة لا تحب الجلوس في البارات لمجرد أنني أرغب في احتساء كؤوس خمر، تلك العادة التي طالما استغربتْ هي كيف أنني لم أستطع التخلص منها. كنت أتقبل رأيها بصدر رحب، لأنني أولاً وأخيرًا كنت أجد كلامها على صواب. في الأخير تعودت كريمة الأمر ولم تعد تثير الموضوع معي كما كانت تفعل في البداية.

دخلنا محل بيتزا هوت، تناولنا وجبة الغداء، اخترنا معًا بيتزا بفواكه البحر مع عصير مشكل فاخر ولذيذ. كان المحل مكتظًا بالسياح وطبعًا الكثير من الفرنسيين.. جلسنا في الركن القصي، يعجبني دائمًا أن أنتقي مكاني في مؤخرة أي مجلس حتى أستطيع احتواء المشهد كله بنظري. حاولتُ أن أقبّل كريمة، سمحتْ لي ببعض القُبل الخفيفة على خدّها، لكنها تمنعت حينما أردتُ أن أقبلها على شفتيها، استبدّ بها نوعٌ من الحياء. تعجبني أيضًا في حيائها الذي يلازمها أحيانًا في مواقف غير متوقعة. تفهمتُ الأمر ولم ألح عليها. خرجنا متأبطين، لفحنا هواء بارد حل متأخرًا بعد الزوال في باريس، كان زائرا ثقيلاً وغير مرغوب فيه أيضًا، مع ذلك اعتراني إحساس غامر بالنشوة وأنا بجانب كريمة، على الرغم من أن تفكيري كان يشرد دائمًا ويتوجه في كل مرة إلى صور ريم.

توجهنا معًا إلى محل سكنى كريمة في الضاحية الجنوبية لباريس، ركبنا الأوتوبيس وسط زحام شديد، جلست على كرسي في أقصى الأوتوبيس، وجعلت كريمة تجلس على فخذي ويدي تحيط بخاصرتها. نشر جسدها المثير داخلي إحساسًا مشتعلا بالرغبة العارمة، لكريمة جسد فاتن مرتسم بأناقة ودقة آية في الجمال والفتنة. نظرت إلى وجهها الجميل الذي ترتسم فيه عينين واسعتين كعيني ظبي وديع، وأهداب طويلة ساحرة، وشفتين نافرتين متحفزتين عبقتين بالإثارة. تساءلت في نفسي،

كيف لم أسقط صريعا في حب هذه الفتاة الفاتنة؟ كيف استطعت الحفاظ على المناعة الكافية ضد أسلحتها الأنثوية الفتاكة؟ وصلنا إلى محل سكناها، رافقتها فقط لأجل أن نحتسي معًا كأس قهوة لساعة أو أكثر قليلاً قبل أن أتوجه إلى عملي في المطعم الإيطالي، بحديث عماله التي تستفز أعصابي، خصوصًا باتريك البذيء الذي لا أطيقه ولا أتحمل العمل إلى جانبه إلا على مضض. أعدت كريمة قبل توجهي الى العمل، كأسي قهوة لذيذة معطرة بأريج القرفة والفلفل الأسود، ثم جلسنا نرتشف بملذة اللحظة العذبة التي أوجدتها كعادتها كريمة، بكل الروعة التي تبرع في خلقها.

فكرت وأنا في طريقي إلى المطعم المختص في الأكل الإيطالي: يا لهذه الكريمة الحلوة الجميلة، يا لها من فتاة تبرع في صناعة كل عناصر المتعة، وتجعلك محاطا من كل جهة بأريج اللذة والنشوة الحسية التي تتسرب إلى نفسك بمجرد وجودك إلى جانبها. لكنني رغم كل ذلك لم أجد لها مكانا ضمن شساعة المساحة في قلبي، صحيح أنني أكن لها ودا خالصا وصادقا، ولكنني لا أعشقها بذلك المعنى التقليدي لكلمة العشق. لم يحدث ذلك لأنني كنت غارقا بعبثية في عشق وهمي لفتاة تشبه برج ايفل في معناه بالنسبة للكاتب الفرنسي الكبير دو موباسان الذي كان يقول إن أكثر شيء يمقته في باريس هو برج ايفل، لكن الأمر الغريب أنه كان دائمًا ما يشاهد داخل مقصف

في برج ايفل، جالسا يكتب أو يدردش مع أصدقاءه الكثيرون من رجال الفكر والمعرفة. وحين كان يُسأل عن المفارقة الغريبة التي يمارسها عمليا في كونه يكره برج ايفل ولكنه في الوقت نفسه يتواجد داخله باستمرار، كان دو موباسان يرد بذكاء وبساطة شديدة:

- لأنك على الإطلاق، في كل مكان من باريس تستطيع رؤية برج ايفل، ولكن إذا كنت داخله فانك لن تراه، وبهذه الوسيلة أتحاشى رؤية الشيء الأكثر إزعاجا لي في باريس. حاولت من جانبي قلب المعادلة التي تبناها دو موباسان، لقد قررت في ذات يوم قرارا حاسمًا، لا شك سيعتبر من منطلق منطق أو آخر قرارا غريبا، قررت تكبير حجم صور ريم الكثيرة لأعلقها على كل جدران حجرتي. يا لها من فكرة! بهذا تصبح ريم تشغل ليس فقط كل الحيز الشاسع الذي أفسحته لها في نفسي، ولكن أيضًا أجزاء كثيرة من حيز شقتي الصغيرة.

أخذت القرص الذي كنت قد نسخت عليه سابقًا صور ريم، وتوجهت به إلى المحل الفوتوغرافي القريب، شرحت الفكرة لصاحب المحل، وطلبت منه أن يكون قياس كل صورة أربعين سنتمترا على أقل تقدير. استجاب لطلبي فورا، ووعدني بإنجاز المهمة على أن أمهله إلى صباح الغد. لم يتوفر لدي فائض مالي كاف وإلا لطلبت منه أن يجعل صور ريم في إطارات مذهبة فاخرة

كما ينبغي لصور أميرة خرافية الحسن أن تكون. كان المساء يقترب، وبدأت زخات قليلة من المطر تتساقط على الأرصفة والوجوه المبللة المغسولة بضباب باريس القاتم. عدت مبتهجا إلى حجرتي، تناولت أكلا خفيفا على عجل، ارتديت ملابس الشغل، ثم توجهت إلى المطعم الإيطالي، سأجد في وجهي سحنة باتريك الحمراء الذابلة، وابتسامته الصفراء المفرغة من أي معنى، وسأضطر للاستماع لتوافه حديثه عن أشياء سخيفة لن تعمل إلا على تقطيع أحلامي السعيدة البريئة حول ريم، تلك الأحلام التي تجعل عملي ممكنًا ومتحملا ولا أضجر منه رغم قسوة العمل طيلة الليل تقريبا.

بعد يومين، وبينما كنت أتجول في عالم الإنترنت، وجدت نفسي وبحس غريزي مبهم أعثر على صور ريم، والأغرب انني اكتشفت بأنها شخصية عامة، وأجمل ما في الأمر أيضًا أنني وجدت رقم هاتفها، واكتشفت أنها من(... )، كان الأمر بالنسبة لي حين رأيت الأرقام مرتسمة على شاشة الكمبيوتر كمن يقرأ رقم اليانصيب الصحيح، وهو الرقم نفسه الموجود في ورقة اليانصيب التي اشتراها. دونت بسرعة الرقم في المفكرة خوفا من أن يتلاشى أو يختفي في أي لحظة. لم أصدق نفسي وأنا أنظر إلى الرقم، بدا الأمر أشبه بالمعجزة. رغم ألق اللحظة وعذوبتها، فان الإشكال سرعان ما انبثق ليضعني أمام حقائق وخيارات صعبة ومثيرة، تساءلت بحيرة: هل أملك الجرأة لمهاتفة ريم بكل هدوء وثقة؟

وإذا فعلت هل أستطيع التحدث إليها بدون أن يتلعثم لساني ويعجز عن نطق جملة مفيدة؟ ثم ماذا يجب أن أقول، أو بعبارة أخرى ماذا ينبغي أن يقال في مثل تلك المواقف؟ أي شيء يقال يكون مجرد عبث شخص مراهق الذهنية، ولن أكون بالتالي محل ثقة من شخصية كشخصية ريم التي تمتلك بعدا اعتباريا ومعنويا في بلدها (... ).

في لحظة منفلتة من عقال الواقع وتجلياته، وجدت يدي تمتد إلى هاتفي النقال، ضغطت على الأرقام بدقة متناهية، وبعد أن أكملت العملية، بقيت الخطوة الأهم، وهي الضغط على زر الإذن ببدء المكالمة. رفعت إصبعي ووجهته للزر، لكن شيء ما كان يحول بين إصبعي والضغط على الزر، بقيت على ذلك الوضع ولم تواتيني الجرأة، يا له من شعور مؤلم ومخيب للأمل ذاك الذي أستبد بي. أغلقت الهاتف، وقلت مواسيا نفسي، إنها مجرد معركة صغيرة، خسرتها بشرف وعلي أن أعترف بأنني لست، ملزما مثلي مثل غيري، بالانتصار في كل المواجهات التي نخوضها، هناك معارك نخسرها، ولكن في المقابل هناك أيضًا معارك أخرى حاسمة ينبغي أن نربحها، وهو رهاني الذي كنت أراهن عليه. كنت سأصر في المرة المقبلة أن أتحدث إلى ريم لأشرح لها وضعي وما أعانيه بسبب صورها التي تذبح قلبي يوميا، ستتفهم الأمر، لن أطلب منها الشيء الكثير، مجرد سماع صوتها سيكون بالنسبة لي البلسم الذي سيشفي آلام الغربة والوله وخيبة فصول الواقع المر

الذي أعيشه. فكرت فورًا في النبرات الساحرة التي سيفرزها فم مضموم صغير مرتسم كجرح جميل في وجه قمري الألق والبهاء.

توجهت الى الفوتوغرافي لأسحب الصور الكبيرة التي كنت قد طلبتها سابقا. تهندمت كما ينبغي لعاشق موله على موعد غرامي أن يتهندم، ورششت بعض العطر الخفيف على ملابسي، ثم غادرت حجرتي متوجها للمكان الذي سأرى فيه ريم بالوجه الذي يقارب الحجم الحقيقي لوجهها، اجتاحتني حالة من الرهبة أول الأمر، رهبة تشبه تمامًا الموعد الأول مع الحبيبة الأولى. كان صاحب المحل منشغلا مع زبون آخر قبلي، وكنت مجبرا أن أنتظر بفارغ الصبر ريثما ينتهي مع الزبون، ولكم بدت لي تلك الدقائق ثقيلة وطويلة، لكن ذلك الزبون سرعان ما أخذ حاجياته وانصرف، حينذاك التفت إليّ صاحب المحل، وقال:

- يوم سعيد سيدي.

- يوم سعيد.

أخذ مظروفًا كبيرًا كان عليه اسمي وبياناتي وسلمه إلي.

دفعت إليه الأجر، وغادرت مسرعًا وأنا كلي شوق لرؤية تلك الصور، لم يكن من اللائق أن أفعل ذلك في الشارع، رغم الفضول الجارف الذي كان يدفعني، ثم أن القطرات المطرية الخفيفة المتساقطة من سماء باريس، منعتني من أن أعرض وجه ريم للبلل. دخلت إلى شقتي وأوصدت الباب خلفي، وتمددت على السرير وبدأت

أتأمل تلك الصور واحدة تلو الأخرى. ياه!! كل مرة أكتشف في ريم سهما آخر يُغرز بألم وعذوبة في قلبي، صورتها وهي الآن بهذا الحجم، تجعلني أعتبرها كائنا حقيقيًا موجودا بجانبي. مددت صورتها بالشال الوردي أمام عيني، تأملت وجهها الصبوح، وشفتيها الكرزيتين، وعينيها المصبوغتين بلون التركواز الحالم. صرخت كالمجنون وحيدًا في فراغ الحجرة المهول: من ينقذني من سحر هذه المرأة القاتلة؟ من يحميني من رونقها الفاتن؟ من يخلصني من عذاب جهنمها اللذيذة؟ لم يكن إلا الصمت الغبي يجيبني، ويضحك تلك الضحكات الساخرة البليدة التي تشعرني بضعفي الذي أكتشفه مرغما داخلي.

كان يجب عليَّ أن أفعل ما كان يجب أن أفعله منذ أن قررت تكبير حجم صور ريم، بدأت أنزع من على الجدار الساعة الكبيرة، والأجندة السنوية بالتقويمين الهجري والميلادي، وبعض اللوحات التي اقتنيتها من سوق خردة للوحات مصورة عن فتيات أفنيون لبيكاسو، إلى جانب صورة كاريكاتورية رسمها لي أحد الفنانين الهواة مقابل خمسة أوروبات. فعلت ذلك بسرعة متناهية، وراكمت الكل بجانب المكتب، رغم حبي لتلك التحف التي كنت أعشقها ولا أزال أعشقها عشقا جارفا، إلا أن صور ريم جردت كل شيء من الحيز الذي كان يأخذه في نفسي، لم يعد أي شيء يهم أمام صور ريم الكبيرة التي دخلت المنزل لتزرع فيه روحا جديدة وجمالية جديدة، بدت لي حينذاك تفوق

لوحات بيكاسو وسالفادور دالي ولوحات فان خوخ وليوناردو دافينشي وأعظم فناني العالم، يا للسذاجة، أقول لنفسي حين أتذكر كل ذلك الآن.

بدأت بعناية بالغة تعليق صور ريم وتوزيعها على جدران الحجر، كنت أراعي في ذلك عدة اعتبارات، أهمها مثلا الصورة التي أفتح عليها عيني من النوم وتكون في مواجهة سريري تمامًا، والصورة التي تستقر عليها عيني بمجرد أن ألج من الخارج إلى داخل غرفتي، والصورة التي يجب أن توضع أعلى المكتب، حين أتعب من الكتابة أو القراءة أرفع عيني لأتملى في الوجه النوراني البديع. وهكذا رحت أوزع الصور بناء على هذه الاعتبارات، الاعتبارات التي كان يتحكم فيها العامل النفسي والعاطفي بالأساس. بعد جهد جهيد ومتواصل أنهيت العمل، وكنت مسرورا جدًا للنتيجة النهائية، فقد اكتست حجرتي حلة جديدة، وغمرتها صبغة جمالية توزعت في كل أرجائها، لكن في المقابل أحسست نفسي ضئيلا وسط هذا المدى الواسع والشامل من الجمال، أحسست نفسي وكأنني لا شيء وسط هذا الزخم العبق بكل ألوان الحلم والبهاء. في لحظة معينة ندمت على فعلتي، وهناك فقط أدركت المدلول الخفي لمقولة الكاتب الفرنسي الكبير دو موباسان. دو موباسان لم يكن يمقت برج ايفل، بل أجزم بأنه كان يهرب من الجمال الطاغي غير المتحمل بالنسبة لفنان مرهف الحس كالكاتب دو موباسان. برج ايفل من أروع المعالم والصروح البالغة الجمال في

العالم، حواس دو موباسان المفعمة بدلالات الجمال الحقيقي لم تتحمل رؤية برج ايفل أينما تواجد، لذلك استطاع التغلب على ورطته الجمالية تلك بأن هرب إلى داخل البرج حتى لا يبقى أسيرا لجماله وجبروته الهائل الذي كان يرهق، بدون شك، حواسه ومشاعره تجاه مشهد لا أحد ينكر أو ينفي جماليته. ولكن حين أردت أنا أن أقلب معادلة دو موباسان، فإنني أسقطت نفسي في الفخ الذي تحاشاه الكاتب الكبير بذكاء كبير أيضًا، ووضعت نفسي في المطب الذي تغلب عليه دو موباسان ببراعة. لم أستطع فعل أي شيء، كان قد فات أوان كل شيء، لا يمكنني إزاحة هذه الصور من على الجدران، حتى وان رغبت في ذلك، فان قلبي لن يطاوعني أبدًا. تأملت الصور في حجرتي الضيقة بإعجاب كبير، بدوت تائها وسط الصور المزروعة في كل زوايا وأركان المنزل وأنا أبحلق فيها كمن فقد عقله، لم أستطع التركيز، كانت كل حواسي مبعثرة كقطع زجاج مكسور. لم أستفق من ذهولي إلا مع رنين جرس الباب الذي هز كياني هزا عنيفا، لم يكن ذلك الوقت بالنسبة لي هو الوقت المناسب لرنين جرس الباب، ولا لزيارة أحد مهما كان هذا الأحد، توجهت لفتح الباب. شدهت، تسمرت في مكاني شبه مصدوم وأنا أرى الفتاة الواقفة أمامي ليست إلا ريم، نعم لم تكن إلا ريم...

عفوا هل قلت ريم؟! لا، في الواقع أريد أن أقول كارولين. ما الذي جاء بها إلى هنا وفي هذا الوقت بحق السماء؟

قالت برقة بددت البعض من قلقي:

- طاب يومك عمر.

- طاب يومك كارولين، تفضلي أدخلي.

دخلت كارولين وهي تقول:

- رأيت النور في حجرتك، ولذلك توقعت وجودك.

كنت قد أشعلت النور في حجرتي لسببين، رغم أننا كنا في بداية المساء تقريبًا، السبب الأول لكي أستطيع رؤية صور ريم بشكل واضح، وثانيا لأن نهارات شتاء باريس معتمة وقاتمة وهو الأمر الذي يفرض أحيانًا أن تشعل النور حتى في عز النهار. قدمت كرسيا لكارولين، وجلست أنا في مقابلها على بعد مترين تقريبا. حدث ما توقعته، أخذت كارولين تجول بعينيها على صور ريم المتناثرة كشجيرات لبلاب مزهر على جدران منزلي، لست أدري ماذا كان يدور في خلدها وهي تنظر بهدوء بعينيها الصافيتين، ولكن بدا إعجابها واضحا بالصور. هل شعرَت بالغيرة؟ ربما، كل إناث العالم يغرن من امرأة جميلة حتى ولو كانت مجرد صورة. هناك من قال أن المرأة لا تتزين زينتها الكاملة وتخرج للشارع إلا لتثير غيرة النساء أولاً قبل جلب اهتمام الرجال.

- إنها صور جميلة.

قالت كارولين، ثم أضافت قبل أن تفسح لي المجال للتعليق حول كلامها:

- هل هي مشهورة في بلدكم.

أجبت بتلعثم لم أستطع مداراته:

- إنها خطيبة لصديق لي يسكن في مدينة بوردو، من المفروض أن يزورني غدا، رتبت الأمر مع خطيبته التي توجد في المغرب، بعثت لي هذه الصور لنخلق له مفاجأة لطيفة ستسعده كثيرًا بدون شك.

- الفكرة جيدة.

- ماذا تشربين؟

سألتها وأنا أقف مستعدا لتلبية طلبها على الفور، والهروب من الموقف على الفور أيضًا.

- جئت فقط لأبقى لوقت قصير أقول فيه بعض الكلمات ثم أنصرف، ولكن لا مانع من كأس قهوة بالحليب، وقليل جدًا من السكر.

حضرت كأسي قهوة لكلانا، ثم عدت وجلست أمامها وأنا كلي شوق لمعرفة ماذا تريد أن تقول هذه الشقراء الجميلة.

- أتأسف، لم يكن ينبغي أن أطردك من منزلي في تلك الليلة، وبتلك الطريقة التي أجد أنها لا تليق لا بك ولا بي.

كان ذلك آخر ما توقعت أن تقوله كارولين:

- بدوري أتأسف على ما صدر مني، كنت في حالة سكر، لم أتحكم في تصرفاتي، لقد أتيت فعلاً غبيا في الواقع.

- أفهم أنك كنت في حالة سكر، كما أنني أعرف طباعك حق المعرفة، لذلك جئت لأعتذر.

- أنا من يجب أن يعتذر، وكنت سأعتذر لك، ولكنني لم أجرؤ. ينبغي أن ننسى، لن أكرر تلك الحماقة أبدًا. أما أنت فقد تصرفت بالشكل الذي كان ينبغي أن تتصرفي به، بل لم تصدر منك أي كلمة مسيئة وهذا يجعلني أحترمك وأقدرك أكثر.

- شكرا، أنا لا أزال أعتبرك صديقا كما كان الأمر دائمًا، حادثة تلك الليلة لن تؤثر في موقفي منك.

- كلامك يشعرني بالذنب أكثر.

- أعتقد أنه حان لي أن أغادر، يمكننا أن نلتقي دائمًا، هذا عنواني ورقم وهاتفي، اتصل بي متى شئت.

سلمتني البطاقة التي عليها رقم هاتفها وعنوانها الجديد، بدوري سلمتها رقم هاتفي وطلبت منها ألا تتردد في أي شيء أو مساعدة قد تحتاجها. غادرت كارولين شقتي، أي صدفة رمت بها إلى عالمي من جديد؟ أي قدر ساقها في مثل هذه اللحظة التي كنت ألتهم فيها صور ريم بشراهة ذئب جائع.

• • • •

## (٣)

في صباح ذات يوم كانت تهطل فيه الأمطار بغزارة، وكنت أتأمل طويلاً صور ريم التي تزين جدران الغرفة، وأسمع نقر قطرات المطر على زجاج النافذة الكبيرة، وأشعر لذلك نشوة رومانسية حالمة تنسجم تمامًا مع بعض الحزن القابع في أعماق قلبي، ذلك الحزن غير المُبرر، الحزن الذي يسببه المطر، أو صور ريم التي تحز فؤادي كمنشار بأسنان حادة. شعرت برغبة عارمة للبكاء، أحيانًا يكون البكاء هو الوسيلة الوحيدة للتخلص من الضعف البشري. لكنني لم أبك، ظللت أبحلق كالأحمق في صورة ريم المقابلة لسريري وهي تتوشح بذلك الوشاح الوردي. كان جهاز الموبايل قريبًا من يدي، أخذته، وركبت أرقام ريم، وحانت لحظة الحسم التي ستتوج حلمي الطويل الذي عشت عليه لزمن طويل. كانت أصابعي ترتعش، بدا صوتي مختنقا، تنحنحت لأحرره من غصة تراكمت فجأة، أو خيل لي أنها تراكمت في حلقي، في المرحلة الأخيرة التي كان يجب أن أضغط على زر انطلاق المكالمة، تجمد إصبعي من جديد، ولم أستطع تحريكه بالرغم من المحاولة النفسية الجبارة التي بذلتها. هزمت مرة أخرى، هزيمة ثانية ربما دمرت كل حلمي ريم، هل سأجرؤ لأكرر الفعل مرة أخرى؟ لست أدري، لكنني أشك حقيقة في إمكانية ذلك، لقد ارتسم بيني وبينها حاجز وهمي من عدم الثقة. فجأة رن جرس

الهاتف، كانت كريمة على الطرف الآخر، تحدثت بسرعة وارتباك، وبنبرة مجروحة لم أتعود عليها في صوت كريمة، صوتها الذي كان ينطوي على حزن عميق وكآبة لا تحد، كآبة جميلة يتهدج بها صوتها الرنان الذي يشبه شدو عصافير الكناري في جبال الريف المغربية. صرخت مرعوبا في الهاتف:

- كريمة، هل هناك مشكلة؟!!

صمتت لبعض الوقت، ثم قالت وخرج صوتها متحشرجا ومتشنجا،.. هل كانت تبكي؟ نعم أكاد أجزم بأنها كانت تبكي فعلا:

- أنا في ورطة يا عمر، ورطة حقيقية هذه المرة.

- أستطيع مساعدتك، حتى لو اقتضى الأمر أن أجازف بكل شيء.

كنت صادقا في تعاطفي اللامحدود مع كريمة.

صمتَت مرة أخرى، وشعرت بزفرة خرجت حارقة من صدرها، حتى خيل لي وكأنها تلهب وجهي بلهيب حار. قالت وكانت الكلمات لا تزال تخرج من فمها بحشرجة معذبة وباعثة على الألم الذي أحسسته يقطع فؤادي:

- لقد وقعت في الحب يا عمر.

ضحكت ضحكة عالية، سأكتشف لاحقًا كم كانت تلك الضحكة غبية ولا مجال لها وسط ذلك الجو المشحون بألم اللحظة القاسية التي كانت ترزح تحتها كريمة.

- ولماذا كل هذه المأساة يا كريمة؟ أنت شابة لم تتجاوزي الرابعة والعشرين من عمرك، متفتحة على متع الحياة، فلا بأس أن تحبي، هذا حقك الإنساني، وليس هناك من يستطيع منعك من مثل هذه المشاعر، يجب في الواقع أن أهنئك على هذا الشعور.

- انك لا تفهم يا عمر، الحب الذي اقتحمني هذه المرة مختلف ومغاير، وأنا أشعر بنفسي أغرق فيه يومًا عن يوم.

- شيء طبيعي، إذا كان الشخص الذي تحبينه يروق لك، وهذا أمر مسلم به طبعًا.

- انه يروق لي إلى أبعد وأقصى الحدود، ولكن الإشكال يتجلى في بعض المبادئ التي يصعب شرحها.

لم أفهم قصد كريمة بكلامها حول المبادئ وعلاقة ذلك بالحب، حتى في مراكش ذاتها تحدث قصص حب جميلة ومجنونة، وبكل الأوصاف التي ينبغي أن توصف بها. لطالما بدت كريمة بعيدة عن هذه الاعتبارات، لكنها الآن تبدو جادة في كلامها، وأكثر من ذلك تبدو في حالة ضياع استبد بها على حين غرة، أو أنها كانت تخفي ذلك الضياع لزمن طويل قبل أن تفجره الآن في وجهي بشكل يبدو دراماتيكيا وهستيريا إلى أبعد وأقصى حد. قلت لها، وأنا لا أملك الكثير لأقوله في الواقع، فهي تبدو غير مستعدة للبوح بأكثر مما قالته، وأنا بدوري لا أجد من

اللائق أن أحرجها بأسئلة قد لا تروقها، وقد لا تكون من الناحية النفسية مستعدة للإجابة عليها:

- كريمة، هل ترين أنني أستطيع مساعدتك في شيء؟ أنا جاهز دائما.

صمتت طويلا، طويلاً أكثر من اللازم، هل كانت تبكي؟ أعتقد ذلك، بل خيل لي وكأنني كنت أسمع نشيجها. ردت بصوت متهدج ومشحون بالحزن والكآبة:

- لا أعتقد يا عمر، ولكنني أشكرك على أية حال، أشكرك على الأقل على حسن نيتك، أنت الوحيد الذي لن يستطيع مساعدتي في هذه المحنة بشكل مباشر مع الأسف.

لم أفهم ما المطلوب مني، بدا كلام كريمة جد غامض، خصوصًا عباراتها الأخيرة، لكنني اقترحت عليها موعدا قريبًا لبحث الموضوع معًا وبأكثر قدر من الصراحة، استجابت للدعوة واتفقنا على تاريخ محدد. كان ذلك كل ما يمكنني أن أفعله أمام مشكل يبدو أنه يقتحم بشراسة عواطف وقلب كريمة الرقيق.

بعد أن وضعت الهاتف جانبا رحت أخمن نوعية هذا الحب الذي اكتسح كريمة كإعصار من أعاصير المحيط الهادي الهادرة. فكرت في كل الاحتمالات، وأفزعني احتمال هاجمني بشراسة، وتساءلت:

هل تكون كريمة مغرمة بي أنا شخصيا؟ هل كانت تنتظر مني إشارة ما طيلة هذا الوقت الذي مضى، وحين رأت صور ريم شعرت بأنها مهددة تهديدا حقيقيًا في مشاعرها، لذلك أخذت المبادرة بنفسها لتعبر عن أحاسيسها المشروعة؟ قد يكون الأمر كذلك، وجميع المؤشرات توحي بمثل هذا السيناريو، ألم تسألني مرارًا على سبيل الدعابة لماذا لا تطلب يدي؟! يجب ألا أسبق الأحداث، وعلي أن أنتظر لقاء كريمة القريب، الذي سيكشف الكثير من الحقائق المغيبة عن ذهني. لم أكن في الواقع على استعداد لحب جديد، ولا أريد في نفس الوقت أن أتلاعب بمشاعر فتاة طيبة رائعة تروق لي، ويروق لي جسدها، لكنني أفرق دائمًا بين الحب والغرائز الأخرى، يمكننا دائمًا ممارسة حميمياتنا في كل آن ومع أي فتاة تروق لنا، لكننا لا نستطيع أن نحب في الوقت الذي نختاره أو المرأة التي نختارها، هناك رابط مقدس للحب يربط نفسه تلقائيا حولك وحول الطرف الآخر، وحينذاك لن تستطيع الإفلات منه لا أنت ولا الطرف الآخر.

استمر انشغالي طويلاً بمشكلة كريمة، لم أستطع التخلص منها، عدة تساؤلات كانت تؤرقني بشأنها، ما الذي استجد في حياتها؟ لماذا تعبر عن موقفها من هذا الحب بكل هذا الارتياع الذي لمسته في كلماتها وفي شجونها؟ كريمة فتاة غير محظوظة، زُوجت في عمر صغير، وكان زوجها شخصًا غير متفهم لطبيعة

أحاسيس وتصرفات بعض البنات في أعمار ومراحل معينة، في الوقت الذي كان عليه أن يتصرف بحكمة تليق بزوج ناضج يفوق زوجته بعدة سنوات في العمر وكذلك في تجارب الحياة، ليقود سفينة زواجهما إلى شاطئ الأمان، لكنه عكس ذلك ركب رأسه وعاند كل المواقف ليرهن رابط الزواج المقدس بمصير الطلاق الممجوج. لست محظوظة يا كريمة، مثلي تمامًا، كلانا نعيش في بوتقة مظلمة حالكة يغمرها الإبهام وتختفي ملامحها في المجهول، لست محظوظة.

مساء الأحد اتصلت بي كريمة، وقالت لي بأنها قادمة، وعلي أن أنتظرها بالقرب من سكني ويجب أن أصطحب معي مطرية لأن المطر كان يتساقط بغزارة شديدة جدًا. في تمام الرابعة مساء غادرت حجرتي وأنا أحمل مطرية كبيرة. كانت هناك أمطار غزيرة تهطل، مصحوبة بعواصف هوجاء. لم أستطع الاحتفاظ بالمطرية، سرعان ما اختطفها الريح مني ولوح بها بعيدًا جدًا، لم يكن هناك أي مجال للحاق بها. أصبحتُ عرضة للمطر النازل من السماء، مطر بلل جسمي فجأة، وفي لحظة واحدة، وجعل ألبستي كلها تنز بالماء. تسببت ليس فقط في تعريض نفسي للبلل الشديد، ولكن أيضًا سأعرض كريمة لهذا البلل، كريمة التي تحتاج في هذه المرحلة بالذات للدفء أكثر من أي مرحلة أخرى. حاولت أن أحتمي تحت واجهة بعض المحلات، ولكن الجو العاصف والرياح المتقلبة كانت تحول كل مرة اتجاه الأمطار لجهة مختلفة، لذلك ظللت عرضة للمطر الغزير في كل الأحوال.

انتظرت كريمة، وكانت الدقائق تمر ثقيلة ومؤلمة، وهذه الأخيرة لم تظهر بعد. خلا الشارع إلا من مارة قليلون يحملون المطريات ويحتمون تحتها مهرولين في كل الاتجاهات، كانت الأشجار الكثيفة تهتز بفعل الرياح التي تعصف محملة بمطر شبيه بمطر استوائي عنيف. هذا هو وجه باريس القبيح، هذا هو الوجه الذي أمقته فيها، حيث تصبح باريس بلا ملامح حقيقية، مجرد شبح مخيف يثير الذعر والفزع في النفوس. لكنها في الصيف شيء آخر، حيث الشمس غالبًا مشرقة ودافئة وحركة المارة نشطة ومستمرة، والسياح من كل الجنسيات، وأشجارها خضراء يانعة. لكنني كنت في تلك اللحظة أعيش أعنف أوقات شتاء باريس، بل وأقساها على الإطلاق، كان شتاء باريس هذه السنة يمارس ساديته بلا رحمة ولا شفقة، أنا الواقف كعمود ضوء منطفئ بلا حركة، أمارس جنونًا يعتبره المارون بلا مبرر. لكنني كنت أتحمل هذا الزمهرير لأجل امرأة شقية محبة باغتها الشقاء والحب في لحظة غير منتظرة، لحظة منفلتة من طيف المجهول. أخيرًا أقبلت كريمة، لمحتها من بعيد وهرولت نحوها، كانت ترتدي سروال جينز غامق اللون، ومعطف شتوي بني ينحصر حول خاصرتها ليجعلها باريسية الشكل والمضمون، هذا ما ورثته من فرنسا هذه المراكشية القادمة من بدايات جنوب المغرب، ومن تخوم جبال الأطلس.

بدت كريمة من بعيد مطأطأة الرأس، فوجئت حين رأتني بلا مطرية:

- أين المطرية؟

- لقد خطفها مني الريح... صدقيني يا عزيزتي كريمة.

- إنك تريد فقط أن تزيد في تعذيبي، لكنني تعودت، لن تفلح محاولتك على أية حال.

تعانقنا وقبلنا بعضنا بحرارة، أحسست برودة خديها وشفتيها المبللتين بماء المطر وهما تلتصقان بشفتي. كم أنت حارة وفواحة يا كريمة رغم البرد! قلت في نفسي، أنت لم تخلقي للحب، أنت كائن خلق للمتعة لارتشاف رحيق الحياة، للإبحار في أنهار فردوس الأحلام، للخوض في بحر من الانتشاء واللذة. كنا ملتصقان مع بعض والمطر الغزير ينهمر علينا، والرياح تتلاعب بشعر كريمة وتلوح به في كل اتجاه. كانت صامتة وهي تضع رأسها الجميل على كتفي وفخذينا ملتصقين، لم تقل أي شيء، ولم تطلب مواصلة المسير. استجبت لطلبها غير المعلن، وتركتها تمارس طقوسها الساحرة التي زرعت في جسمي خدرا ممتعا من اللذة والانتشاء، رغم البرد والريح والمطر الذي كان ينهمر علينا. هكذا هي باريس، وهذه إحدى حسناتها، إنها تتركك تمارس جنونك في فضائها بدون أن تزعجك، حتى المارة الذين كانوا يمرون بالقرب منا، كانوا يختلسون النظر إلينا ثم يواصلون السير، وهم يغبطوننا على ذلك الجنون الذي أفرزته لحظة من لحظات

كريمة التي لا أحد في باريس يمتلك سحر جنون أفضل وأحلى من جنونها. هل كانت تبكي وهي تضع رأسها على كتفي؟ هذا ما استنتجته من خلال هدوئها العجيب الذي كان يطغى على كيانها كله. بعد عدة دقائق رفعت إليَّ عينين دامعتين، محملتين بكل حزن العالم، وراحت بنهم تتناول شفتي، وغرقنا من جديد في لهيب حارق من القبل، تذوقت ملوحة دموعها المنهمرة التي تصل فمي بالقدر نفسه الذي تنزل به الأمطار فوقنا. لم أر كريمة طيلة تعرفي عليها على تلك الحال، حينذاك أدركت بجزم أنها الآن في حالة استثنائية جدًا، ولم يكن لي بد من أن أستنتج بأنها ربما أصبحت عاشقة مولهة بي. أنا الذي أحاول مطاردة صور ريم، الفتاة الافتراضية المنبثقة من أبعاد غير الأبعاد التي أعيش فيها هنا في باريس، أبعاد افتراضية غبية، ورغم ذلك كنت سعيدا بأحلامي وعذاباتي، ولم أكن مستعدا أبدًا لأي حب لأي امرأة من أي جهة كانت، حتى لو كانت كريمة المراكشية العزيزة على قلبي.

الورطة التي يبدو أن كريمة تعيشها ستحولها لا شك إلي، إنها طبيعة الأشياء. فكرت، كيف سأواجه هذا التحدي الجديد، هذا التحدي الذي يفرض نفسه بقوة علي؟ إنني احترم كريمة وأودها ودا عظيما، لذلك لا أريد أن أجرح مشاعرها. إنها إذا اعترفت مثلا بحبها لي، وهي حتمًا تمتلك الجرأة لفعل ذلك،

بماذا أجيب؟ أكيد لن أكذب عليها كما يمكن أن أفعل مع غيرها، وأكيد لن أغرر بها كما يمكن أن أغرر بغيرها.

إنها توقعني في ورطة حقيقية، ولكن عليَّ أن أنتظر، لم تنجل الأمور بعد ولم أكن أفهم عن أي حب تتحدث عنه كريمة، وأي شخص تعني، لا يجب في كل الأحوال أن أستبق الأحداث.

كنا لا نزال ملتصقان ببعضنا في الشارع، وكانت الأمطار والرياح العاصفة لا تزال تهب بقوة. أصبحنا كتلة من الماء، وغمرنا البلل بشكل كلي تمامًا. مع ذلك لم تبد كريمة مهتمة للأمر، لأنها كانت تعيش ملكوتا بعيدًا عن الواقع الذي كنا فيه، كانت وكأنها في عوالم مختلفة ونائية عن باريس وزمهرير باريس، ومطرها الهادر الذي يغمرنا بغزارة. حين سندخل غرفتي وحين سنأخذ حماما دافئا، حينذاك فقط سترجع كريمة إلى ذاتها، وستبوح بكل شيء، إنها فتاة لا تعرف المراوغة أو المناورة، ستلقي بكل أوراقها أمامي على الطاولة، بدون أن تخفي أي شيء، إنها طبيعتها وأنا أعرفها،.. نسبيًا على الأقل.

تساءلت بينما كنا نتوجه أخيرًا إلى شقتي، هل الصور الجميلة لريم التي شاهدتها كريمة على المكتب هي سبب هذا الحب الذي تريد أن تعترف به لنفسها قبل أوانه؟ ربما، وهل تلك الصور شكلت لها صدمة غيرة دفعت بها لكي تحاول حرق المراحل لتتجاوز تلك الفتاة المنفلتة من عقال واقع مفترض؟ كل شيء

محتمل إذا صح احتمال وقوعها في غرامي. ربما لم يكن من الحكمة أن أترك صور ريم فوق المكتب عرضة لعيون كريمة التي لا تفلت أي شيء، كان ينبغي أن أخفي الصور داخل أدراج المكتب، ولكن لماذا يجب أن أفعل ذلك؟ فأنا في كل الأحوال غير مرتبط بأي علاقة غرامية مع كريمة، وبالتالي فان هذا الأمر يجب أن يكون مفهوما منذ البداية. كان تساؤلي الحقيقي آنذاك كيف سيكون رد فعلها وهي سترى تلك الصور وقد كبرت وتشعبت وتناثرت على كل جدران شقتي الصغيرة ؟

دخلنا الغرفة والماء ينز من ملابسنا المبللة، توجهت كريمة رأسا إلى الحمام، نزعت عنها الملابس المبللة ثم رمت بنفسها تحت الماء الدافئ، ورحت أبحث لها عن بيجامة من بيجاماتي تليق بجسدها الحلو الجميل. غادرت كريمة الحمام بعد لحظة وهي تجفف أمامي جسدها العاري تمامًا، لم تخلق داخلي هذه المرة تلك النزعة الجنسية العارمة كما كان عليه الحال في كل المرات السابقة، ربما بكاؤها السابق تحت المطر، وحالة الاضطراب البين التي بدت عليها، حالاً دون أن أفكر في ذلك الاتجاه. استلمت مني البيجاما، وأخذت بدوري حماما أعاد الدفء إلى جسمي المقرور. رغم أن البيجامة رجالية الطراز طبعًا إلا أنها زادت، على نحو غريب، جسد كريمة اشتعالا وتوهجا. كانت كريمة قد نشرت ألبستها فوق السخانات الجانبية في الحجرة لكي تجف سريعا.

- هل أنتِ جائعة؟

سألتها، لم أكن مستعجلا لكي أحدثها عن أمر الحب الذي جاءت من أجله.

- نعم، أشعر ببعض الجوع، ماذا لديك في الثلاجة؟

- لحم، سمك، خضر، اختيارات متنوعة تقريبا.

قالت كريمة وهي تنهض:

- أي نوع من السمك تتوفر عليه؟

- شرائح سلمون، وقليل من التيلابية " البلطي ".

- حسنًا، سأقلي ذلك القليل من البلطي، وشيء من السلمون، مع بعض الخضر.

نهضت كريمة وتبعتها إلى المطبخ، كنتُ حذرًا هذه المرة، لم أحاول أن أداعبها كما اعتدت أن أفعل، ولم ألمس نهديها وأردافها. حافظت على وقار نسبي حذر نحوها دون أن أنسى إحاطتها بالمودة وحرارة الترحيب المعهودة طبعًا، وكنت خلال ذلك أحاول إشعار كريمة بالجو الحميمي نفسه الذي يسود بيننا عادة، جو الدعابة والفرح وكأن شيئًا لم يستجد. أعددنا معًا وجبة العشاء، ووضعنا الصحون فوق طاولة المطبخ، بدأت كريمة على الفور تتحدث بحنين عجيب وغير معتاد عن مراكش والمغرب وذكرياتها فيه:

- هل تعرف يا عمر، لقد اشتقت إلى ساحة لفنا ومسجد الكتبية التاريخي العتيق، وشلالات أوزود، ولمنارة، وكل شيء جميل بسيط في وجوه أطفال بلدي.

- الغريب يا كريمة أننا كلما ابتعدنا عن بلدنا كلما ازددنا قربا منه، إنها مفارقة عجيبة.

كانت كريمة تأكل بشهية، وتشرب جرعات من الكولا لأنها لا تشرب الكحول عكسي أنا الذي تورطت في شربه أيام كنت مراهقا في المغرب. والآن لا يطيب لي الجلوس مع كريمة إلا وزجاجة النبيذ على الطاولة.

بعد أن أنهينا الأكل بادرت كريمة بغسل الصحون، أصرت رغم محاولاتي المتكررة لمنعها والقيام بالمهمة بنفسي. كم أنت لطيفة يا كريمة، كم أنت عذبة وحزينة في موسم شتاء بارد لا ينبغي أن يعمق كآبتك يا عصفورتي الصغيرة الحلوة.

كانت صور ريم معلقة على الحائط:

- الآن تأكدت بأنك مجنون فعلاً، ماذا يجمعك بهذه المرأة بحق الشيطان؟ أي خبل يسكنك لتعلق كل هذه الصور على جدران شقتك؟

كان سؤالها ينطوي بالنسبة لي على خطورة بالغة، وكان عليَّ أن أجيب إجابة محسوبة بدقة متناهية لأنني حتى ذلك الوقت لم أكن أعرف نوايا كريمة والحب الذي تحدثت عنه سابقا.

أجبت متحاشيًا أي تأويل معين لكلامي:

- ما يجمعني بهذه الصور، وليس بصاحبة الصور، هو إعجابي نفسه الذي اكنه لجمالكما معا.

ضحكت كريمة ساخرة وهي تقول:

- هل تريد أن توهمني بأن صاحبة هذه الصور غير موجودة أصلا، وأنها مجرد طيف يتواجد فقط على مستوى خيالك المخبول؟

- لا، هي موجودة لا شك ولكن،..

لم أعرف ماذا أضيف.

- لماذا تتلعثم هكذا حين أتحدث إليك عن هذه الصور التي، بعد أن ملأت كيانك، ها هي تملأ غرفتك؟

قلت محاولا مداراة ارتباكي:

- هل ترينني أتلعثم حقًا؟

- نعم، أنت تتلعثم، مع أنني لا أرى داعٍ لذلك، إنها تصرفات تخصك وحدك.

بدا كلام كريمة ينطوي على قدر غير قليل من الاتهام، وهو الأمر الذي زكّى إحساسي السابق بأن الحب الذي وجدت نفسها فيه ليس إلا حبا موجها لي أنا عمر المتعب الحزين. رباه ماذا أفعل أنا الذي كرست كل وقتي ونبضات فؤادي لوجه يشع بالصفاء؟ ماذا أفعل لأقنع هذه الجميلة الجالسة أمامي بأنني فعلاً متعلق بهذه الصور، وأنني أجل صاحبتها. في المقابل فإنني لن أستطيع أن أكون كاذبًا أبدًا مع امرأة أعطتني جسدها الذي لم تعطه إلا لزوجها السابق، أي مأزق أجد نفسي فيه؟ وأي ورطة أتورط فيها؟ هل أقول لها عفوًا ولكنني أحب هذه الصور! هل يعقل هذا الكلام!

لماذا كان يجب أن تحبي؟ ولماذا الآن يا كريمة؟ لقد كان كل شيء يسير على أحسن ما يرام، وكنا نمارس جنونًا لذيذا لا ينغصه وجع الحب وآهاته القاسية. وكانت الحياة تمضي هادئة وئيدة مثل قارب فيتنامي يسير على صفحة نهر هادئ.

توقعت، في أي لحظة، أن تبدأ كريمة الحديث عن موضوع الحب الذي اتفقنا أن نلتقي للحديث حوله، لكنها لم تفعل، وبدوري لم أفعل أيضًا. كان من مصلحتي ألا يثار هذا الموضوع، على الأقل في هذه الليلة بالذات، هذه الليلة المثقلة بالشجن والحزن، هذه الليلة التي لم أكن مستعدًا ذهنيًا للخوض في موضوع أعتبره خطيرًا جدًا، وينطوي على مزالق عدة قد تقودنا إلى اتجاهات مفزعة. تحدثنا عن كل شيء، وفي كل شيء، وآوينا آخر الأمر إلى الفراش بالطقوس المعتادة. تعرت أمامي كريمة بالكامل ثم انسلت إلى الفراش، ونحن في الفراش غلب الطابع الرومانسي على أحاديثنا، كانت تعطيني ظهرها وتتوسد ذراعي الأيمن، كنت أحس ظهرها وأردافها وفخذيها يزرعان النشوة داخلي. تحدثت كريمة بشجون عن طفولتها ونزق مراهقتها وزواجها الفاشل، كنت أشعر بها تتحدث بإحباط شديد يغلف صوتها الذي اكتسى ذلك المساء مسحة حزينة وكئيبة، لم يسبق لي أن سمعت كريمة تتحدث بتلك النبرة المغرقة في التشاؤم والسوداوية. أخيرًا نال منا التعب ووجدنا أنفسنا قد نمنا دون أن نمارس الجنون والطيش المعتاد، كيف حدث ذلك؟ ولماذا حدث ذلك؟ لا أحد

منا يعلم، مع أننا جهزنا أنفسنا بشكل ضمني مسبقًا لذلك الجنون. في الصباح، حين استفقت لم أجد كريمة إلى جانبي، ولم أسمع حركتها في المطبخ أو الحمام. لقد غادرت مبكرا جدًا، حينذاك فقط أدركت أن كريمة تعاني مأساة حقيقية، وندمت ندما شديدًا لأنني لم أفاتحها في الأمر، كان عليَّ فقط أن أستمع إليها، إنها الأخطاء الخطيرة الشائعة بيننا نحن الرجال، لا نستمع بما فيه الكفاية للنساء، لا نفتح أذنينا إلى كلامهن، وهو الأمر الذي يجر في الأخير الكثير من المتاعب التي يمكننا تفاديها بسهولة.

• • • •

## ( ٤ )

اتصلت بموسيو جون لأخبره بأنني لن ألتحق بالعمل، لقد أصبت بنزلة برد حادة جراء البرد والأمطار الغزيرة التي تهاطلت عليّ مساء أمس، كنت مريضا وفاقدا لأي طاقة في الجسم. تفهم موسيو جون الأمر وتمنى لي الشفاء العاجل، وأوصاني بالاعتناء بنفسي. كان موسيو جون يحترمني لأنني كنت مجدا في عملي، وكنت من بين خيرة عماله. الزكام في واقع الأمر ليس مرضا كبيرًا في حد ذاته، لكنه يستنزف القوى، ويجعل المرء مفرغا من الطاقة. كنت أنظر إلى صورة ريم المعلقة أمامي وأنا ممدد على الفراش، لم أقو على النهوض لإعداد وجبة الفطور. كانت الصورة تبدو ضبابية ومعتمة بسبب عيني الدامعتين بفعل الزكام. فكرت أن أزور الطبيب، ولكنني عدلت عن الفكرة، إن هي إلا بضعة أيام وأسترجع عافيتي وصحتي الكاملة، هكذا تمشي الأمور مع نزلات البرد غالبًا. المرض إلى جانب أنه يفرغك من الطاقة، فانه يفرغك من الرغبة في فعل أي شيء، فكرت أن أتصل بكريمة للاطمئنان عليها، لكن شيئًا ما كان يحول بيني وبين تنفيذ الفكرة. أصبحت كريمة تخيفني، ليست كريمة في حد ذاتها هي من كان يخيفني، ولكن أي كلام مباغت مفاجئ قد أسمعه منها، لذلك نحَّيت الفكرة نهائيًا من رأسي وتلهيت بالدوار الذي يلمُّ برأسي والخدر الثقيل الذي أشعره في

أعضائي. غرقت في غفوة خفيفة تراءت لي فيها ريم تقبل نحوي إلى السرير بصحن الفطور، لم أهتم للمائدة التي وضعتها إلى جانب السرير، بل رحت أبحلق فيها مشدوها، يا لها من رقة تفيض من كل تقاطيع وجهها العذب، يا له من نور ينبجس كالسناء من محياها الفاتن. وضعت صحن الأكل أمامي، ثم اختفت مرسلة ابتسامة مشرقة.

أفقت من غفوتي، وأدركت حينئذ سخافتي، والحلم الخادع الساحر الذي تجلى في لحظة هي بين النوم واليقظة. كم أنا ضائع في هذا المدى المغرق في العبث، كم أنا ضائع يا ريم، كم أنا ضائع فيك وبك، هل أصبت بالحمى؟ لست أدري لكنني بقيت منكمشا في فراشي أتقلب من جانب إلى آخر، بدون أن أجد راحتي في أي وضع معين. لو علمت كريمة أنني مريض لجاءت لتخدمني، ولتنثر حولي دعاباتها وتعد لي حساء حريرة بالتوابل المغربية، والأعشاب القوية المساعدة على إفراز طاقة الجسم في حالات نزلات البرد الحادة. لكن كريمة غارقة في همومها الشخصية، لا أدري كيف سيكون مصيرها هي أيضًا بعد أن تعرضت مثلي للعاصفة المطرية الباردة. إنها فتاة طيبة وصاحبة قلب كبير، ولكن هذا القلب يبدو أنه يضيق ليستوعب حب شخص اللّه وحده يعلم هويته وشكله وطبعه الذي يميزه عن غيره.

قفزت كارولين الى ذهني، في الظاهر كان كل شيء قد انتهى في تلك الليلة الرعناء، لكنها أصرت بدافع لا أعلمه وأتت لحد

غرفتي للاعتذار عن شيء في الواقع لا يستحق الاعتذار. أنا من كان يجب أن يعتذر ويختفي من حياتها إلى الأبد، لكنها عكس مجرى المنطق، تعود لتفرض نفسها عليَّ وتسلمني بطاقتها وعنوانها الجديد في ما يشبه دعوة مبطنة لا تريد أن تعلن عنها بشكل سافر. ماذا تريد هذه الفتاة ذات الدم الوردي الباهت، والعيون الزرق التي تشبه عيون قط من فصيل أفغاني نادر؟ هل هي محاولة من جانبها لخلق ارتباط لم يتجسد أبدًا إلا على مستوى زمالة عادية في المطعم الإيطالي؟ نهضت من الفراش بتثاقل، لم أستطع أن آخذ حمامي الصباحي كالعادة، شعرت دوخة تستبد بي وتجعل حركاتي ثقيلة جدًا. أعددت كأس قهوة بذلت فيه كل قواي. حاولتُ أن أعدَّ رغيفًا بالجبن، نجحتُ في ذلك بصعوبة شديدة. جلست إلى الطاولة، وارتشفتُ من كأس القهوة جرعات متتالية ومتباعدة، لكن نفسي لم تنفتح لرغيف الخبز الذي بقي قابعًا أمامي بدون أن تمتد إليه يدي. عدت إلى فراشي من جديد بعد أن شربت كأس القهوة، عدتُ مثخنًا بجراح وهن يشلُّ مفاصلي ويجعل حركاتي ثقيلة وتتطلب جهدا يجبرني على التنفس بشكل متلاحق. شعرت بوحدة قاتلة، لا أحد بجانبك يواسيك ويحدثك ويساعدك. فكَّرتُ في كريمة، وفي الغموض الذي يلف حالتها العجيبة بعد أن اعترفت بأنها أصبحت عاشقة.

المرأة كائن مركب، وهي مزيج من كل شيء في الأرض، وهذا المزيج هو الذي يضفي عليها التباسًا وغموضًا ساحرًا يجعل

الكثيرون لا يفهمون التركيبة النفسية لها، وبذلك يصعب غالبًا فهم النساء، لأننا نعاملهن كما نعامل زملاءنا أو أصدقاءنا من الذكور، ولا نفهم أن المرأة كائن مختلف تمامًا عن الرجل، ولها خصائص نفسية وعضوية وبيولوجية مختلفة تمامًا عنا أيضًا. إذا لم يفهم الرجل هذه المعادلة، فحينذاك يبدأ مشكله الحقيقي مع المرأة، وينشأ سوء تفاهم قد يقود في الأخير إلى القطيعة النهائية. هل ما جرى بيني وبين كريمة هو نوع من سوء الفهم الذي تحدثت عنه؟ هل أكون فشلت في فهم مشاعرها منذ البداية لكي أرسم أيضًا منذ البداية خطوطًا حمراء لعلاقتنا حتى لا تصل لهذا المستنقع الذي أتوقع أننا نتخبط فيه؟

ما أصعب أن تجد نفسك وحيدًا ومريضًا في حجرة معتمة، ولا تجد حتى من يناولك كأس ماء، حاولت أن أستجمع بعض قواي لأقرأ الصحف على الإنترنت، فتحت الجهاز، لكنني شعرت بالدوار يطوح بي ولم أستطع التركيز، زيادة على الجوع الذي كان ينهش معدتي نهشا عنيفا كذئاب شرسة. غضضت الطرف عن الكمبيوتر، ثم تحاملت على نفسي، وبذلت جهدًا جبارًا، وتوجهت إلى المطبخ حيث كان لا يزال الرغيف المحشو بالجبن موضوعًا على الطاولة، جلست على الكرسي، وعنقي يكاد لا يستطيع حمل رأسي. يا لها من مذلة للنفس يقود إليها المرض، المرض بمعنى العجز الجسدي والنفسي، المرض الذي يحيل الكائن البشري شبحًا أو ظلاً لنفسه. التهمت بسرعة رغيف الخبز، ورجعت

مسرعًا إلى الفراش، هاجمتني موجة برد ورعشة مفاجئة ظلت ملازمة لي رغم الفراش الثقيل الذي اندسست تحته. هل عاصفة أمس الأول وحدها من سبب لي هذه النزلة الحادة؟ أم مرافقة كل ذلك بموضوع كريمة الذي بعثر كل أوراقي، وصور ريم المترصدة بي في كل مكان في الغرفة؟

أخيرًا وبعد خمسة أيام من مرضي كانت نزلة البرد الحادة التي ألمت بي قد خفت كثيرًا، وأصبح باستطاعتي أن أخرج لتناول فطوري في البار القريب، أو أتسوق من المتجر المغربي المتواجد بالحي الذي أسكنه. لم أعد أسيرًا للفراش والمرض الذي استشعرت في تلك الأيام ثقله. اشتريت من كشك قريب جريدة لوفيغارو، وجريدة عربية أخرى تصدر من لندن، لم يكن من عادتي أن أشتري الجرائد، لكن بما أنني ملزم بالبقاء في المنزل للنقاهة فقد اضطررت لشراء الجرائد للتسرية والقراءة. لم تنفع لوفيغارو ولا الجريدة العربية الأخرى في تجزية وقتي، ولا الكمبيوتر الذي لم أعد أستطيع التركيز كثيرًا خلف شاشته، ولا صور ريم التي أصبحت، عكس البداية، تحفر يومًا عن يوم ألما أستشعره قاسيا ومعذبا يلسع قلبي كشوك صبار حاد. رحت أحدق من خلال النافذة وأنظر إلى شوارع باريس المعتمة المعفرة بالضباب والسواد القاتم الذي يطغى حتى على وجوه ساكنتها الواجمين على الدوام. فجأة رن هاتفي، لن تكون إلا كريمة، ومن لي غيرها يتصل بي؟

- أهلاً عمر، أنا كارولين، كيف حالك؟

ياه!! كارولين مرة أخرى؟ كارولين التي كنت أظن، بعد تلك الليلة أنها ستكون آخر عهدي بها، وأنها ستختفي عن مجالي وحياتي للأبد، ها هي تعود، وتعود بإصرار لا أفهمه.

- أهلا كارولين، سعيد بسماع صوتك.

- أجد صوتك متغيرا قليلاً، هل أنت مزكوم.

- نعم، كنت ضحية نزلة برد، لكنني الآن أفضل حالاً بكثير.

- أرجو لك الشفاء العاجل.

- شكرا لك.

- تحصلت على بطاقتي دخول لمتحف اللوفر، وفكرت ربما تروقك الفكرة.

قلت على الفور وبحماس واضح:

- أكيد ومن لا يرغب في زيارة اللوفر ولو عشر مرات في السنة، أو حتى في الشهر.

- جميل جدًا، متى ترى أنه من الأنسب لك زيارة المتحف، تاريخ البطاقتين مفتوح، ولك أن تختار الوقت الذي يلائمك.

- اليوم هو يوم اثنين، أعتقد أنني يوم الأحد المقبل سأكون بصحة جيدة، رغم أن المتحف يعرف اكتظاظًا وزحمة أكثر أيام الآحاد والسبت.

- لا مشكل، نذهب في وقت مبكر ونأخذ مكانًا لنا ضمن الطابور الذي لن يكون طويلاً، نحن في فصل الشتاء.

- حسنًا، لا أعرف كيف أشكرك، لقد أتحتِ لي، من جديد، فرصة اكتشاف أسرار وكنوز اللوفر الغنية.

ودَّعنا بعضنا، على التو بدأت أفكر في هذه الفتاة التي انبثقت لتشكل إلى جانب باقي الإشكاليات، إشكالية جديدة لا أفهم الدوافع الخفية التي تحركها. هل محاولة قبضي على يدها وجرها إلى جانبي في تلك الليلة حرك في نفسها شيئًا ما؟ هل هذا الاهتمام مجرد اهتمام عادي تريد التعبير من خلاله عن نبلها والتكفير عن خطئها لطردي بتلك الطريقة التي تكون قد بدت لها مشينة؟ قد يكون أي احتمال من هذه الاحتمالات صحيحًا، وقد تكون هناك احتمالات أخرى غامضة بالنسبة لي لا أعرفها.

لم أخف سروري بدعوة كارولين، وفي الوقت نفسه فكرت في صور ريم الكبيرة المعلقة على جدران شقتي، الصور التي شاهدتها كارولين، وروايتي الكاذبة عن المفاجأة التي أهيئها لصديق من مدينة بوردو. هل تكون كارولين من الغباء بحيث تصدق؟ حتمًا لا، وحتما لاحظت تلعثمي وأنا أتحدث عن الموضوع. لم أكن أعرف أن صور ريم يمكن أن تجلب كل هذه الضجة في محيطي الصغير، ولا هذا الاهتمام السلبي أو الإيجابي من قبل بنات جنسها. ماذا أفعل، لم تكن نيتي الانتقام ولا الإضرار بأحد، لا بكريمة، ولا بكارولين، كل ما فعلته هو أنني عبرت عن إعجابي بصور ريم بالطريقة التلقائية التي جاءت بمحض

الصدفة، أو بمحض ترتيب غير معلن ولا مهيأ له، إلا من تواطؤ خبيث من الإنترنت.

ولكن ماذا عن كريمة؟ كيف سمحت لنفسي ألا أتصل بها بعد كل هذه المدة، لاشك أنها كانت تتوقع أن أستفسرها، صباح ذلك اليوم وليس الآن، عن سبب مغادرتها المفاجئة بصفة مبكرة جدًا وغير متوقعة. لا بد أنها كانت غاضبة مني تلك الليلة ولا تزال، وستستمر كذلك. مع ذلك لم أجد في نفسي الجرأة للاتصال بها، كل ما سأقوله لها لن يشفع لي، ثم ماذا لدي لأقوله في واقع الأمر، أشعر وكأن كل الكلام استنفدته ولم يعد لدي أي مخزون لقوله.

• • • •

## (٥)

الصور التي تخنقني في حجرتي الضيقة الصغيرة، جعلتني بطريقة ما أسير مفهوم ضيق عن الحب، لست مراهقا شاهد أفلاما من أفلام نجمته المفضلة، أو كليبات من كليبات مغنيته المفضلة لأعلق صورها بجنون غبي على الجدران، غير عابئ بزوار شقتي والانطباعات التي قد يكونونها عني. لم أكن مخيرا أبدًا فيما يخص ريم، لكنني في المقابل اخترت بمحض إرادتي الدخول مع كريمة في ذلك المستنقع الجميل من الجنون، كما أنني كنت أشعر بأنني أختار الانصياع، برغبة مستترة، للذهاب بعيدًا مع كارولين في تجارب كنت أجهل تفاصيلها والحيثيات المحيطة بها حتى ذلك الوقت. تخلصت يوم الأحد صباحًا من نزلة البرد نهائيًا، بدوت في صحة جيدة وفي كامل حيويتي. استرجعت كل نشاطي الجسدي والذهني. أخذت حمامًا ساخنًا وحلقت لحيتي، وارتديت سروال جينز إيطالي الصنع من ماركة مشهورة، وقميصًا من صوف فاخر، مع معطف من الكشمير، ثم تعطرت بعطر هوغو غير القوي الذي يلائم فصل الشتاء وبرودته. كنت في أبهى حالاتي، كما تصورت، وأنا أركب الأوتوبيس متوجها نحو المكان الذي اتفقت حوله هاتفيا أنا وكارولين. لم يكن الزحام شديدًا داخل الأوتوبيس فاليوم يوم أحد.

حين وصلت، توجهت أولاً إلى ضفة السين، تأملت ماءه الساكن والرذاذ الخفيف الذي يرسم دوائر صغيرة في مجاله بشاعرية أخاذة، كنت أنظر إليه بشغف كبير، لكن سرعان ما رأيت كارولين مقبلة من الجهة المقابلة. انبهرت بالوهج الفاتن الذي يشع من وجهها المشرق، بدت في أتمِّ زينتها، أرادت ذلك اليوم أن تقتلني، أرادت أن ترديني صريعا لجمالها ولبهائها الذي لم تكشف عن كل أسراره إلا ذلك الصباح. كانت ترتدي أحدث ما جادت به صرخات الموضة الباريسية، تعمدت أن ترتدي معطفا أنيقا جدًا وقصيرا على نحو ما، وتركت ساقيها مكشوفتين ليس فوقهما إلا سروالا شفافا من الصوف الدافئ، يلتصق التصاقا شديدًا ويرسم بدقة تفاصيل فخذيها الممتلئين. لا، قلت في نفسي، ليست هذه زيارة ثقافية عادية، وفي يوم عاد لمتحف اللوفر؟ هناك أشياء أخرى ومثيرة خلف هذا المهرجان من التزين الذي نمارسه على بعضنا، مهرجان تلعب فيه الإثارة الدور الأول والأخير.

تصافحنا بحرارة، وبود ظاهر لا تخطئه العين. ذهبنا توًا لنأخذ دورنا في الطابور الذي كان معقول الطول حتى ذلك الوقت، لحسن الحظ لم يكن هناك مطر، كانت فقط زخات خفيفة تتساقط، راسمة جوًا رومانسيًا حالمًا. كنت أقف خلف كارولين، نتقدم خطوة خطوة. لم أكن مستعجلا، مجرد الوقوف خلف كارولين يعد في حد ذاته متعة لا تضاهيها أي متعة أخرى، كنت أشعر بها تلامسني بظهرها لمسًا بسيطًا ثم تبتعد، لمسًا

تحاول أن تجعله يبدو تلقائيًا.. هل كان الأمر كذلك؟ استمرت تحتك بي احتكاكًا بسيطًا عدة مرات حتى شعرت أحيانًا بأردافها الجميلة تلامسني من الأسفل بطريقة متعمدة لا لبس فيها. استطبت الأمر، ثم كانت من حين لآخر تلتفت إليَّ لتتحدث عن المتحف أو عن دراستها، وكان وجهها يصبح حينذاك قريبًا جدًا من وجهي، وكنت أرى شفتيها وفمها وهما يتحركان قريبًا جدًا مني. أي لعنة جميلة ساقت كارولين إليَّ في هذا الصباح البارد، الذي أنشد فيه الدفء إلى نفسي وروحي المتعبة الحزينة؟ إلى أي مصير ستقودنا مغامرة اللوفر هذه؟ كنت أشم أريج عطرها الأنثوي الساحر، الذي ظننت أنه إما يكون عطر هوت كوتور Hot Couture ، أو بيبي دول Baby Doll ، أو أي عطر أنثوي فاخر آخر، فأنا لست خبير عطور في النهاية. شعرت بعطرها يتغلغل في مسامات نفسي وينشر حالة ارتياح غامرة وكأنها تنبعث من الفردوس، تأملت وجهها الجميل، وفمها المدور، وخديها المتفجران بالحياة، يا لها من حلوة مفعمة بالأنوثة المثيرة.

ولجنا أخيرًا المتحف المهيب مع أعداد هائلة من السياح، تأملت المتحف من الداخل، كان شكله الكلاسيكي القديم في إحدى أقسامه الذي شيد به في بداياته لا يعجبني، إنه يذكرني بالماضي السحيق، وهو الإحساس الذي لا يلائم طبعي. أخذت كارولين يدي وظلت محتفظة بها. ياه! ماذا يحدث؟ كانت يد كارولين في يدي، وأشعر بدفئها الرطب، وبلذتها العذبة، وبنشوة

غامرة تزرع داخلي إحساسًا غامرًا مفاده أن كل الحواجز بدأت تتكسر بيننا. اللوفر الآن لم يعد مجرد نزهة ثقافية، إنه يكتسي أيضًا، وفي هذه اللحظة بالذات التي تأخذ فيها كارولين يدي، بُعدًا حسيًّا بعيد الدلالات، بعدا يلقي بنا في متاهات حالمة لا أستطيع التنبؤ بنهايتها.

تجولنا طويلاً وكثيرًا بين أروقة المتحف، تأملنا جماليات بصرية بارعة، وتحف مدهشة، ومجسمات تاريخية تحكي فصولا من أحداث مفصلية في تاريخ البشرية. لم أكن معنيًا إلا بالالتصاق الذي كان يصبح شيئًا فشيئًا أكثر وضوحًا بيني وبين كارولين، جُلنا قليلاً في صالة نابليون، كنا في واقع الأمر تائهين، ولم يكن المتحف هو قصدنا، وكنا كلانا ندرك هذه الحقيقة، ولكننا واصلنا لعب لعبة تواطؤ مكشوفة. لم يكن ممكنًا طبعًا مشاهدة العدد الهائل من الأعمال الفنية والتحق والآثار القديمة التي يتوفر عليها المتحف، وتزخر به جنباته وأقسامه المتعددة الكثيرة. ولكن في الواقع كانت تحفتي الحقيقية حينذاك هي كارولين. بعد تجوال طويل ومتعب داخل ردهات وصالات متحف اللوفر الواسعة، وبعد مشاهداتنا الكثيرة لتماثيل شهيرة وأيقونات مختلفة، أخذنا مكانًا هادئًا أنا وكارولين بالمقصف، طلبت كأسي قهوة على حسب رغبة كارولين وقطعتي حلوى بوتي بان. كانت كل الحواجز قد انتفت بيننا، تحدثنا بتلقائية سلسة، حديث عن كل شيء، وفي كل شيء. بدأت من

حين لآخر تأخذ يدي وهي تحدثني، كما أصبحت أنا أفعل الشيء نفسه معها حينما أدركت أن حادث تلك الليلة التي غضبت فيها هذه القطة الصغيرة مني لم يكن إلا حادثًا عرضيًا وعابرًا، وربما طبع في نفسها إحساسًا إيجابيًا نحوي.

في لحظة ما وضعت كارولين رأسها الجميل على كتفي، شممت رائحة شعرها المجعد الأشقر، ثم وجدت خدانا يلتصقان مع بعضهما. وفي لحظة مباغتة ومنفلتة من عقال المستحيل، التقت شفتانا لقاءً عفويًا ساحرًا، كانت في البداية قبل خاطفة وسطحية، لكنها سرعان ما أصبحت أكثر عمقًا وأكثر إيغالاً في ذواتنا. كنت أتذوق كارولين وكأنني أتذوق شوكولاطة بلجيكية بيضاء فاخرة. لشفتيها لذة ونشوة تنتشر في الجسم كله لترسم لوحة عذبة وجميلة تفوق جمالية كل التحف المتناثرة في هذا المتحف العبق بكل فن وجمال العالم.

غادرنا اللوفر وأنا أحيط بيدي خاصرة كارولين الضيقة، وألامس أعلى أردافها المثيرة. كان الرذاذ لا يزال يتساقط كالضباب من سماء باريس، تمشينا على ضفاف نهر السين كعاشقين مولهين، لكننا في الواقع لم نكن إلا في خضم لحظة نشوة استبدت بنا على حين غرة، أو بترتيب مسبق من أحدنا أو من كلانا على أكثر تقدير.

- ما أجمل المشي على ضفاف نهر السين.

قالت كارولين، فأجبت:

- وما أجمل المشي على ضفافه والى جانبك فتاة حلوة ورائعة الجمال مثلك.
- لا تبالغ أنا مجرد فتاة عادية.
- ليس ما تعتقدينه دائمًا هو الصحيح، كنت باستمرار معجبا بجمالك ولا أزال، ولعل نزوة تلك الليلة الطائشة أحسن دليل.
- هل تعرف يا عمر؟ تلك الحادثة جعلتني أفكر فيك أكثر، كنت بالنسبة لي مجرد زميل عمل قديم، ولكنني بعد تلك الليلة رأيت فيك أشياء لم أكن أراها من قبل.
- كان تصرفًا أرعنًا من جانبي، ولكن لم يكن لي أن آتيه إلا معك وحدك، لأنك فتنتني ذلك المساء.

يا لي من نذل كذاب، نفس الكلام أقوله تقريبًا لكريمة وغيرها. لكنني مع كل شيء أعترف لنفسي أولاً بأنني لست قديسا، فأنا أيضًا على غرار أغلب خلق الله، شخص كذاب ومراوغ وصاحب مصلحة ولا أتورع أحيانًا عن الدوس على بعض المبادئ البسيطة من أجل مصالح كبيرة أو حتى صغيرة كذلك. مشينا طويلاً وكثيرًا على ضفاف السين، لم نشعر بالوقت يمر، كنا في حالة حلم مزهر يحيطنا من كل جانب.

فكرت في كريمة، شعرت بوخز ضمير آلمني، أنا الآن هنا أستمتع مع هذه الشقراء، بينما كريمة المراكشية المخلصة تبتلع في مكان ما خيبتها واحباطاتها التي أتوقع أنها تمزق فؤادها النقي شر ممزق. انتابتني حالة من الكدر خيمت عليّ لحظة قبل

أن توقظني كارولين بان أسندتني على عمود نور وراحت تنظر إلى وجهي بشراسة قطة، ألصقت من جديد شفتيها بشفتي، وأحسست بنهديها الصلبين يحتكان بصدري. لم أشعر للعبتها هذه المرة بالنشوة العارمة المتوقعة، كنت سجين ذكرى كريمة واللحظة المشابهة، حيث كنا نتبادل القبل تحت مطر عاصف في الشارع المفرغ آنذاك إلا من مارة قليلين يهرعون بسرعة تحت مطرياتهم، خوفا من البرد والزمهرير والمطر الذي كان يهطل بغزارة. سامحيني يا كريمة، أرجوك، أنا أيضًا إنسان ضعيف، أحمل في أعماقي هموم صور ريم، وعشقي الغبي لها، وغربتي الداخلية التي تمزقني وتحرق انفعالاتي المستمرة حرقًا مؤلمًا وعنيفًا. سامحيني على ضعفي وعلى جبني، وعلى عدم كوني صريحًا معك بالشكل الذي أنتِ عليه.

كنت أدرك أننا سنفترق قريبًا أنا وكارولين، شعرت لذلك حسرةً وألمًا، لم أستطع استيعاب أن ينتهي ذلك اليوم الجميل هكذا ببساطة وبخيبة أمل كبيرة، دون حدث كبير يتوجه، دون انفعال حقيقي يهزنا نحن الاثنين، لن يكون للقاء اليوم أي معنى إذا لم يترادف مع حدث لائق بهذا اليوم وجماليته. هل كان يجب أن أدعوها لحجرتي؟ لم أجرؤ، شيء ما بداخلي كان يحثني على ألا أتسرع، وأن أتريث وأنتظر ما ستفرزه الأيام، لا يجب أن أوتي فعلاً متهورا قد يهدم متعة هذا اليوم، لأترك الأمور تسير على سجيتها. كنا نمشي باتجاه محطة الميترو، حيث كان من

المفترض أن أتوجه من هناك إلى بيتي، بينما تتوجه كارولين إلى وسط المدينة قريبًا من سكناها الجديدة. وبينما نحن ننزل الأدراج إلى تحت أنفاق الميترو، قالت كارولين:

- أريد أن أستدعيك لقضاء الليلة بمنزلي الصغير، هل تراك تقبل الدعوة؟

رباه من أي جحيم انبثقت هذه الجنية الساحرة؟ والى أي عالم تريد أن تقودني إليه، كيف يمكنني أن أحافظ على وقار نسبي مع هذه الأفعى المسالمة التي تحيط رقبتي؟ كيف لي أن أطيق المكوث إلى جانبها في منزل وحيدين بغير أن توقظ في نفسي ألف شيطان وشيطان.

أجبت بفرح استطعت أن أخفيه تحت ابتسامة هادئة:

- سأكون سعيدا جدًا، خصوصًا لأرى بيتك الجديد.

كان عليَّ أن أبرر قبولي تلبية رغبتها من باب لباقة كلانا يعرف خلفياتها. قالت كارولين ونحن داخل عربة الميترو.

- إنها مجرد شقة صغيرة ومتواضعة، من حجرة نوم واحدة، وصالة جلوس ومطبخ وحمام.

لم يكن يحلو لي السهر مع هذه الحلوة بدون زجاجات بيرة، وكان عليَّ أن أسألها ما إذا كانت تتوفر عليها أم يتوجب أن أقتنيها من متجر قريب لسكناها.

- لدي صندوق كامل من البيرة، وكذلك بعض زجاجات الويسكي والنبيذ، لكن ينبغي ألا نسرف في الشرب حتى نحافظ على البعض من وعينا الكامل طيلة الوقت، أنا لا أحب أن أسكر، السكر يفقدني عقلي وذاتي وكل شيء في، حين أشرب كثيرًا لا أعود كارولين التي تعرف.

- اطمئني، أنا أيضًا لا أسرف في الشرب، وإذا شربت فان السكر لا يسيطر علي، وفي كل الأحوال فالسكر الهادئ متعة.

دخلنا شقتها الجميلة، بدت أنيقة، كانت صالة الجلوس مؤثثة بأريكة جديدة وطاولة حديثة الطراز، بينما استقر مكتبها السابق في ركن من الصالة والى جانبه أدراج صغيرة لأقراص كمبيوتر أو أقراص موسيقية متعددة. وتراصت نفس أصص ورود التوليب على حافة النافذة الواسعة، وكان يجب عليَّ من جديد استحضار ريم وصورها العبقة بألوان زاهية تشبه هذه الورود اليانعة. كان الوقت آنذاك يقارب المغرب، أشعلت كارولين النور ثم تحررتْ من معطفها أولاً ثم من قميص الصوف، وانبرى جسدها عن قميص قصير يمتد فوق سرتها ليغطي بالكاد حلمتيها ويرتبط بخيطين يمران فوق كتفيها. هل هذه أيضًا لعبة من ألعابها المهيأة مسبقا؟ هل هي طريقة استدراج غير معلنة؟ كانت نهداها تفوقان قليلاً فاكهة تفاح. تلك هي النهدان التي تروقان لي، انهما ينسجمان مع جسد كجسد كارولين الرشيق الأنيق. نزعت بدوري المعطف، ثم القميص الشتوي، وانكشف جسدي عن

تي شيرت عادي بلون أسود ، بدا لي آنذاك يلائم لون الجينز الأزرق الغامق الذي أرتديه. كانت جدران صالة كارولين خالية من أي مؤثرات بصرية، لاحظت ذلك بشكل غير مقصود، ربما في حالة استحضار ذهني غامضة لصور ريم.

- ماذا نأكل، لم أعتد على الطبخ في بيتي، ثم ليس لنا هنا ما يطبخ، يجب أن نهاتف أي مطعم قريب لنطلب أكلا.

قلت لها ضاحكا:

- حبذا لو تهيأت لك الفرصة لتعدي لنا وجبة الراتاتوي Ratatouille الفرنسية المشهورة.

ضحكت كارولين، وقالت:

- كانت والدتي تجيد إعداد هذه الوجبة، وهي لا تزال تعدها لي كلما زرت بلدة شاموني بجبال الألب.

- إذن أنت تنحدرين من جبال الألب؟

أجابت ضاحكة، إنها فتاة لا يفارقها الضحك عادة:

- أنا في الأصل كرة صغيرة من الثلج تدحرجت من أحد جبال الألب لأجد نفسي هنا في باريس.. بمحض الصدفة طبعًا.

- أصدقك، لأنك تشبهين الثلج.

- هل تقصد الثلج في برودته؟

- لا ، في البياض والشفافية والصفاء الذي ينبثق من كل شيء من كيانك.

- سأتصل ببيتزيريا تركية قريبة وأطلب شوارمة وبيتزا، ما رأيك؟

- فكرة جيدة، مع فتاة تركية على صحن من خزف صيني فاخر لو تفضلت، شرط ألا تقل الفتاة التركية جمالا عنك.

- للأسف، من سوء حظك، المحل لا يوفر مثل هذه الخدمة، ثم حتى لو توفرت مثل هذه الفتاة فإنها حتمًا لن تكون أجمل مني.

هاتفت كارولين المحل التركي ثم جاءت وجلست بجانبي، أحطت رقبتها بيدي وضممتها إلى صدري بحنو أحسسته صادقًا حينذاك. قبَّلتُ خدها وشعرها وهي ساكنة لا تؤتي حركة، أحسست أنها تشعر بارتياح وهي على تلك الحال. بعض النساء لا يطلبن إلا لحظات اهتمام صادق وحنان نابع من قلب الرجل، لكننا نحن الرجال بلا مبالاتنا المعهودة وجهلنا الكامل بالخصوصيات النفسية للمرأة، نغفل هذه الجزئيات البسيطة المؤثرة جدًا في علاقتنا بالطرف الآخر، أو بنصفنا الآخر الجميل. رحت أداعب شعرها الأشقر وأمرر يدي على وجهها وعنقها برقة وعذوبة أردتها أن تكون بالغة. بينما ظلت هي محافظة على سكونها كقطة صغيرة وديعة.

- أحلم أن أسافر الى المغرب.

قالت كارولين على حين غرة.

نظرت إليها، وبعد أن تأكدت بأنها تتحدث بجدية قلت:

- حلم مشروع، وفي المتناول أيضًا.

- لا أحلم بسفر سياحي عادي مثل الذي تعرضه بعض وكالات الأسفار، أو اللوحات الإعلانية التي نصادفها بمحطات الأوتوبيس أو الجرائد. أريده سفرًا غير معتاد، سفرًا تقليديًا، لا يقود إلى فاس أو مراكش أو ورزازات أو أغادير. بل سفر يتسم بالمغامرة، ويقود إلى مناطق مجهولة لا تعرف السياحة، أريد رؤية ناس بسطاء، يعيشون حياة بسيطة، وطبيعة عذراء لم يعبث بها الإنسان ولا آلاته المدمرة لكل ما هو جميل في الأرض.

ماذا تقول كارولين؟ عن أي سفر أو عالم تتحدث؟ أي جنون استبد بها في هذه اللحظة الحالمة التي كنا في خضمها؟ سأكتشف لاحقًا أن كارولين عضو نشط في جمعية لحماية البيئة، وعضوة " غير رسمية " في حزب الخضر الفرنسي.

- بإمكانك أن تسافري إلى المغرب، هناك مناطق عديدة تتوفر فيها هذه الشروط.

بعد قليل جاءت طلبيات الأكل من المحل التركي، كانت كارولين في الحمام، دفعتُ للولد الأجر مع عمولة صغيرة ثم انصرف. قلت لكارولين بعد أن خرجت من الحمام:

- لا أجد هنا لا صحنًا من الخزف الصيني، ولا فتاة تركية.

- هذا أفضل حتى تأكل مرتاحًا ولا تشغل نفسك بالفتاة.

وضعت كارولين صحون الأكل على الطاولة ثم أخرجت من الثلاجة زجاجة نبيذ.

- أحب احتساء النبيذ الأحمر، ولكنني أفضل أن أشرب من حين لآخر بعد الأكل قليلاً جرعات من الباكاردي، وسأفرض عليك الليلة أن تشاركني شربه، مع أن البعض يعتبره ويسكي النساء المفضل.

- سأشاركك شربه طبعًا.. لم لا.

أكلنا بشهية، وتمازحنا بعد الأكل، وشربنا كؤوس الباكاردي، شربنا كثيرًا، أكثر مما قررنا.

بعد عدة كؤوس بدت كارولين المدافعة اليسارية الشرسة عن البيئة، المعارضة لكل سياسات ساركوزي التي تراها مجحفة بحق الضعفاء في فرنسا، كما روت لي وهي في خلوة تامة مع نفسها بسبب الخمر. بدت في أوج سكرها، فقدت تقريبًا السيطرة على تصرفاتها، وضعت قرصا لأغنية دي دي لمغني الراي الشاب خالد، وقالت إنها تريد أن ترقص رقصًا شرقيًا مع الأغنية.

قلت لها ضاحكًا:

- الرقص الشرقي يقتضي عدة أمور، أولها ألا ترقصي بهذا السروال، وثانيا أن تربطي أردافك بمنديل شفاف.

- حسنًا سأتخلص فورًا من هذا السروال، وسأبحث عن منديل ما في خزانة ملابسي.

ذهبت كارولين إلى بيت النوم، بينما أخذت أنا جرعة أخرى من الباكاردي.

بعد لحظة عادت كارولين. يا لجنون اللحظة، ويا لفظاعتها، كيف للمرء أن يتحمل أحيانًا مثل تلك المشاهد. وضعت على خاصرتها وبعضا من مؤخرتها شالاً صغيرًا لا يكاد يغطي أي شيء تقريبا. نظرت إليها مشدوها، الهي ما هذا؟ أي شيطانة خارقة الإثارة سلطت عليَّ في هذه الليلة؟ أي كائنة من نار حارقة بعثتها لتحرق حواسي وغرائزي وكل شيء فيَّ؟ شعرت بدوخة تطوح برأسي، دوخة زلزلتني زلزالاً حقيقيًا.. ما أضعف الرجل أمام بهاء جسد المرأة، تقهره تمزقه، ترديه صريعًا.

نهضتُ بدوري وقلت:

- هل تسمحين أيتها الأميرة الشرقية أن أشاركك الرقص.

- ليتك تعلمني رقصة البطن، إنها تفتنني افتتانًا يفقدني صوابي، طالما حلمت في مراهقتي لو أنني أميرة شرقية.

• • • •

## (٦)

عدتُ إلى العمل في الغد بعد الليلة المجنونة مع كارولين، وبعد كل تلك الأحداث التي وقعت في زمن قصير، زمن وكأنه اختصر أو تجاوز عنوة كل الحواجز قبل الأوان. ظلت تجربة كارولين تشوش على ذهني، شعرت وكأنني أسأت لامرأتين في الوقت نفسه، ريم ببهائها الرائع، وكريمة بطيبتها الكبيرة والمحنة التي تتخبط فيها. بالنسبة لريم عاهدتُ نفسي على أن أحتفظ بصورها معلقة على جدران حجرتي. كنت أدرك مدى عبثية مطاردة وهم غير موجود، ولم أعد أثق بأي مقاربة غير التي أومن بها أو أتوهمها على الأقل. أما بالنسبة لكريمة كان عليَّ أن أتحلى ببعض المروءة والشهامة، وأن لا أتركها تتخبط في مستنقع موحل من مشاكل نفسية كنت على علم بتفاصيلها. وكنت أملك يقينا شبه تام أن لقصة الحب التي أعلنت عنها لها علاقة بشخصي، من جانبي لا أريد الهروب بجبن من هذه الحقيقة، وعلي أن أتعامل معها بكل الشجاعة التي يقتضيها الموقف. اتصلت بها هاتفيا، أخبرتها بأنني سأقضي معها ليلة الأحد في بيتها بالضاحية الجنوبية لباريس، رحبت بالفكرة ترحيبًا جيدًا، لكنني لمست في نبرة صوتها نوعا من الأسى يغلف كلامها، أسى مشحونا بمسحة ثقيلة الشجن. أدركت ساعتها أن كريمة المراكشية في مأزق حقيقي، وهي تخفي خلف نبرات صوتها أمرًا ما، لم أكن قادرًا على تحليل

الموقف ولا حتى تقدير حجم إشكاليته. منذ تلك اللحظة بدأت أفكر في نوعية اللقاء بيني وبين كريمة، هل ستعاقبني بطريقة ما؟ بالمناسبة المرأة تجيد عملية الانتقام حتى لو كانت تهيم بك هياما لا مثيل له، بل تستلذ بذلك، وهي، أي المرأة، لا تختلف كثيرًا في ذلك عن الرجل. ولكنني لا أعتقد أن كريمة مستعدة لمعاقبتي بأي شكل من الأشكال، حتى صور ريم المتناثرة كنوار فصل الربيع في كل أنحاء منزلي، لا أعتقد بأنها ستكون دافعًا لكريمة المراكشية لكي تتخذ في حقي أساليب عقاب نفسية معينة.

كنت أقضي غالبًا سحابة يومي وحيدًا في حجرتي الضيقة، لم أرغب أيضًا أن أزحف خلف كارولين، لا أريد أن أترك لديها انطباعا بأننا ننشئ علاقة ما، أردت الحفاظ على مسافة كبيرة بيني وبينها، مسافة أمان تعفيني من أي مسؤولية مستقبلية من ناحية المشاعر أو العواطف التي لا أعتقد بأنها ستنشأ داخلي، ولكنني أيضًا أستبعد نشوء مثل هذه المشاعر بداخلها. لم يكن يروق لي التجول في شتاء باريس خصوصًا هذه السنة التي عرفت فيها هطولاً متواصلاً للمطر وقليلاً من الثلج، وبردًا قارصًا غالبًا ما كان يتحول في الصباحات إلى جليد يترسب على أرضية الطرقات والأرصفة، وعلى حواف الأبواب والشرفات والنوافذ.

• • • •

## (٧)

توجهتُ إلى كريمة مساء الأحد، هل كنت وجلاً؟ نعم اجتاحتني رهبة مباغتة وغير مبررة، وكنت مرتبكا أيضًا، ولكن يجب أن أعترف، كان لذلك الوجل والارتباك في الواقع ما يبرره، الملابسات الأخيرة، والأحداث والمستجدات تفرض هذا النوع من الوجل. تعيش كريمة حالة استثنائية جدًا، ولا أستبعد أن للأمر علاقة بشخصي، لذلك كان لتوجسي ووجلي ما يبرره حقًا، أضف إلى ذلك أن كريمة تتوفر على شخصية قوية تفرضها عليك مهما كانت سطوتك أو قوة الجبروت لديك، قوة شخصيتها تنبع أساسا بثقتها المطلقة بنفسها. كانت كريمة هي التي تأتي غالبًا إلى غرفتي، ناشرة نزقها ومشاغباتها وحركاتها النشطة الدءوبة حول كل شيء وفي كل شيء في شقتي الصغيرة الضيقة. أما حين كنت أزورها أنا فإنني كنت أكتفي بأن أداعبها هي شخصيا ولم أكن أهتم بتفاصيل بيتها ولا الأشياء داخلها بذوق رفيع. كانت تنتشي لمداعباتي، لكنني الآن في موقف مختلف، هل سأجرؤ على فعل الشيء نفسه كما كنت أفعل سابقًا وبنفس التلقائية والعفوية؟ عليّ أن أجرؤ، يجب أن أتصرف وكأن شيئًا لم يتغير، إلى أن أرى ما سيحدث بعد ذلك.

ضغطت على جرس الباب، سرعان ما فتحت كريمة وسحبتني إلى الداخل بسرعة، خوفا من البرد لأنها كانت ترتدي لباسًا منزليًا

خفيفًا. عانقتني بحرارة كما تفعل دائمًا، وبادلتني القبل حتى ونحن لا نزال بمدخل الباب. إنها رائحة كريمة الحارة، وأريجها الفواح الذي لا يشبه بتاتًا رائحة كارولين، كارولين التي مع كل شيء تفتقد لوحشية جسد كريمة الذي تحس به يلتهمك التهاما بمجرد التصاقك به. ولجنا إلى صالونها الصغير، كانت قد أعدت مسبقًا وجبة الأكل التي تعرف أنها المفضلة لدي، طاجين دجاج بالبرقوق المجفف والزيتون المتبل والخرشوف.

- لا بد أنك جائع.

سألتني كريمة، فأجبت:

- حتى لو لم أكن جائعا فان رائحة الأكل ستجعلني فعلاً جائعا.

أردت استباق الأحداث، سألتها ونحن نتناول الطاجين اللذيذ، بدون أي نبيذ، كريمة لا تحب هذه الأشياء في بيتها:

- لماذا انسحبت المرة السابقة في ذلك الوقت المبكر؟ حتى أنك لم تتيحي لي فرصة توديعك الوداع الذي يليق بك كفتاة لها مكانة خاصة في نفسي.

أجابتني بنبرة بدت صادقة:

- كنت مهمومة يا عمر، أصابني الأرق طيلة الليل، لم أستطع النوم، لذلك غادرت في الفجر وحاذرت حتى لا أوقظك، جئت أولاً هنا حيث أخذت حمام الصباح وارتديت ملابسي، وبعدها التحقت بالعمل.

- عيناك متعبتان، وهالة خفيفة من السواد تحيطهما، ما الخطب يا كريمة، صارحيني؟

كنت أرغب في إنهاء اللعبة المرهقة لكلانا، لم أعد أتحمل عذابات كريمة التي تحولت تدريجيا إلى عذابات نشترك فيها معًا، عذابات أصبحت تلازمني حتى وأنا بعيد عن كريمة ومنشغل عنها في العمل مثلا. صمتت لبعض الوقت، صمتًا بدا طويلاً وقاسيًا، ثم قالت بعد أن شربت جرعة من الكولا:

- ماذا أقول لك يا عمر؟ إنها قصة معقدة، بل أكثر من ذلك أشعر بأنني لم أعد أستطيع تحملها، لم أجد يومًا نفسي في موقف سيئ وصعب كالذي أجد نفسي فيه في هذه المرحلة.

قالت ذلك ثم صمتت من جديد، لم أرغب بالضغط عليها أكثر، توقفَت عن الأكل، واستمرت تنظر إليَّ ساهمة وأنا أواصل الأكل.

- هل شبعت يا كريمة؟

سألتها وأنا متأكد بأن نفسها انسدت عن الأكل، لكنها بدل أن تجيبني سألتني سؤالاً مباغتا:

- ما هو الحب يا عمر؟

استغربت لمثل هذا السؤال من كريمة الفتاة الناضجة المفعمة بتجارب الحياة.

قلت لها مازحا:

- انه سؤال فلسفي، وأنا كما تعرفين لست فيلسوفا، أنا مجرد عامل بمطعم متخصص في الأكلات الإيطالية كغاسل صحون.

بعد ذلك قالت العبارة التي زلزلت كياني كله:

- لكنك تحب صاحبة الصور المعلقة على جدران غرفتك.

اندهشت، أخذتني على حين غرة. هل أكذب عليها؟ هل أقول لها أي كلام؟ كان يجب أن أتصرف بسرعة حتى لا تتهمني بالتلعثم حيال هذا الموضوع بالذات كما اتهمتني عن حق في المرة السابقة.

أجبتها جوابًا محايدا أردت ألا تستنتج من ورائه أي شيء:

- إنها مجرد صور لامرأة جميلة، لا أخفيك.. أنا معجب بكل ما هو جميل في الحياة.

- بجد يا عمر، ما هو الحب؟

- هل قرأت كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي؟

- لا، لم أسمع بهذا الكتاب مطلقا.

- يجب أن يكون قد ترجم إلى اللغة الفرنسية، ولكنني لا أعتقد أنه متاح في المكتبات العادية. قد تجدين ترجمة له بمعهد العالم العربي، على كل حال فالكتاب يحتوي على أدق تفاصيل العشق والحب والهوى والعلامات والإشارات التي تدل على المدلهين به.

- هذا ليس جوابًا يا عمر، أريد جوابًا جادا وصريحا، أنا لا أمزح، إنني أريدك أن تشرح لي معنى الحب بتفاصيله الدقيقة.

ياه، كانت كريمة فعلاً جادة في سؤالها، ولكن كيف لي أن أشرح لها الحب؟

- كريمة، الحب هو أن تحب شيئًا، مهما كان هذا الشيء، وكيفما كان هذا الشيء.

لا يبدو أنها اقتنعت بجوابي، لأنه لم يكن جوابًا أصلاً، أو أنه لم يكن جوابًا شافيًا ومقنعًا. حتى سؤالها لم يكن سؤالاً جادًا، كان سؤالاً تمهيديًا، أو سؤالاً فخًا لشيء ما كانت تريد الوصول إليه. حين جلست على الأريكة، جاءت وجلست كالمعتاد إلى جانبي، ضممتها إلى صدري بحنان زائد عن المألوف، أدركت أنها بحاجة إلى المزيد من الحنان، خصوصًا في تلك اللحظة التي تشعر فيها بضعف بين. لكل شخص منا لحظات ضعفه، ولكل واحد منا الحالات التي يحتاج فيها لمن يستمع إليه لمن يهتم بمآسيه أو أحزانه. قبّلتها قُبلاً خفيفة، قُبلاً مفعمة بالود، كنت أريد أن أبرهن لها أنها بالنسبة لي ليست مركز إفراغ لشحناتي الغرائزية فقط، بل أولاً وأخيرًا أنثى بكل الأحاسيس والمشاعر والانفعالات التي يتوفر عليه كل واحد منا. ربت على كتفيها ووجهها بحنو ورحت أداعب برفق شعرها المنسدل المتموج على وجهها وصدرها كغجرية فاتنة رائعة الجمال.

تسللنا أنا وكريمة تلك الليلة إلى الفراش ملتصقين، لم تكن هناك مراسم ولا طقوس كالتي تعودنا عليها في لحظات رهاننا على الجنون والخبل الوحشي الذي ما فتئنا نؤتيه قبل وبعد أن نأوي

إلى الفراش. لم نكن عُراة كما تعودنا، خضنا في أحاديث كثيرة، بدت كريمة بنفس التردد والحيرة التي أبانت عنهما في المرة السابقة التي نامت فيها في بيتي. بدوري كنت مترددا وتائها، كنا نشعر كلانا بنفس التيهان والحيرة التي تحتوينا. حاولت أن أخلق جوا من الدعابة والمرح يبدد السحب القاتمة التي ارتسمت في أجواء أنفسنا، لكن كل محاولاتي باءت بالفشل. حينذاك أدركت أن أصعب شيء هو أن تدخل السرور إلى نفس امرأة حزينة، وكانت كريمة المراكشية في تلك الليلة في أعمق وأبعد حالات حزنها وكآبتها.

- عمر، لقد قررّت قرارًا خطيرًا.

قالت كريمة فجأة وبنبرة رهيبة مغرقة في الجدية، على حين غرة وبدون مقدمات مسبقة.

أفزعتني اللهجة الحازمة التي تحدثت بها للدرجة التي خفت أن تقول شيئًا ينطوي على أمر خطير يتعلق مثلاً بـ.. أقول... مثلا... لا تطاوعني نفسي على التفكير بذلك، حقيقة لا تطاوعني نفسي، أجد صعوبة بالغة بمجرد التفكير في الأمر، ولكن عليَّ أن أذكر هنا بأنني خفت أن تكون آنذاك قد قررت... الانتحار. ارتعش جسمي لهذا الاحتمال المرعب، كانت كل البوادر تشير إلى خطورة الموقف الذي تعيشه كريمة المراكشية، وما قرارها الخطير الذي تقول إنها تريد أن تتخذه إلا تتويجا لمرحلة كاملة من المأساة، مأساتها الشخصية التي أدخلتني في دوامة قاتلة من

الحيرة، وجعلتني أشعر بنفسي شريكًا في أي حماقة أو جنون قد تقدم عليه العزيزة الصغيرة كريمة. رحت أعتب على نفسي وأتساءل لماذا ورطت نفسي، وورطت كائنًا جميلاً معي خرج للتو من تجربة زواج جد فاشلة وجارحة؟ ظللت لبرهة من الوقت صامتا وأنا أفكِّر في كل الاحتمالات، شلَّ لساني ولم أعرف ماذا أقول، حتى مجرد سؤالها عن قرارها الخطير كان يدخلني في متاهة مخيفة وحالكة السواد، أخيرًا استجمعت بعضًا من شجاعتي وهدوئي، سألتها محاولا أن أتجنب أي تلعثم في لساني، أو أي شيء يظهر ارتباكي:

- أي أمر خطير قررته يا كريمة؟

ظلت صامتة. منذ أن بدأت أزمتها أصبح لجوءها للصمت يغلب على طبعها، كريمة الفتاة المنطلقة الذربة اللسان التي لا تتوقف عن الكلام والضحك، تصبح الآن أكثر ميلا للصمت والسكينة؟! شيء يناقض طبيعتها المرحة المنطلقة. طال صمتها حسبما خيل لي أكثر بكثير مما يلزم. أخيرًا قالت بعد أن تنهدت تنهيدة حارقة أحسست بلهيبها الحار اللافح يهب على وجهي:

- قررت الاستقالة من الشغل.

ياه، هل هذا كل ما في الأمر؟! هل حقًا هذا قرار يمكن اعتباره خطيرًا ويستوجب كل هذه الضجة والدراماتيكية التي أسبغتها كريمة على الموضوع؟ لا، أنا الذي يعرف كريمة حق المعرفة، أدرك تمامًا أن قرار استقالتها من الشغل هو فقط الشجرة التي

تخفي الغابة. لا شك أن هناك مشاكل عميقة تعانيها حلوتي المراكشية في العمل، وهو الأمر الذي حدا بها أن تتخذ قرار الاستقالة. من جانب آخر أكاد أيضًا أجزم الآن بأن كريمة حين تحدثت عن الحب لم أكن أنا المقصود، بل شخصًا ما غيري، ولن يكون هذا الشخص إلا أحد المشتغلين بالمصنع. لكن المفارقة الغريبة هي كيف تستقيل من الشغل في الوقت الذي تعشق فيه شخصًا هناك؟ المنطق يقول العكس، يجب أن تكون أكثر حرصا على العمل في مكان تواجد حبيبها. لم أعد أفهم شيئًا، بدا لي الأمر غير مفهوم لدرجة معقدة جدًا. سألتها وأنا لا أزال محافظا على صيغة هدوء أعترف أنه كان نسبيًا جدًا وصعبًا جدًا:

- ما هي الدواعي التي تجعلك تستقيلين من الشغل؟

صمتت كريمة مرة أخرى، صمت طويل ومشحون بالقلق. وددت أن أكرر تساؤلي لكنني رغبت أن أتركها تعيد التقاط أفكارها التي بدت مشتتة وغير ثابتة، لم أكن مستعجلا، وكنت أعرف بأنها ستقول كل شيء آخر الأمر. في لحظة ما شعرت بدموعها تنهمر على عنقي، لقد كانت تبكي بصمت، تركتها تنشج بهدوء، نشيجا خافتا ورتيبا. لعل أبرز القوى التي تمتلكها المرأة هي كونها تملك القوة والضعف في الوقت نفسه، وتستعمل كلاهما عند الحاجة. بينما نحن الرجال نتفاوت في هذه الخاصية، منا من يغلب عليه الضعف أكثر بكثير من القوة، ومنا من تغلب عليه القوة أكثر بكثير من الضعف. وفي الإجمال، فإننا

لا نعرف كيف نوظف هاتين الخاصتين في الوقت والمكان المناسبين، عكس النساء.

بكت كريمة، كثيرًا وطويلاً. لم نتبادل الحديث طيلة الوقت، حتى بدأت أشعر بالنعاس يداعب أجفاني، سألتها لمجرد أن أكسر وتيرة الصمت الطاغي:

- كريمة، هل كل شيء على ما يرام؟ كيف تجدين نفسك الآن؟

أجابت، بنبرة متشنجة ومنفعلة قليلاً:

- أحيانًا يضطر المرء لاتخاذ قرارات صعبة بالرغم منه، كنت مرتاحة في الشغل، ولكن المستجدات الأخيرة تفرض عليَّ اتخاذ قرار الاستقالة. هذه قسمتي، وهذا خياري الوحيد، لا أريد أن أكون ضحية لرجل لا ينتمي الى تقاليدي وأصولي. رغم ما قد يبدو من نزق في شخصيتي يا عمر، فأنا أيضًا أحمل داخلي الثوابت التي تربيت عليها، ولا يمكنني أن أتخلى عنها لمجرد أنني أحببت شخصا.

سكتت كريمة بعد أن قالت نصف ما كانت تود قوله طيلة أسبوعين، نصف الحقيقة، التي كانت مع ذلك بالنسبة لي حقيقة مقبولة، ولكنها في الوقت نفسه منقوصة كثيرًا ولا توضح أشياء كثيرة أيضًا. ضممتها إلى صدري بحنو صادق، تنهدت بحرقة، ثم قالت وهي تدخل أصابعها في شعري الطويل:

- استمر يتعقبني طيلة شهور وكنت قبل أسابيع قليلة صامدة وثابتة، لكنه لم ييأس، وظل يطاردني إلى أن وقعت في فخ حبه. لكنني لم أعلن له عن هذا الحب، ولم أجعله يشعر به، لذلك قررت مغادرة العمل بشكل نهائي حتى أجتث مشاعري نحوه من جذورها.

لم أكن أعرف عن أي شخص تتحدث، ولكنني خمنت تقريبًا الموضوع والحساسية التي يكتسيها. لم أستفسرها، تركت لها حرية مواصلة الحكي بالشكل الذي يروق لها. أضافت كريمة بعد برهة صمت:

- إنه من دم مختلط، والده فرنسي، وأمه من جزر الأنتيل الفرنسية. اسمه بيرنارد، طويل القامة، جميل الملامح، عريض الأكتاف والساعدين، يبدو في الواقع كنجم سينمائي.

في تلك اللحظة أدركت أن كريمة تتحدث عنه من باب العاشق الموله، وفهمت مغزى كلامها حول التقاليد. قد يكون وصفها للرجل صحيحًا إلى حد ما، ولكن ليست للدرجة التي أسبغتها عليه. لم أعرف ما إذا كان رأيي هذا عن قناعة، أم وليد غيرة غالبًا ما تستبد بنا نحن الرجال حينما تمتدح امرأة رجلاً على مسامعنا.

- هل تعتقدين أن استقالتك ستجعلك بمنأى عن حبه؟

- الزمن كفيل بأن يجعلني أنساه، ثم أنني لم أتورط بعد في حبه للدرجة التي لا رجعة بعدها. فقط عليَّ أن أغير سكناي، وأن أغير كذلك رقم هاتفي، لأنه يشتغل رئيس قسم في المصنع، وهو مطلع على كل هواتف وعناوين العمال. ربما سأضطر للالتجاء إلى السكن معك لبعض الوقت، ريثما أعثر على مسكن جديد.

- كريمة، الدار مشرعة الأبواب لك، وبإمكانك أن تقيمي معي بدون أن تبحثي عن سكن آخر. أنت تعرفين هذه الحقيقة، وتعرفين قيمتك لدي، لن أتخلى عنك يا مشاغبتي الحلوة اللذيذة في هذا الظرف العصيب، ستجدينني دائمًا بجانبك، دائمًا وأبدا وفي كل وقت.

• • • •

## (٨)

كنت أسير بعد يومين على رصيف نهر السين، وأنا أتذكر شجون تلك الليلة والإشكال الحقيقي الذي تقع فيه كريمة، للتجوال على ضفاف السين صبغة خاصة ومتفردة، إنه يمنحك شعورا مؤقتا بالتحرر من وجه باريس القاتم، حتى وأنك في باريس وداخل عمقها. وأنا أنظر إلى الماء استحضرت أيضًا صور ريم، عروس البحر الجميلة المنبثقة من الضباب والسحاب، كانت أشعة الشمس المنفلتة من حين لآخر ترش صفحة النهر برذاذ من الضوء أخال معه عروس البحر تخرج من النهر وتسبح ضد تيار الماء، لتتجلى كامرأة حلم عبق بالرغبة والرجاء. كنت أمشي على الرصيف المحاذي لنهر السين وأنا أسمع وقع خطواتي الرتيبة على الإسفلت، تذكرت سنوات عمري المنفلتة الهاربة من وجهي في كل الاتجاهات. ضفاف السين هي المكان الأثير للعشاق والحالمين والمنبوذين والذين تقطعت بهم سُبل العمر والحب والأمل وكل شيء.

ما أصعب أن تعيش بعيدًا عن مشاعرك وأحاسيسك، فكرت في محنة كريمة التي اختارت الهروب بصيغة الهجوم إذا جاز التعبير، الهروب إلى الأمام والى الخلف في الوقت نفسه. فجأة استبدت بي شكوك اعتبرتها حينذاك صبيانية، وحتى

يمكنني أن أنعتها بالشيطانية، هل تخطط كريمة لمستقبل دائم بيني وبينها؟ هل حكاية الحب الذي تحدثت عنه، واستقالتها من الشغل، وسكنها المؤقت معي، هي مجرد مقدمة لمخطط واسع تسعى لتطبقه عليَّ لتجعلني أسير خيوط تشبكها حولي، خيوط تشبه خيوط العناكب؟ لا، لا يجب أن أفكر بمبدأ المؤامرة، ولا يجب أن أفكر بهذه النذالة، ثم ماذا يدفع كريمة لمثل هذا السيناريو الممجوج، فأنا على كل حال لست امتيازا بالنسبة لها، ويمكنها في كل لحظة أن تحصل على زوج براتب يفوق راتبي بأربع مرات. إنها تمتلك من الشيطنة والنزق الأنثوي ما يجعلها تورط أيا كان في حبائلها.

وأنا أدخل شقتي فكرت أن أفعل شيئًا لم أجرؤ عليه أبدًا مسبقًا، اقتربت من إحدى صور ريم حتى أصبح وجهها على مقربة عشر سنتيمترات تقريبًا من وجهي. شعرت برهبة تستبد بي، أحسست وكأن ملامح وجهي تحمر، لكنني تغلبت على ارتباكي واقتربت من وجهها أكثر، ثم قبلتها قبلة لطيفة عذبة ممزوجة الأشواق التي حملتها لها في نفسي طيلة شهور. جلست على مكتبي وأنا أشعر برعشة الانتشاء تخدر كل جسدي، كنت أعرف أنني لم أكن في حلم، وكنت أعرف بأنني قبلت مجرد صورة من ورق صقيل، لكن مع ذلك اجتاحني حس حقيقي لا لبس فيه بأنني قبلت خد ريم، ريم المرأة الحقيقية المتواجدة في مكان بعيد من هذا المكان البعيد. لم أكن مخطئا في حسي، لأن كل شيء

يتعلق بالإحساس، فمادام أنك تستمتع بتقبيل فم ترى أنه حقيقي ويمنحك شعورا حقيقيًا بأنه فم ريم، فانك في الواقع تقبل ريم، هكذا بكل بساطة آمنت بنظريتي التي رأيتها من زاويتي الخاصة وجيهة.

نسيت شيئًا آخر كان يجب أن أفعله منذ زمان، وجه جميل لا يمكنه إلا أن يكون عبقًا بروائح العطر المدوخ، ذلك العطر الذي يجعل المرء يشعر بغثيان الرغبة العارمة لضم الأنثى إليه، واعتصارها اعتصارًا يفرز نشوة تسري في كيانه لتحيله ضحية للذة غير محدودة. كم أحب المرأة الجميلة التي تتعطر وتتزين وتمارس طقوس أنوثتها الكاملة، لا تروق لي المرأة الباردة في الاحتفاء بجسدها. المرأة خلقت لتجسد الجمال، أو ليكون الجمال طرفا منها، أو أن تكون طرًفا من الجمال، أو هما معًا كتلة واحدة وموحدة. خرجت مسرعًا لأتمم شعائر ذلك اليوم المقدس بالنسبة لي، هرولت نحو أقرب بوتيك للعطور النسوية الفاخرة، اقتنيت زجاجة عطر Place Vendôme بثمن باريسي باهظ، كل شيء يهون من أجل عيون ريم. رجعت مسرعًا للبيت، نثرت العطر على الصور الواحدة تلو الأخرى، حتى أصبح بيتي كتلة مدوخة من العطر الأنثوي الساحر. فكرت: ترى، هل تستعمل ريم مثل هذا العطر بالذات؟ وهل كان اختياري موفقًا بالنسبة لشخصيتها وذوقها ومسامات جسدها؟ لكل جسد، أو لكل جلد إفرازاته الخاصة وكيمياءه الخاصة، وبالتالي فإن عطرًا فاخرًا يناسب

فلانة، ليس بالضرورة سيناسب فلانة الأخرى. لقد بدا لي شخصيًا من زاوية تخيل ما أن عطر Place Vendôme يناسب ريم، بل لن يكون إلا عطرها المفضل الدائم. هذا مجرد تخمين، وبما أنني أعيش كل شيء على مستوى الافتراض والتخمين تقريبًا، فإنني سأفترض بأن هذا العطر يناسبها بالتأكيد.

كنت أستعد لتناول وجبة خفيفة حين رنَّ الهاتف، كانت كارولين على الطرف الآخر:

- عمر مساء الخير، كيف حالك؟
- أنا بخير يا كارولين.
- اتصلت بك لأعرض عليك جلسة هادئة مساء الأحد المقبل في مقهى ومطعم النجمة الحمراء، كيف تجد الدعوة؟

النجمة الحمراء مرة واحدة؟ هل هي جادة هذه القطة الصغيرة؟ مقهى النجمة الحمراء الذي كنت إذا مررت بجانبه لا أجرؤ حتى على مجرد النظر إليه، مقهى ومطعم النجمة الحمراء يا آنستي، أنا الأسود الشعر الذي أحمل في وجهي غبار صحراء بلدي وريحها الشرقي؟ أدخل إليه وكأنني أدخل حماما شعبيا في المدينة القديمة؟ حمقاء هذه الكارولين. أنا العامل كغاسل صحون بمطعم إيطالي لا يسعفه راتبه إلا في تصريف أمور معيشته اليومية وإرسال ما تبقى لأهله الفقراء بقرية نائية بعيدة عن كل شيء في مغرب بعيد ونائي هو أيضًا عن كل شيء.

أجبت بهدوء:

- أكيد كارولين، يسرني دائمًا أن أكون بجانبك.

- إذن اتفقنا يا عمر، يوم الأحد الثانية مساءً، هل يلائمك الوقت؟

- طبعًا، سأكون متواجدًا بالضبط في الوقت الذي ذكرته.

تواعدنا ورحت أفكر في هذه القطة الفرنسية الصغيرة المنحدرة من بلدة شاموني بجبال الألب، إنها تصر. لا شك هناك دافع ما يدفعها لاستدعائي إلى مطعم ومقهى النجمة الحمراء الفاخر الذي لا تكفي نصف أجرتي الشهرية لسداد وجبة واحدة من وجباته الفاخرة. لكن كارولين سليلة عائلة غنية، عائلة صاحبة أملاك شاسعة في البلدة التي تسكنها، البلدة المشهورة بالسياحة الشتوية ورياضة التزحلق على الثلج.

أكلت الوجبة الخفيفة التي أعددتها على عجل، ارتديت لباس الشغل، ثم غادرت متوجها إلى المطعم الإيطالي.

• • • •

## (٩)

أصبحت لقاءاتي بكارولين تكتسي طابعًا غراميًا غير معلن، على الأقل هذا ما استنتجته من تكرار مواعيدنا وبنسق بدا يكتسي يومًا عن يوم طابعا أكثر حميمية، كان من السابق لأوانه أن أفكر فيه بجدية. حين أفقت ذلك الصباح الموعود الذي مرَّ رتيبا وبطيئا، أخذت كل الأدوات باذخة الأناقة لنفسي، كيف لا وأنا سأدخل مقهى ومطعم النجمة الحمراء الشهير. اخترت بعناية فائقة هذه المرة سروالا فاخرا من الجينز الرفيع، وارتديت قميصا شتويا أسودا من الصوف الخالص يلائم لونه فصل الشتاء، وارتديت تحته تي شيرت من ماركة أرماني تحسبًا لأي تعر قد نجد أنفسنا فيه في بيتي أو في بيت كارولين، وهو أمر وارد دائمًا طبعًا. لن أخفي بأنني كنت قد وضبت غرفتي توضيبًا جيدًا، ونظفت المطبخ، ورتبت الفراش ترتيبا متناسقا قدرت أننا ربما نقضي فيه ليلة اليوم. تعطرت أيضًا كما العادة بعطر هوغو البارد غير القوي، ولكنه عطر يعبر عن رجولة رزينة وهادئة. لا أحب العطور الرجالية القوية المبالغ فيها. لبست حذائي الجلدي الأسود الأنيق، ودهنت شعري بجيل شعر خفيف يحافظ على طراوة ويناعة شعري الأسود الفاحم المجعد، ثم خرجت بحيوية وسعادة. توجهت إلى مقهى ومطعم النجمة الحمراء الفاخر الذي ستطأ رجلاي بلاطه لأول مرة في حياتي.

وصلت قبل عشر دقائق من الموعد المحدد، لا يروق لأي امرأة أن تسبقك في الموعد، وهذا ما أخذته بعين الاعتبار، رغم أنني أعترف بأن معلوماتي حول نفسية المرأة جد محدودة، إلا أنني كنت مع ذلك ملما بالحد الأدنى من مستلزمات التعامل معهن. في الحال تقدمت النادلة الجميلة الأنيقة نحوي.

قالت بابتسامة ود علقتها على فمها لتبدو صادقة وعفوية:

- هل أستطيع أن أخدمكم في شيء سيدي؟

- كأس قهوة لو تفضلت.

إنهم في هذا المقهى المطعم يبيعونك ابتسامة نادلاتهم الجميلات الفاتنات، والديكورات الرائعة التي تؤثث فضاء المقهى المطعم، والتحف التي تزين الجنبات، والنظافة البالغة التي تلاحظها حتى في الجدران والبلاط الرخامي الذي تكاد تفاصيل صورة وجهك تنعكس عليه. ومقابل ذلك فانك تدفع إلى جانب فاتورة الأكل أو القهوة، ثمنا فاحشا يستقطعونه لأجل هذه الخدمة التي لم تطلبها، وفي المقابل أيضًا فانهم لا يجبرونك على الدخول إلى مقهاهم ومطعمهم. لكن قطتي الفرنسية الصغيرة سليلة الثلج والبرد، اختارت اليوم أن يكون لقاؤنا في هذا المكان الباذخ بسحره ودلالاته الطبقية التي لا أنتمي إليها، أنا المنحدر من قرية طينية يلفحها الغبار ولا يغيب عنها الخريف والجفاف في كل أوقات السنة. بينما كارولين المنتمية لعائلة غنية، كارولين، صاحبة الاتجاهات السياسية اليسارية،

والمدافعة الشرسة عن البيئة، لا تتحرج في المجيء إلى هنا، وتعتبر ذلك، كما تقول دائمًا، حقها في متع الحياة. لم أعارض رأيها، ولم أجد أنه يتنافى مع مبادئها اليسارية. أخيرًا أقبلت كارولين في زي أكثر جرأة وأناقة من المرة السابقة، وبتسريحة شعر متميزة، اعتقدت فورًا أنها خرجت لتوها من محل حلاقة نسائية. وكان مايكوبها شفافا يتماشى مع بشرتها الحليبية المزروع فيه نمش خفيف جدًا، توزع على مناطق مختلفة من وجهها الصبوح الباسم. تعانقنا وتبادلنا قبلا خفيفة، ثم جلست بعد أن نزعت معطفها ووضعته إلى جانب معطفي على كرسي مجاور. أسرعت النادلة الجميلة وتوجهت إلى كارولين بنفس عبارات والود الذي وجهتهم لي. فأجابت كارولين:

- كاس قهوة بحليب قليل وسكر قليل.

رحت أتأمل تلك الشريحة الغريبة من الناس التي تجلس في المقهى المطعم، شريحة غريبة علي، أنا الذي أسكن حيا أغلبه من الأجانب، حي فقير ومنسي، أنا الذي لا أختلط إلا بأبناء الجالية المغاربية، وبعمال مطعم ميلانو غالبًا. أشاهد هنا شريحة من البشر لا تنتمي لكوكبي، رجال بربطات عنق فاخرة ووجوه مدهونة بالمراهم وببذل أنيقة، ونساء أرستقراطيات يغلب عليهن الطابع الرسمي. أشعر وكأني في مأدبة فطور من تنظيم رئيس مقاطعة من مقاطعات باريس الراقية. الكل يتصفحون جرائد لوموند أو لوفيغارو أو الدايلي تيليغراف أو التايمز أو غيرها من

الجرائد الكبرى الفرنسية والعالمية. أما أنا الغريب عن المكان لم يشفع لوجودي هنا إلا وجود كارولين إلى جانبي، كارولين الساحرة الأناقة، المتجملة بكل تفاصيل التجمل الذي أرادته ذلك اليوم أن يكون تجملاً غير عادي، تجملاً فتَّاكًا وقاتلاً محملاً بكل الخطابات المشفرة والواضحة. مع ذلك أشعر بأن المكان ليس مكاني، وأنني مجرد دخيل على عالم لا ينتمي إليَّ ولا أنتمي إليه.

- بماذا تفكِّر؟

سألتني كارولين التي أيقظتني من هواجسي وتأملاتي العميقة.

أجبتها بصراحة:

- أشعر بأنني لا أنتمي لهذا المكان، أجدني هنا دخيلا، ويجتاحني نوع من عدم الارتياح، لست أدري كيف أشرح لك الموقف، ولكن.. ، هل تعتقدين أن اختيارك للمكان كان موفقا؟

- دعك من هذه السخافات يا عمر، ما هذا الكلام الذي أسمعه منك، ثم من هؤلاء الذين يجلسون هنا؟ انهم مجرد رجال أعمال في الغالب، سخيفون ومتورطون في صفقات غالبًا مشبوهة. أنت وأنا أفضل منهم لأننا نمتلك مبادئ سامية في الحياة، عكسهم تمامًا، حيث عالمهم كله فقط هو المال ولا شيء غير المال. أنا أيضًا من عائلة غنية، ولكنني لم اسمح لسطوة المال أن تستحوذ علي، كنت دائمًا متحررة من هذا العامل الذي أعتبره

مجرد وسيلة للعيش في أفضل الأحوال، بدون أن أمارس على الضعفاء نوعا من السادية المادية كما يفعل هؤلاء الذين يجلسون بكبرهم وانتفاخهم كبالونات مملوءة فقط بالهواء.

آمنت بوجهة نظر كارولين التي عبرت عنها بكل صدق، وآمنت أيضًا في الوقت نفسه أنها تتحدث بمنطق يختلف عن منطقي. بعد فترة صمت أضافت كارولين:

- لم أختر هذا المكان صدفة للقائنا، أردت أن نحتفي بأنفسنا الاحتفاء الذي نستحقه، ثم أنني أراك أجدر من أي واحد من هؤلاء بالجلوس هنا، انهم أقل منك في كل شيء، لا تغرك المظاهر يا عزيزي.

ندمت في لحظة ما أنني عبرت لها عن عدم ارتياحي لتواجدي هنا، خفت أن تأخذ انطباعا بأنني لا أمتلك الثقة الكاملة والواجبة في نفسي، وهو أمر ليس صحيحًا لأنني كنت في الواقع أتحدث بمنطق فلسفي نوعًا ما، ولكن لا يبدو أن كارولين فهمتني بالشكل الصحيح. حاولت تغيير مسار الكلام حتى لا نتورط في حوار عقيم لا طائل من ورائه:

- أعتقد أن الشتاء لا يزال في أوجه، وفي هذا الموسم يبدو أكثر شراسة من المواسم الفارطة.
- أما أنا فقد تعودت، مع ذلك فالمناخ في الجبال أجمل وأرأف بكثير من المناخ في مدينة صاخبة معتمة وجليدية.

- ألا تشتاقين إلى شاموني وجبال الألب حيث رياضة التزحلق على الثلج، والبياض الذي يغطي كل شيء؟

- نعم، أشتاق لذلك، ولكن الأمر يرتبط أكثر بالنسبة لي بأيام طفولتي حيث كان والدي يعلمني طريقة التزحلق الصحيحة، وكنت وأنا صغيرة جدًا يجرني بعربة خشبية فوق الثلج، فأشعر بفرح طفولي ينضح به وجهي الصغير، وأتسلى برميه بكرات الثلج. أما الآن فإنني أحلم بسفر مجنون إلى المغرب، سفر يكون عنوانه المغامرة. لكنني سأدعوك، شتاء الموسم المقبل، لقضاء أسبوع ببلدة شاموني في قمم جبال الألب.

صمتت كارولين وكأنها تنتظر تعليقا مني، خمنت، أي تعليق تود سماعه جنية الثلج هذه؟ تجاهلت دعوتها المبكرة لي إلى جبال الألب، أخيرًا قلت:

- السفر إلى المغرب متاح دائمًا، وبإمكانك أن تحجزي رفقة شخص ما بشركة للخطوط الفرنسية أو المغربية، أنصحك بأن لا تذهبي لوحدك خصوصًا هذا النوع من السفر المغامراتي الذي تتحدثين عنه.

نظرت إليَّ بدلال أنثى خبيثة، وقالت بشبه ابتسامة مثيرة ارتسمت كسر جميل خلف وجهها:

- أريدك أنت بالضبط من يرافقني إلى المغرب وليس شخصًا آخر.

قالت ذلك بدلال ورجاء ساحر لا يمكن الصمود بسهولة أمامه.

كانت كارولين قد استعرضت عريضة المأكولات المتوفرة في المطبخ وسألتني عن رغباتي، لم تكن لدي رغبات محددة، ولكنني حصرت الأمر في وجبة من السمك، وفوضت لها أمر الاختيار. لم أعلق حول عزمها السفر إلى المغرب، ظللت لوقت قصير أفكر. فكرت بصور ريم التي سأتركها يتيمة في بيتي البارد، وبمحنة كريمة التي يستوجب عليَّ أن أبقى إلى جانبها، وفكرت في العمل وما إذا كان السيد جون مستعدا لمنحي إجازة لمدة أسبوع أو أسبوعين. كل تلك الأمور جالت بخاطري قبل أن أقول لها:

- من حيث المبدأ أنا لا أرفض، وكيف لي أن أرفض مرافقة فتاة ساحرة الجمال أطلعها على مستنقعات البؤس في بلدي.

- لا أحب أن تتكلم بهذه الصيغة يا عمر، ثم انني لست جميلة للدرجة التي تصفني بها دائما.

لم أكن في الواقع أكذب، كارولين كانت فتاة جميلة جدًا، وتتوفر على جاذبية مذهلة. وكان من الضروري أن أعترف لها بذلك، لأنني ما فتئت أعتقد، عن خطأ أو عن صواب، بأن المرأة مهما كانت جميلة، ومهما كانت فاتنة، فإنها تظل دائمًا سجينة وهم أو شك، كبير أو صغير، يحوم حول حجم جمالها الحقيقي.

- حسنًا.

قالت كارولين ثم أضافت:

- عليَّ أن أنتظر إذن تسوية ما قد يحول دون مرافقتك لي إلى المغرب، هل يجب أن أفهم الأمر على هذا النحو؟
- سأرافقك إلى المغرب، ولكن يجب أن أسوي بعض القضايا كما تعرفين، لعل على رأسها الإجازة التي يتوجب أن أطلبها من رئيس المطعم السيد جون، الذي لست أدري ما إذا كان سيوافق على منحي إياها، وهناك أمور أخرى صغيرة يجب ترتيبها قبل السفر.
- سأمنحك الوقت الكافي، زيارتنا إلى المغرب في كل الأحوال لن تتعدى أسبوعين.

جاءت النادلة في تلك اللحظة وهي تضع صحون الأكل على الطاولة تباعا، أكل من أسماك متنوعة يبرع المطبخ الفرنسي في تهييئها أيما براعة. سلمون، بلطي، كالامار ومختلف فواكه البحر التي تسيل اللعاب، مع صلصات وسلطات متنوعة بمختلف الأشكال والألوان.

قلت لكارولين مازحًا:

- رغم لذة وجمالية هذه الصحون، فأنت ألذ وأشهى من كل شيء.
- ليتك تكف لحظة عن مغازلتي، لأنني أولاً أعتبر نفسي غير مؤهلة لمثل هذا الغزل، وثانيا لأنك تجعل وجهي يحمر من الخجل.

خرجنا من مقهى النجمة الحمراء في حوالي السادسة مساء، قضينا به أربع ساعات كاملة بدون أن نشعر بالزمن السريع، كان

للمكان متعة لا يمكن للواحد أن ينكر جاذبيتها الساحرة، كانت تلك فرصتي الوحيدة التي وطئت قدماي مقهى ومطعم النجمة الحمراء في حياتي كلها، لا أنكر أنني استمتعت هناك بكل شيء، سواء بالأجواء الجميلة الباهرة التي يوفرها المقهى المطعم، أو وجبات الأكل اللذيذة التي يبرع طباخو المطعم في تهييئها، والمؤانسة العذبة لكارولين الحلوة. مررنا بالشانزليزي لاحقا، كنا نمشي هائمين بعد غروب الشمس بدون اتجاه معين تحت أضواء المصابيح الشاعرية التي تغمرنا بفيض من الأنوار الجميلة، كانت نشوة المشي جنبا إلى جنب تقودنا إلى أماكن غير متوقعة، وجدنا أنفسنا في حدائق وشوارع طويلة وأزقة صغيرة، وساحات ضيقة أو واسعة، وخلال ذلك لم نكف من حين لآخر عن التوقف لتبادل العناق والقبل النارية الملتهبة، لليل سحره الذي يخرج من المرء كل شجونه ونزواته.

سألت كارولين هامسًا وهي بين أحضاني:

- هل تقبلين قضاء الليلة معي، في بيتي، بيتي الصغير الذي لا يليق في الواقع بأميرة أسطورية عبقة بأريج أشجار سرو وكستناء جبال الألب؟

كانت في أوج انفعالها العاطفي، ردَّتْ على الفور، بدون تردد تقريبًا:

- نعم يا حبيبي، يسرني أن أفعل وأن أقضي الليل كله بين أحضانك.

هكذا قالت العبارة عارية ومجردة إلا من الحقيقة، كما أنها وصفتني بالحبيب، وهو أمر في الواقع لا يحمل دلالات كبيرة في مثل تلك المواقف، إلا أنني توقفت مليا أحاول استكشاف خلفيات هذا التصريح، الذي مع كل شيء أدخل الحبور إلى نفسي، كأي رجل لا يشعر برجولته الحقيقية إلا باعتراف امرأة ما برجولته.

- أنا سعيد جدًا يا كارولين، بل لا يسع الكون سعادتي. شكرًا لك لتلبيتك الدعوة.

رحت من وقتها أفكر في صراخها وعويلها ونشيجها العذب. سرنا متعانقين إلى أقرب محطة ميترو، ثم توجهنا رأسا إلى الضاحية الشمالية لباريس حيث سكني، حين نزلنا من الميترو خطونا قليلاً وتوقفت أمام مطعم وليمة المغربي، طلبت من كارولين أن تنتظرني لدقيقة ريثما أعود. توجهت بسرعة إلى عبد السلام صاحب المطعم، وطلبت منه أن يهيئ لي صحنا من الكسكس لثلاثة أشخاص بلحم الضأن وسبعة أنواع من الخضر المعروف بها كسكس الدار البيضاء. طلبت صحنًا من الكسكس لثلاث أشخاص حتى يبدو مشهد الصحن جيدا كبيرًا ومشهيًا. ثم سألته:

- هل سيكون باعتقادك الأكل جاهزا بعد ساعة ونصف على الأكثر؟

- أكيد سيكون جاهزًا في الموعد، وسأبعثه لك في الوقت المحدد.

أديت له الأجر مسبقًا ثم انصرفت، إ نه رجل نزيه وطباخ ماهر.

عدت إلى كارولين التي كانت تنتظر، ثم توجهنا رأسًا إليَّ شقتي، ونحن في الطريق قلت لها مازحًا:

- هيأت لك للعشاء المتأخر مفاجأة صغيرة ، لست أدري ما إذا كانت ستكون مفاجأة حقًا.

ابتسمت بخبث وأجابت بسرعة بديهة:

- كل ما يهمني من الوجبة أن تتضمن صحنا من الخزف الصيني الفاخر عليه رجلا تركيا، بشرط ألا يقل عنك وسامة.

أجبت لأداري ضربتها اللطيفة:

- من يدري، ربما تكون المفاجأة التي أهيئها لك على هذا النحو.

قلت ذلك ضاحكا بعد أن شعرت أنها ردت لي الصاع صاعين، النساء غالبًا لا ينسون مثل هذا المزاح الذي يعتبرونه ثقيلاً ويستهين بأنوثتهن، وهن دائمًا على استعداد للانتقام متى ما وجدوا الفرصة لذلك. كارولين وجدت الفرصة متاحة بشكل غير متوقع، فلم تتردد بأن ترد لي الضربة بألطف وأعنف من ضربتي السابقة. ولجنا إلى شقتي، في المدخل واجهتني عروس البحر، ريم ملكة الماء وساحرة الأمواج والليل. كان يجب أن ألتزم بطقوسي المعتادة، تقبيل ريم قبل فعل أي شيء آخر. لكن كانت كارولين ملازمة لي، ولم يكن بإمكاني اقتراف مثل تلك الحماقة أمامها، أغلقت الباب بخيبة. تحررت كارولين من ملابسها

الشتوية كاملة إلا الداخلية التي كان لابد منها، قميص قصير كان هذه المرة أكثر احتشامًا، والسروال الشفاف الملتصق بساقيها وردفيها المكورين. تخلصت أنا أيضًا من الملابس الثقيلة في بيت النوم وارتديت سروالاً رياضيًا خفيفًا، مع احتفاظي بتي شيرت أرماني اعتقدت حينذاك أنني أبدو فيه بشكل جيد على العموم، وهو ما كان فعلاً ربما. كانت كارولين قد سبقتني إلى الجلوس على الأريكة، وتوجهت أنا إلى المطبخ. أخذت كأسين وزجاجة الباكاردي، ثم وضعت الكل على الطاولة، أفرغت لكارولين كأسها وأفرغت لنفسي كأسي، كنا حتى ذلك الوقت صامتين، قالت كارولين:

- تعبت بسبب المشي الكثير في أزقة وشوارع باريس.
- ولكننا أيضًا استمتعنا بيوم جميل كان فيه الجو الليلي لطيفا ورائقا على العموم.
- صحيح، حتى أنني أرغب في تكرار مثل هذه التجربة، تصور لقد بدأت أشعر بمتعة مستمرة تلازمني كلما كنت بجانبك.
- إنك تمنحينني شعورا مميزا جدًا، كيف أصفه لك؟ دعيني أقول أنه شعور بالسعادة، أصبحت أدرك أننا نقترب أكثر فأكثر من بعضنا.

ياه، إن بعض المجاملات تورطنا في التزامات خطيرة، مثل هذا الكلام الذي كان بالنسبة لي مجرد غزل لطيف وكلام ديبلوماسي لا بد منه نحو امرأة، قد يفهم من الطرف الآخر

تصريحًا، أو مصارحة بمشاعر معينة، وهو الأمر الذي لم يكن صحيحًا، كارولين في الواقع لا تعني لي أي شيء كثير، إنها مجرد فتاة حلوة لطيفة تروق لي على مستوى معين، ولكن ليس إلى أبعد من ذلك على كل حال.

أرخت رأسها على صدري حينما سمعت عبارتي الأخيرة، وأسلمت جسدها المتعب المنهد بدعة، راحت أصابعي تداعب وجهها وشفتيها مداعبات لطيفة زرعت في نفسي أنا أيضًا شعورا رائقا بالراحة والطمأنينة. أجلست قطتي الصغيرة كارولين على فخذي ورحت ألتهم وجهها بقبل حالمة عبقة بالود والشوق. كانت نيراننا قد بدأت في الاشتعال، لكننا حتى ذلك الوقت حافظنا على وقار مؤقت، واكتفينا بلحس بعضنا البعض، لحسًا طويلاً وكثيرًا امتزجت فيه ألسنتنا وشفاهنا امتزاجًا كاملاً.

بعد قليل وردت من مطعم وليمة المغربي وجبة العشاء التي طلبتها مسبقا، وضعت الصحن المغطى بأوراق الألمنيوم فوق الطاولة، وتوجهت إلى المطبخ لأجلب ملعقتين ومناشف من ورق.

قلتُ مخاطبًا كارولين وأنا ابتسم:

- لست أدري كيف ستستقبلين مفاجأتي، ولكن لا يجب أن تقارنيها بما فاجأتني به في مقهى ومطعم النجمة الحمراء.

لم تقل شيئًا، لكنني لاحظت فضولها للوجبة المفاجأة. عريت الصحن، وبمجرد ما رأت كارولين محتواه حتى صاحت مبتهجة:

- كسكس، يا إلهي.. إنها بحق مفاجأة لا مثيل لها، أصدقك القول، لم أكن لأقبل باستبدالها برجل تركي على صحن من الخزف الصيني حتى لو كان يفوقك في الوسامة.

بدت كارولين صادقة في إعجابها بالكسكس، وما زكى ذلك قولها:

- تصور كنت أتوجه، على الأقل، مرة واحدة خلال شهرين إلى المطعم المغربي المنصورية المتخصص في الكسكس لأتناوله هناك، وسط عبق أريج الشرق، وألوان بلدان الشمس المتوهجة، وتحت تأثير الموسيقى المغربية الأندلسية الهادئة التي تتناغم مع مطعم المنصورية، هذا المطعم الفاخر الذي يجب أن نذهب إليه يومًا.

- لكن علينا أولاً أن نأكل هذا الصحن، قبل أن نتوجه إلى المنصورية لاحقا.

قلت بنبرة ودية ساخرة.

بعد أن أتممنا الأكل واصلنا شرب الباكاردي، حتى شعرت بعيني كارولين تغيمان وتدوران في محجريهما، حين يحصل لها ذلك تخرج عن نفسها، تصبح كارولين أخرى، تتحرر من كل شيء، من وقارها ومن حشمتها ومن كل ما يربطها بمحيطها.

• • • •

## (١٠)

ذهبت يوم الاثنين مساءً إلى العمل، وقصدت رأسًا موسيو جون رئيسنا في المطعم الإيطالي، قلت له راسمًا على وجهي ابتسامة مترددة:

- أحتاج إجازة لمدة أسبوعين.

نظر إليَّ مليًا، ثم صمت قليلاً وهو يفكر، ثم قال:

- حسنًا، متى تريد هذه الإجازة؟

- بدءًا من الأسبوع المقبل إذا أمكن.

- ليتك قلتها قبل أسبوعين أو ثلاث أسابيع، حينها كان الأمر سيكون أسهل، لكنني أعدك بأن تسمع الجواب غدا، يجب أن أستشير صاحب المطعم أولا، وعلي أن أتدبر سريعًا عاملاً يشغل مكانك خلال هذه المدة، لن أعدك الآن بأي شيء.

لكن رئيسي موسيو جون، مع ذلك، وافق في الغد على منحي الإجازة التي طلبتها، كنت واثقا من أنه سيفعل. حينذاك كان عليَّ أن أرتب أشياء كثيرة. أخبرت أولاً كارولين بأنني حصلت على الإجازة، ثم رحت أفكر في كريمة، كان عليَّ قبل السفر أن أطمئن عليها، وعلى تنقلها ورحيلها إلى بيتي. اتصلت بها، وأخبرتها عزمي السفر إلى المغرب لمدة أسبوعين. فوجئت في البداية، حتى أنها فزعت، تصورَت ربما يكون شخصًا ما من عائلتي مريضا أو ما يشبه ذلك، لكنني قلت لأطمئنها:

- أريد فقط أن أفر من زمهرير وبرد باريس القاسي لمدة أسبوعين.

لم أصارحها بالحقيقة، كم أني كذاب وحقير، يجب أن أعترف، لماذا كان ينبغي أن أتصرف بسفالة مع كريمة التي لا تخفي عني أي شيء، حتى غرامها ببيرنارد، روت لي فصول قصته بدقة متناهية، بينما أنا الجبان لا أجرؤ أن أقول لها بأنني مسافر للمغرب تحت رغبة كارولين التي دفعتني بطريقة أو أخرى على السفر، بدون إرادة حقيقية مني، أو لنقل أنها استدرجتني إلى ذلك بطريقة قد لا تكون نزيهة تمامًا، يجب هنا أن أذكر متحف اللوفر ولقاء مطعم ومقهى النجمة الحمراء، والطقوس المثيرة التي أحاطتني بها، لقد تورطت متعمدا أو غير متعمد في كل ذلك.

تحدثت مع كريمة عبر الهاتف لنقرر متى ستأتي لتقيم في بيتي:

- طبعًا حتى نهاية الشهر.

قلت بتصميم شديد:

- لا، لا. يلزم أن تغادري المسكن الآن، وسآتي إليك غدًا لننقل أمتعتك إلى بيتي.

ما الذي كان يجعلني أصر لكي تتنقل كريمة في أقرب فرصة إلى شقتي؟ بل كنت في الواقع متلهفا إلى ذلك اليوم الذي ستغادر فيه مصنع النسيج، هل كان الأمر مجرد مصادفة، أو هو تصرف عفوي لا يحمل في طياته أي دلالات أو أحاسيس معينة؟

أجابت كريمة بهدوء:

- لا داعي يا عزيزي عمر، انشغل فقط بترتيب سفرك إلى المغرب، أما أنا فلا تحمل همي على عاتقك، سأستطيع المكوث هنا إلى حين عودتك أو تمنحني مفتاح بيتك لأتكفل بنفسي وفي الوقت الذي يلائمني لنقل متاعي إلى منزلك، سأستطيع ذلك وحدي، تأكد.
- أيتها الآنسة المتوحشة اللطيفة، سآتي غدًا على الساعة العاشرة صباحا، برفقة صديق يمتلك سيارة شحن صغيرة، لننقلك وأمتعتك إلى بيتي الذي سيزهر ويتنور بوجودك.

قلت لها ذلك بطريقة قاطعة وحاسمة.

سكتت كريمة في إشارة ضمنية على موافقة مترددة.

كيف أتحمل الغياب لمدة أسبوعين كاملين عن صور ريم التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من كياني، وكيف لي أن أعيش هذين الأسبوعين في منأى عن الصور التي منحت معنى مغايرًا ومختلفًا لغربتي الباريسية التي تحولت إلى غربة تمتزج فيها رائحة مشمش المغرب وبرتقاله وعنبه، ببرد مدينة باريس وثلجها وجليدها القاهر. لن أستطيع اصطحاب صور ريم الكبيرة معي إلى المغرب، لأمارس طقوسي اليومية المعتادة معها، لا يليق ذلك خصوصًا حجم الصور الكبير، وعددها غير القليل. لكن كان هناك حل أدخل السعادة إلى نفسي، وفي الوقت نفسه حل إشكالية الطقوس التي كنت أخشى فقدانها وأن أحرم منها. ببساطة كان يجب أن أصطحب معي الصور الصغيرة التي كنت قد استنسختها لها في أول مرة.

ذهبت في الغد أنا وصديقي عبد الرحمن صاحب سيارة الشحن إلى منزل كريمة التي كانت قد جهزت كل شيء وجمعت أغراضها في صناديق وأكياس تضمنت ملابسها الكثيرة كما هو الشأن مع كل امرأة. شحنّا كل شيء في السيارة، ثم ركبنا مودعين المنزل الصغير الذي احتضن الكثير من جنوننا واحتضن الكثير من ولهنا والكثير من تشنجاتنا أيضًا. كنت أركب جنب كريمة في المقاعد الخلفية للسيارة، وكنت أدرك أن اللحظة بالنسبة لها قاسية ومؤلمة، وكان عليَّ أن أواسيها طيلة الوقت بطريقة ما. أسبغت عليها حنانا صادقا تستحقه، وشملتها بمودة استثنائية أكثر كثيرًا من المعتاد. ضممتها إليَّ وكانت دموعها تواصل الانسياب على خديها الجميلين. هل كانت تبكي فراق بيتها؟ أم تبكي لوضع حد لمشاعر ناشئة تقتحمها بقوة نحو شخص تخافه أكثر من أي شيء آخر؟ لعلها تبكي للأمرين معًا. لا أستطيع الجزم في هذا الموضوع ، أحيانًا تتحول المرأة إلى لغز محير، لغز لا يمكن لأحد فك رموزه. بل أجزم أن أكبر لغز في هذا العالم هو الأنثى، لأنها ببساطة تجمع في تركيبتها كل المتناقضات وعلى جميع المستويات.

كان يتوجب في الواقع أن أكون ملازمًا لكريمة في هذه الفترة التي تغادر فيها المنزل، والفترة التي تغادر فيها الشغل في مصنع النسيج، وفي الوقت نفسه تغادر حبيبها غير المعلن بيرنارد. لكنني لم أكن عند أمل مشروع ومستحق ينبغي لكريمة أن

تتطلع إليه. عكس ذلك فإنني أساير كارولين الفرنسية في غباء طوباوي بلا أي معنى، تلك الفتاة سليلة الغنى والثراء، الفتاة التي قد تستبدل الرجال وتستبدل متعها كما تستبدل ملابسها الفاخرة وعطور باريس المدوخة. مسحت دموع كريمة وأنا أحاول تهدئتها، مررنا بجانب قوس النصر، وبجانب كاتدرائية نوتردام والكثير من معالم باريس، ومررنا في شوارع ومتاهات لا يعرفها إلا صاحب سيارة الشحن. بدت باريس حزينة ذلك اليوم، لم يكن المطر يتساقط، ولكن الأجواء كانت مغطاة بطبقة شفافة من الضباب الخفيف الذي يدخل النفس في متاهات عميقة من الأسى والكآبة التي كانت تجثم على صدر كريمة كما على صدري، بنفس المستوى والمقدار أيضًا. أخيرًا توقفت السيارة أمام بيتي، رحت، بمصاحبة صديقي، ننقل الأمتعة إلى الداخل، وانزوت كريمة في المطبخ وغرقت في نشيج طويل وطويل جدًا. تساءلت في تلك اللحظة إلى أي حد ستكون كريمة مغرمة ومولهة ببيرنارد، هل يستحق هذا البيرنارد كل هذا الشجن والحزن والأسى من كريمة؟ هل تكون هذه الانفعالات الشحنة الأخيرة من الحزن التي تفرغها من قلبها مرة واحدة لتنهي كل شيء؟ أتمنى ذلك، لكنني لا أتوقعه، ليس من السهل أن تنتهي الأمور بهذه البساطة. غادر صديقي صاحب سيارة الشحن بعد أن شكرته، ثم رجعت إلى كريمة، وجدتها في أبعد وأقصى حالات الحزن.

- هيا أيتها الحلوة الجميلة، لم تخلقي للحزن، أنت كائن خلق للفرح والضحك والحبور، الحزن لا يليق بوجهك الحلو الجميل، حتى الحب نفسه لا يليق بأن تضحي له كل هذا الحزن.

نظرت إليَّ كريمة بعيون دامعة، ثم عانقتني، كانت حزينة بحق، تقتلني المرأة الحزينة، تمزقني تلهب أشلائي من الداخل، تروق لي تفجر فيّ كل مكامن الإعجاب. المرأة الحزينة تشبه المطر في هالته وألقه الرومانسي الحالم، تشبه البحر في مده وجزره الليلي الساكن، تشبه اليمام في سكونه وصمته في أماسي أواخر الصيف الملفوحة بالدفء اللطيف. ضممت كريمة إلى صدري وقبلتها قبلا هادئة على فمها، وهي مستسلمة لي استسلامًا كاملاً، وكأنها كانت تريد الاندماج بي، شعرت بها تحاول أن تنفلت من ذاتها بطريقة أو بأخرى. ياه!، كيف يحول الحب الإنسان إلى كائن مختلف تمامًا عن نفسه، يجعله صورة أخرى لصورته الأخرى التي لا يكتشفها إلا في لحظات الحزن العميق. كانت كريمة، وهي في أحضاني تبدو حقيقة مغرمة بي وليس ببيرنارد. لكنني لم أشك في أقوالها، اعتبرت كل ما قالته عن بيرنارد صحيحًا جدًا ولا لبس فيه. كريمة عشقت، وهي التي أعتقد كانت تعاني طيلة حياتها كبتًا على مستوى العشق العذب الصادق. تجربتها في الزواج لم تكن تتويجًا لقصة حب من نوع ما، كان زواجًا مرتبًا عن سبق الإصرار والترصد، لذلك فشل.

غالبًا ما أحار أمام امرأة حزينة، إنها قبل كل شيء تشعرني بضعفي، تشعرني بكوني إنسان غير قادر على تغيير تاريخ حزن امرأة لا تستحق الحزن، لا تستحق أن تذرف دمعة واحدة من أجل مشكلة رجالية تافهة. هل كان رأيي هذا يترجم غيرة مبطنة وبعيدة في أعماق قلبي؟ غيرة من بيرنارد مثلا؟ ربما فأنا رجل في أول الأمر وفي آخره. ثم أن الغيرة ليست دائمًا وليدة للحب، قد تغار من دون أن تكون ضحية حب لامرأة معينة. وهذه هي الحالة التي ربما أعانيها، ثم من قال بأنني لا أحب كريمة؟ إن الحب أحيانًا يختبئ في زوايا بعيدة ونائية في القلب، يختبئ في زوايا مظلمة وغير مرئية للعين المجردة.

• • • •

## (١١)

**هاتفتني كارولين بعد يومين، منتشية فرحة تكاد تتقافز ضحكاتها من الهاتف:**

**- اقتنيت تذكرتيّ سفر على متن الخطوط الجوية المغربية، سنسافر صباح السبت المقبل من مطار أورلي باتجاه مطار العروي بمدينة الناظور حسب نصيحتك.**

**كنا قد تحدثنا سابقًا أنا وكارولين في الموضوع، اقترحت عليها عدة أماكن تتسم بالغرائبية في المغرب، غالبًا ما تستهوي تلك الأماكن المغامرين والبوهيميين والذين لا شغل لهم من الأوروبيين الذين اعتادوا مخدرات المغرب أيضًا، بعد ذلك ذكرت لها ضريحًا لولي صالح، وهو محج زوار كثر في كل وقت من هذه السنة بالذات، حيث يلتم في الضريح مريدوه، وتقام فيه مهرجانات شعبية لا تخلو من أشياء قد تبدو لكارولين بديعة وعجيبة، وقد تستهويها أيضًا. لكنني في واقع الأمر لم أكن جادًا في هذا الاقتراح، طرحته فقط من باب الدعابة لا غير، لكنها ما كادت تسمع بعض التفاصيل عنه، واستوضحت عن أخرى حتى تشبثت بالفكرة تشبثًا جادًا وحقيقيًا. لم أجد طبعًا حينذاك إلا الإذعان لرأيها فأنا على كل حال لست ذاهبًا للمغرب بمحض إرادتي أو لشيء يخصني أنا بالذات، وإنما نزولاً عند نزوة غريبة وغير مفهومة من لدنها.**

- عليك أن تعد كل شيء، لا تنس الحاجيات الضرورية لسفر مثل هذا، كم تتوقع أن تتراوح درجة الحرارة هناك في مثل هذا الموسم؟ هل الناس هناك طيبون وودودون؟ وماذا عن...

انطلقت بسجية وطلاقة تتحدث كارولين وتلقي أسئلة مختلفة بدون أن تنتظر أجوبة عليها.

قلت لها مقاطعا تقريبا:

- إن الضريح يقع بجانب البحر والجبل وتحيطه من جهة الشمال غابة أرز، ويتسم الجو هناك غالبًا بالاعتدال، مع رياح خفيفة، وأحيانًا شديدة، بينما الشمس مشرقة طيلة اليوم تقريبًا، قد يحدث أن يكون هناك يوم ممطر أو تغطيه السحب، لكن ذلك استثناء وليس قاعدة، لا تنسي أن تصطحبي معك معطفا تحسبا لجو بارد مفاجئ وغير متوقع. أما عن الناس، فهم كما جميع الناس في العالم، فيهم الطيب وفيهم السيئ.

استقرت كريمة في بيتي يومين قبل السفر إلى المغرب، استأنست بالمكان سريعًا رغم أنه في الأصل ليس غريبًا عنها، لكنها فاجأتني بسؤال بدا حينذاك غريبًا ومثيرا في الوقت نفسه، لكنه في الحقيقة كان سؤالاً بديهيا وعفويا ولا يحمل أي خلفيات أو دلالات في ظاهره على الأقل بالنسبة لي، لكن بالنسبة لها ربما كان على درجة عالية من الجدية:

- أشم رائحة عطر أنثوي قوي في بيتك، أي امرأة أخرى اصطدتها لوكرك هذا الذي حولته لممارسة الحب مع كل أنواع النساء.

عبارة لكل أنواع النساء التي تلفظت بها كريمة كانت توحي بوضوح تام إلى بائعات الهوى. قالت ذلك، وأدركت أنها مُست فعلاً في كرامتها، فهي ظلت تعتقد بأنها الوحيدة في حياتي وحياتها الجنسية، كان ذلك الاعتقاد مترسخا في ذهنها بدون أن نتفاهم حوله، أو أصرح به لها، لم أكن أجد من جانبي أنني ملزم بتحديد العلاقة التي تجمعني وإياها. حينما سألتني سابقًا عن الصور، صور ريم المنثورة على جدران بيتي، بحت لها بالحقيقة كما هي أو تقريبًا على الأقل، أما في هذه الحالة فماذا يجب أن أقول؟ هل ينبغي أن أروي الحقيقة بتفاصيلها؟ حتى وان فعلت، هل ستصدقني؟ ولنفرض أيضًا أنها صدقتني، لاشك أنها ستعتبرني رسميا أحمقا وفاقدا للعقل، وسأصبح بالنسبة لها مجرد شخص تافه لا يستحق الاهتمام. كنت في موقف الله وحده يعلم بأنني لم أكن أحسد عليه، حينما طال صمتي قالت كريمة:

- هاأنا مرة أخرى أضبطك متلعثمًا مرتبكًا لا تجد ما تقوله، أي سر تنطوي عليه أيها الثعلب الخبيث؟ لقد بدأت فعلاً أشك في كل تصرفاتك، دعني أصارحك، أنا لا أحب المراوغات، خصوصًا في المواقف التي تقتضي الصراحة.

ازددت ارتباكًا حيال هجومها الكاسح، هل كان ينبغي أن أقول لها أن هذا العطر اشتريته لأنثره كل صباح ومساء على صور ريم المبثوثة على الجدران؟ أي حماقة، وأي جنون هذا. في تلك اللحظة أحسست أيضًا بأنني ربما أمارس عبثًا صبيانيًا وطفوليًا لا

يؤتيه إلا المراهقون، وآمنت بشكل أو آخر بأنني أعيش مراهقة جد متأخرة. أجبت كريمة، محاولا تجاهل ملاحظاتها الحادة التي أحرجتني وأخرجتني من هدوئي المعهود:

- إنها مجرد روائح طيبة لامرأة طيبة دخلت حجرتي سهوا عبر نافذة الإنترنت، أو يمكنك أن تقولي عن طريق الصدفة.

لأول مرة أجدني أتحدث عن ريم لكريمة بصراحة مبهمة، لكن الصراحة ليست هي ما نقوله؟ ولكن الصراحة هي الفهم الذي ننقله للآخر، وبذلك أشعر أنني ورغم الصراحة المبهمة التي تحدثت بها لم أكن صريحًا مع كريمة، لأنني منحتها إيحاء مختلفًا عن الكلام الذي رويته. وهو الأمر الذي يتنافى طبعًا مع مفهوم الصراحة الحقيقية. لم تكن كريمة في حاجة للعذابات التي تطبق حول قلبها المفعم بالحب والعشق، ولم تكن بحاجة لتحارب على جبهات متعددة، لذلك تجاهلت الموضوع، لكنني كنت أدرك بحس صادق أنها جرحت من الداخل جرحًا عميقًا وحارقا، قد لا يندمل ذلك الجرح في القريب العاجل إلى جانب الجراحات الكثيرة المثخنة بها. ولا بد أنها ستظل تفكر في عطر تلك المرأة التي تفترض أنها نامت في الفراش الذي سننام عليه اليوم ولاحقا.. ربما. يا له من إحساس يمزق قلب أي امرأة تقع في مثل ذلك الموقف. قلت في نفسي مبتسمًا بمرارة، إذا كان لك يا كريمتي الجميلة أن تمسي في كرامتك وخوفك على دفء السرير، فليس من هذه العطور، بل من تلك القطة الفرنسية

الصغيرة كارولين التي تزرع فيه أصابع ديناميت تتفجر وتطلق مفرقعات تكاد تمزق الجدران تمزيقًا.

تناولنا وجبة عشاء سريعة، كانت كريمة طيلة الوقت صامتة، ليس فقط بسبب العطور التي اكتشفت عبيرها في البيت، ولكن أيضًا لحالتها النفسية المتدهورة منذ أكثر من ثلاثة أسابيع. لم أستطع إخراجها من تلك الغلالة السوداوية التي تغلفها، تركتها على سجيتها. تبادلنا بعض القُبل الخفيفة الحزينة، ثم آوينا آخر الأمر إلى الفراش بدون أن نمارس طقوسنا المعتادة. لقد طال البرود كل شيء في البيت وفي علاقتي بكريمة، لذلك وجدت أن فرصة الفراق عن بعضنا لمدة أسبوعين جيدة، ولربما أعادتنا إلى ذواتنا، وربما أعادت التوازن إلى العلاقة بيننا، تلك العلاقة الحيوية النشطة كما عرفناها سابقًا.

أحسست كريمة في الفراش غارقة في صمت عميق، أرادت من خلاله أن توهمني بأنها نائمة. تماهيت مع لعبتها واعتبرتها نائمة، لكنني من باب الذوق، قبلتها على خدها كنوع من الإلتفاتة اللبقة التي ربما أعادت لها بعض الثقة في شخصي، أنا الذي دمرت كل ثقتها العمياء السابقة بي، وجعلتها عن حق تشك في كل تصرفاتي الرعناء. هي المغرمة ببيرنارد، بيرنارد الذي تهرب من وجهه بكل الطرق، لا تحب طبعًا أن تنام امرأة أخرى في هذا السرير الذي اعتقدت دوما أنه مخدعنا نحن الاثنين فقط، لكنها في تلك اللحظة تصطدم بحقيقة أخرى مرة، تجعلها تدرك أنني مجرد شخص مخادع بذيء كغيري من رجال كثيرين.

في الغد صباحًا، غادرت كريمة مبكرا جدًا، أحسست بها تنسل من الفراش لترتدي ملابسها، ثم وهي تتوجه للمرحاض للتبول. بدوري لعبت لعبة التجاهل، ظللت أتظاهر بأنني مستغرق في نوم عميق. ستكون كريمة قد ذهبت إلى حجرتها أولاً، هناك ستأخذ زينتها الكاملة، فهي تعرف أن هناك شخصًا في مصنع النسيج يحبها، وهي لا تنكر بأنها سقطت في حبائل حبه، رغم أنها اعترفت، أو تظاهرت بأن حبها له ليس إلى الحد الذي لا رجعة فيه. لقد خرجت من بيتي غاضبة حسب اعتقادي، وهذا ما سيقربها أكثر الى بيرنارد. المرأة تسلم عقالها في لحظات مشابهة للحظات التي كانت تعيشها كريمة ذلك اليوم، لن أراهن على صمودها وعزيمتها كثيرًا. خرجت من البيت مهزومة ومحبطة، هزمتها صور ريم وعطر أريج عطرPlace Vendôme والإيحاء المحيط به، لذلك لا أستبعد أن كريمة ستسقط آخر الأمر بين أحضان بيرنارد مسلمة ومستسلمة في يأس قاتل، كفريسة يائسة مثخنة بالجراح.

أعدنا الاتصال أنا وكارولين هاتفيا، واتفقنا على كل جزئيات السفر، كانت الطائرة ستغادر على الساعة العاشرة صباحا، وكان يتوجب أن نكون حاضرين قبل وقت مريح من تلك الساعة لكي نتفادى مشاكل الساعة الأخيرة، كما اتفقنا على المكان الذي سنأخذ منه سيارة أجرة توصلنا إلى باب المطار، هكذا فضلت كارولين، ولم أناقشها طبعًا في هذا الاختيار.

استيقظت مبكرًا جدًا في ذلك الصباح من يوم السبت، أخذت دشا ساخنا ومنعشا، وحلقت ذقني، وارتديت ملابسي، ثم أخذت حقيبتي التي لم تكن تتوفر إلا على ملابسي القليلة وأدوات التنظيف العادية. في الباب وأنا أغادر، تعانقنا بحرارة أنا وكريمة، عناقا صادقا. تبادلنا أيضًا قبلا عميقة ثم ودعتها والدموع تنهمر من عينيها، قالت بأنها ستفتقدني بشدة خلال هذه المدة، وأنها ستعيش فراغًا مهولاً بدوني، بدت كريمة تتحدث وكأنها مغرمة بي وليس ببيرنارد. يا لها من طفلة صغيرة وبريئة كريمة، أحسست في تلك اللحظة بإحساس غريب نحوها لم أستطع تفسيره، هل هو إحساس بحب من نوع ما؟ ليس بالضرورة أن يكون حبا بالطريقة المعهودة التي يقتسمها العشاق. لم يفارقني الإحساس بالذنب نحوها ونحو صور ريم الكبيرة التي سأتركها خلفي، لكن كان عزائي بالنسبة لريم في الصور الصغيرة التي اصطحبتها معي وأخفيتها بعناية فائقة في جيب سترتي.

تعانقت أنا وكارولين عناقًا حارًا، ثم ركبنا سيارة الأجرة التي أقلتنا بسرعة داخل شوارع باريس وأنفاقها، إلى أن وجدنا أنفسنا في الأخير أمام مطار أورلي الشهير. أخيرًا ركبنا الطائرة بعد الإجراءات الضرورية، طارت بنا الطائرة في الفضاء. حينذاك كنت أشعر أنني أقرب ريم من أي وقت مضى، وكنت أشعر أيضًا أن عطرها Place Vendôme ينثر أريجه في كل الطائرة المكتظة، العامرة بالركاب. تذكرت كريمة وحزنها الذي غمرني فجأة

بغلالة قاتمة من الضجر، كم أجد في نفسي نحوك يا كريمة من مشاعر تعاطف لا تنتهي.

حطّت بنا الطائرة عصر السبت بعد ثلاث ساعات طيران متواصلة، كان مطار العروي الصغير لمدينة الناظور، نظيفًا نسبيًا ومرتبًا ترتيبًا مقبولاً على نحو ما. بعد الإجراءات المعتادة البسيطة، أخذنا أمتعتنا وغادرنا المطار إلى موقف سيارات الأجرة، كنت أعرف أن ضريح سيدي مفتاح يبعد بمسافة طويلة عن المدينة، لذلك كان يتحتم أن نأخذ سيارة أجرة. وهو الأمر الذي فعلناه، بعد مداولات قصيرة مع صاحب سيارة الأجرة الذي لم يتوقف عن التثاؤب طيلة الوقت، اتفقنا على سعر ٧٥٠ درهما، وهو سعر كبير، عزاه السائق لكون المسافة أولاً طويلة، وثانيا لأنه سيضطر إلى العودة ليلا. لم أساومه ولم أجد ضرورة لذلك، ربما اقتنعت بما قاله السائق، أو حاولت أن أقنع نفسي بذلك. قال ليبرر السعر الذي طلبه:

- إنك تعرف، المكان شبه خال في الليل، واحتمال تعرضي لعملية سطو من قبل اللصوص واردة جدًا، فأنا في واقع الأمر أجازف معكم أكثر من أي شيء آخر.

وافقت على المبلغ دون مساومة، لكنني تفاجأت حينما اقتربنا من الضريح بمسافة معتبرة أنه يقول:

- حتى إلى هنا لا أستطيع السياقة، الجبل والمنعرجات، والطريق غير مسفلت، وبالتالي قد أعرضكم وأعرض نفسي إلى هلاك حقيقي.. أصارحك، عجلات سيارتي ليست في أحسن حال.

لم أناقشه في الأمر أيضًا، دفعت له الأجر، أخذت أمتعتنا وودعته. كنا على أبواب الغروب.

كان الجبل مميزًا بشكله الفريد، في حين بدا الضريح على قمته شبيها بعش لقلق. رهبة ما تجتاح المرء وهو يقترب من المكان المهيب، خصوصًا وأن بقع الظلام بدأت تتناثر تحت السفح. كانت المشاعل موقدة على طول الأدراج الأفعوانية الملتفة حول خصر الجبل. الإعياء والوهن استبدا بكارولين، مع ذلك ظلت يقظة ومنتبهة لكل ما حولها والدهشة والإعجاب مرتسمان على وجهها، لم تنس طبعًا أن تلتقط عدة صور بانورامية للموقع، كانت فرحة وهي تفعل ذلك. خلال صعودنا أدراج الضريح، لم نتصادف إلا قلة قليلة جدًا من الناس. صعدنا الأدراج وأنفاسنا تتلاحق بفعل التعب والإرهاق. أخذنا من حين لآخر نتوقف لنرتاح قليلاً ولنلتقط أنفاسنا، كانت كارولين تجدها مناسبة سانحة لتلتقط المزيد من الصور للضريح ولغابة الأرز القريبة والبحر الذي يبدو على مرمى البصر.

حين اقترحت زيارة هذا الضريح على كارولين، لم أكن أتوقع منها أن تتحمس بهذه القوة والإصرار. طرحت عليها الفكرة فقط على سبيل المزاح لا أكثر، لم أكن أتصور أنها ستجد أي جاذبية

لمثل هذا المكان، لكنني فوجئت بجدية استقبالها للفكرة وتحمسها الكبير لها، ولم يكن لي طبعًا بد في الأخير من أن أسايرها.

حسب المعلومات التي كنت أتوفر عليها سابقًا ،فقد كان علينا أن نصطحب معنا عطية لقيم الضريح، وغالبا ما يجب أن تكون هذه العطية على شكل ذبيحة تنحر على عتبة الضريح. أما نوع الذبيحة فهي بمقدار أهمية الحاجة التي تتوخى من سيدي مفتاح، ونحن على أية حال لم تكن لنا حاجة، لا لبركة أو رضى قيم الضريح، أو أي حاجة نتوخاها من الولي سيدي مفتاح الذي ترقد روحه وسط ضجيج وحركة الناس في الضريح، كان مسعانا بالدرجة الأولى هو استكشاف المكان، والتمتع بوقت جميل في أحضان الطبيعة التي كانت خلابة ورائعة الجمال، وكذلك اطلاع كارولين على تجارب غريبة وعجيبة لم تسمع أو تشاهد مثلها طوال عمرها.

غالبًا فإن الذبيحة يجب ألا تقل عن كبش أقرن خصوصًا في وقت "اللامة" حيث يكثر المريدون، ويكثر الفقراء الذين يقصدون الضريح لنيل نصيبهم من أكل قطعة لحم مع رغيف خبز، لكن القيم، كما ورد إلى سمعي سابقًا، يفضل أن يستلم الهدية نقدًا ليتصرف بها على الوجه الذي يراه مناسبًا، أكيد لن أدخل هنا في نقاش بيني وبين نفسي حول نواياه الحقيقية التي تقف خلف هذا الاختيار، ذلك شأنه وهو المخول الوحيد والأوحد

لكي يتخذ أي قرارات حاسمة في الضريح، لأنه أيضًا ببساطة كبير الضريح ووحده الذي يقرر ويحسم في كل شيء يتعلق بهذه المؤسسة الدينية الشعبية العريقة التي ورثها القيم أبا عن جد منذ قرون خلت.

لماذا انتقى سيدي مفتاح هذه القمة الشاهقة لإقامته، ولماذا يجشم زواره كل هذا العناء للتمكن من زيارته والوصول إليه؟ كنت أطرح هذه الأسئلة على نفسي خلال صعود الأدراج الطويلة المتعبة الملتفة حول التل الشامخ، ولكن ما ان وصلنا إلى القمة حتى نسينا كل التعب والعناء الذي عايشناه طيلة الرحلة منذ ركوبنا الطائرة من باريس، وحتى حلولنا بعيدًا عن الجبل والمسافة المعتبرة التي كان ينبغي أن نمشيها حتى إلى هنا، المشهد كان ساحرًا، بحيث توسط الجبل البحر والسهل والغابة. من القمة كان بالإمكان مشاهدة كل شيء، حتى المدينة البعيدة جدًا بدت أنوارها الخلابة تسطع وتبعث أنوارا رائعة، وبانت أيضًا أضواء زوارق الصيادين، والبواخر الكبيرة البعيدة التي تبحر في عرض البحر. أما كارولين فبدت مشدوهة بما تراه أمامها، وما انفكت تردد:

- رائع، مدهش، رائع.

الضريح الذي كان يبدو من أسفل الجبل نقطة بيضاء صغيرة في القمة، كان يتكشف حينذاك عن بناء ضخم عظيم، واتضح أن العناية به تتم بشكل دقيق وبحرص شديد أيضًا، كما أنه بدا

ناصع البياض، يثير في النفس رهبة وقداسة لا بد أن تشعر بهما. انتشرت حوله روائح العطور والبخور مع مزيج مثير من "الجاوي" والعنبر و"عود لقماري".

قبل أن نلج العتبة اقترحت كارولين أن نقوم بجولة قصيرة حول الضريح. استجبت لطلبها مرغما رغم علمي أن ذلك يعد خرقا سافرا لأدبيات الزيارة، إذ يجب، بحسب ما ترسب في مخيلتي سابقًا وأنا أقيم في المغرب، أن نقوم أولاً وقبل أي شيء آخر بتقديم العطية للقيم. غير أنني لم ألزم نفسي ولا كارولين بهذا الشرط الذي لا أجد له مبررًا، كما أنني لم أشأ أن أفوت على كارولين المتعة اللحظية في اكتشاف المكان وجماليته. كان يستحب كذلك، دائمًا حسب الأعراف المعمول بها، أننا حينما نلج إلى داخل الضريح أن نركع إلى الأرض ونقبل العتبة الشريفة. يا لها من حركة سخيفة تفرض على الزوار، حركة تذل صاحبها لتجعله نفسيا خاضعا بكل معنى الخضوع للقيم. لكنني لم أكن عازما على الإتيان بحماقة كهذه تمسح كرامتي بالأرض، لذلك لم نفعل، وجدت الأمر ينطوي على إهانة لا تلائم طبعي ولا قناعاتي، حتى لو اقتضى الأمر أن أغادر الضريح فورًا، فأنا لست مريدا لسيدي مفتاح، ولا أجد لهذه الحركة الغريبة الباعثة على السخرية أي داع، كما أننا لم نقبل يد القيم سيد الضريح الكبير، وهي العملية التي لا بد منها لإبداء الطاعة والخضوع، ولتحل البركة ويستجاب الطلب. ولكننا على أية حال لم نكن

نحمل أي طلب ولا نرغب حتى في بركته المزيفة، ولا لإبداء الخضوع والطاعة له ولا لغيره هنا، لقد كنا في واقع الأمر مجرد سائحين لا أكثر ولا أقل أيضًا.

أخذ نوع من الوجل يطغى على كارولين وهي تخطو بتردد إلى الداخل، وجل من التجربة الغريبة التي تجد نفسها فيها لأول مرة. أخذت تخطو عبر ممر ضيق، بدا أطول مما يجب قليلاً، غمرني أيضًا نفس القلق، شعرت باختناق داخل الممر الشبيه بدهليز، حيث كان الممر فارغا من أي شيء، إلا من شمعتين كبيرتين، نصبت الأولى في مدخله، فيما تركزت الثانية في منتهاه. سرنا صامتين على إسفلت حجري بارد، كانت عيوننا مركزة على النور الباهر الذي يغمر المقصورة الموجودة في أقصى الممر، المقصورة التي بدت مزدانة بالسجاد والنقوش والفسيفساء بمختلف ألوانها وتشكيلاتها، وثريات مغربية تقليدية عملاقة تتدلى من السطح.

جلس على عرش أرجواني مرصع بالحجر الكريم والفضة والنحاس، شيخ ذو لحية بيضاء مهيبة، طويلة ومسترسلة بتناسق وعناية، يرتدي جلابة شديدة البياض، تتدلى على صدره مسبحة ضخمة العقيق، وفوق رأسه عمامة صفراء من المخمل. مدّت كارولين يدا مرتعشة مترددة إلى القيم، وصافحته بأدب جم وهي تتطلع إليه بمزيج من الدهشة والإعجاب والإجلال، قال لها القيم بصوت خشوع عميق وقوي:

- مراد الغريب قريب.

وهي إشارة من القيم تدل على أن ما ترغب في تحقيقه كارولين التي وصفها بالغريب، في المتناول وأن رغبتها قريبة. كان يعتقد أنها جاءت إلى الضريح رغبة لتلبية طلب أو حاجة ما، على غرار كل زوار الضريح. لكن تخمينه هذه المرة، أو في أكثر من هذه المرة، كان خاطئا طبعًا. سلمتُه الهدية النقدية بعد أن صافحته بدوري، ثم أخذنا المقدم، وهو الرجل الثاني من حيث الأهمية في الضريح، إلى الحجرة التي سنقضي فيها الليلة أو ليالينا المقبلة، حجرة صغيرة ضيقة ورطبة، مفروشة بحصير عتيق من الحلفاء، ولحاف بال باهت الألوان بفعل القدم. على كنبة خشبية صغيرة وضع إبريق من الفخار مدهونة أطرافه بالقطران، وإلى جانبه مسبحة صغيرة عقيقها من خشب العرعار وسجادة خضراء بالية.

رمت كارولين حقيبة ظهرها الصغيرة، والحقيبة التي تحملها في يدها على أرضية الحجرة، ثم فتحت الكوة الوحيدة ليتجدد الهواء الثقيل الذي بدا وكأنه لم يتجدد منذ زمن قديم، وسرعان ما تدفق إلى الداخل نسيم بحري عليل، أدخل بعض الانتعاش إلى أجسادنا المتعبة. كانت تلك الكوة كما قال مقدم الضريح في شبه تحذير، تظل على الدوام مغلقة ولا أحد يجرؤ على فتحها، خصوصًا في الليل، كما أن الحجرة ذاتها لا يجرؤ أحد في الواقع على الإقامة بها. وحين سلم المقدم مفاتيحها إلي، اعتذر بشدة موضحا أنه لم يتبق سواها في الضريح، جميع الغرف مأهولة، بسبب موسم "اللامة" التي أصبحت على الأبواب، وخيرنا بين أن

نقضي الليل بصحن الضريح كما يفعل البعض، أو الإقامة فيها وتحمل تبعات ما قد يحدث. حين سألته عن الأسباب التي تجعل الغرفة شاغرة بالرغم من الاكتظاظ الذي يعرفه الضريح في هذا الموسم، أجاب المقدم:

- تواجد هذه الغرفة بموقع يطل على البحر من مرتفع عال هو السبب، يروى والله أعلم أنها في الليل تصبح مأهولة بأرواح البحارة الذين لفظهم الشاطئ بعد أن غرقت مراكبهم في عرض البحر في أزمنة غابرة، وأشباح القراصنة والقتلة وعصابات النهب والسرقة التي شهدتها المنطقة في القرون الماضية. بل يحكي زوار قدامى كانوا قد قضوا الليل بهذه الحجرة، أنهم رأوا بأم أعينهم أرواح غريبة على شكل جثث جريحة ومقطوعة الرؤوس أو الأطراف، تجول في الحجرة في كبد الليل، كما أنهم شاهدوا أشخاصًا بألبسة غريبة عجيبة، شعرهم أشقر طويل، يشربون الخمر ويتحدثون لغة لا عهد لهم بسماعها. ثم أضاف مقدم الضريح مطمئنا بعد لحظة صمت ثقيلة:
- لكن إذا قرأت آية الكرسي والمعوذتين قبل النوم، فلن يصيبكم أي مكروه.

لم أصدق طبعًا ما رواه المقدم، واعتبرت الأمر مجرد تخاريف وتصورات تعرض للناس بفعل الخوف وترسبات المعتقدات الشعبية البائدة. لم أومن أبدًا بالجن والأرواح الشريرة، رغم كل الذي

سمعته وقرأت عن الموضوع، لذلك لم أهتم كثيرًا ولا قليلاً بكلام المقدم.

تمددت كارولين على أرضية الحجرة بعد أن ارتدت بيجامتها وتركت الكوة مفتوحة. في الواقع كنت أفضل أن تظل الكوة مغلقة في الليل، بعد كل الذي سمعته من مقدم الضريح، صحيح أنني لا أومن بالأرواح الشريرة ولا بالجن، ولكن في المقابل كذلك لا أنكر أنني شعرت بتوجس حين أطفأت كارولين الشمعة، وأطبق ظلام دامس في الحجرة. لم أستطع أن أطرد من ذهني صور تلك الجثث مقطوعة الرؤوس، ولا تلك الأجساد التي تنزف بالدم، وهؤلاء القراصنة والقتلة الذين تحدث عنهم المقدم. كانت كارولين تغط في نوم عميق حسدتها عليه، وحاولت بدوري أيضًا أن أنام. قبل ذلك سحبت صورة ريم في الظلام ورحت أقبلها، أحسست بها بعيدة جدًا، وقريبة جدًا في الوقت نفسه. تساءلت أيضًا ماذا ترى كريمة الآن فاعلة، هل تكون جالسة في صالة الجلوس تتفرج على التلفزيون؟ أم أنها تكون أجبرت تحت خيبة وإحباط قاتل للاستسلام لبيرنارد.

في صباح الغد نزلنا أنا وكارولين جبل الضريح، في الواقع لم يكن جبلا حقيقيًا بمعنى الجبل ولكنه كان أكبر قليلاً من التل، لذلك وقعت في التباس تسميته، أهو تل أم جبل. لم يكن الجو مشمسا تمامًا، مع ذلك كانت هناك نسمات بحرية ناعمة تهب وتتلاعب بخصلات شعر كارولين التي كانت في ذلك الوقت

تتألق بفرح الوهج الذي يغمرها من داخل روحها المرحة المفعمة بالسعادة. وكانت رائحة أشجار الأرز والأعشاب البرية تعبق في المكان، بينما بدأت الأمواج البيضاء البحرية تتكسر على صخور الشط ويتناثر رذاذها بعيدًا في كل الاتجاهات.. تمشيت بجانب الشط، رفقة كارولين سليلة دم وردي يتضمخ به كيانها العذب المليح. كالعادة راحت هذه القطة الفرنسية الصغيرة تتحدث عن كل شيء، طبعًا لم يفتها أن تتحدث عن همومها البيئية والاحتباس الحراري، والنفايات النووية التي تهدد الحياة على وجه الكرة الأرضية برمتها. كنت أوافقها على ما تقوله، ليس فقط من مبدأ مسايرتها في أهوائها، ولكن أيضًا لأنني أعرف أن هذه الأمور هي محل إجماع من طرف كل سكان الكرة الأرضية، لكن بارونات السياسة، والشركات متعددة الجنسيات العابرة للقارات، وأصحاب القرارات الاقتصادية الضخمة، هم في الواقع اللوبيات التي تتحكم في مصير كوكبنا الشقي، وهم الذين يقررون مصيره، وليست كارولين أو أنا.

ليت كريمة هي أيضًا تواجدت بجانبي لتضيف جنونًا وخبلاً على هذه العطلة، لو كانت كريمة هنا، كانت ستتفاعل مع البحر بطريقتها الخاصة، وبجنونها الساحر الذي يستحوذ على كل إعجابي ومشاعري. كنت أدرك أنها أيضًا ستنزع ملابسها وترميها بعشوائية فوق الرمل والصخور، لتلقي بجسدها المقدس المثير في

أحضان البحر، الذي سيعرف كيف يتعامل مع إلهة إغريقية هاربة من التاريخ والأسطورة.

صادفنا في طريقنا شابًا أنيقًا حسن الوجه والملامح، يبدو نشازًا وسط أهالي القرية البسطاء، كان يحمل في يده كتابا. حييناه، وحيته كارولين بالفرنسية فرد تحيتها بفرنسية بدا أنه يتقنها جدًا. جلسنا معه وقتًا طويلاً، وتبادلنا الأحاديث حول كل شيء، كان شابا طيبا ومهذبا. أصر في الأخير أن يدعونا لوجبة الغداء في منزلهم القريب، لم يكن لنا بد من الموافقة في ظل اصراره. ودعنا لكي يبلغ والدته بأن تعد لنا الأكل، بينما فضلنا أنا وكارولين الاستمرار في التمشي قليلاً بجانب البحر، وداخل غابة الأرز الظليلة، قبل أن نقرر العودة إلى الضريح. حين وصلنا حجرتنا كانت كارولين متعبة قليلاً، وكنت أنا أيضًا متعبا ومحبطا، وحاملا لهواجس غامضة تتسرب إلى أعماقي من أقاصي الجهة الشمالية من القارة الإفريقية وراء البحر الأبيض المتوسط، كنت أفكر في كريمة وفي صور ريم وذلك الألق الجميل الذي تزرعه كشجيرات لبلاب مزهر وعبق برحيق عطر مدوخ يتضوع في حجرتي.

قررت كارولين أن تأخذ حمامًا خفيفًا منعشًا، بينما استلقيتُ على ظهري في الحجرة الظليلة المفعمة بنسيم البحر الذي يتسرب من الكوة الصغيرة، واستسلمت لغفوة قصيرة، سرعان ما أفقت بعدها على وقع أقدام كارولين، التي أنهت استحمامها في الحمام الصغير

الملحق بالحجرة. بدا شعرها لامعا وازدادت حمرة خديها، وفاحت منها رائحة عطر نافذ استطابت له نفسي واستعذبت جسدها الملفوف بفوطة رسمت جسدها بدقة مثيرة للغاية. ثم ما لبثنا كذلك حتى جاء طفل صغير أبلغنا بأن الأكل جاهز، وخالد في الانتظار.

استقبلنا خالد في باب المنزل الصغير المتواضع، ولجنا خلفه إلى صالة جلوس نظيفة، مفروشة بحصير من الحلفاء وبعض الوسائد والسجاد البلدي القديم، بيت تقليدي بدوي يجسد جمالية البساطة في البيوت المغربية القروية، بصباغته الفاقعة وألوانه التي تعكس طبيعة المنطقة، حيث البحر والغابة وأزهار الأقحوان وشقائق النعمان في فصل الربيع. في صدر الصالون طاولة مستديرة، قصيرة القوائم، عليها صينية وإبريق شاي ينبع منه شذا فواح من أريج النعناع المنعش. رغم صغر نوافذ الصالون إلا أن هواء رطبا بحريا عليلا كان ينفذ منها، تستطيب له النفس، وتزيده عذوبة الموسيقى الأندلسية الهادئة الخافتة التي تنبعث من مذياع صغير وضع على رف في الحائط تراكمت عليه أيضًا عدة كتب ومجلات مختلفة باللغتين العربية والفرنسية. تصفحت كارولين بعض تلك الكتب بعد أن استأذنت خالد، ثم تبادلا حديثا قصيرا حول الموسيقى والأدب والفن. تواصل الحديث حول مائدة الطعام التي اشتملت على ديك بلدي، وخضر، وسلطة بالطماطم والخيار، بطعم خل بدا لكارولين في الوهلة الأولى

قويا، لكنها سرعان ما استساغته. قضينا وقتا طيبا ومفيدا مع خالد، تعرفنا من خلاله على أشياء كثيرة مهمة، كان لا بد لنا من معرفتها ونحن نقيم في الضريح وعلى مقربة من أهالي القرية ووسطهم تقريبا. ودعناه في الأخير ثم انصرفنا بعد أن تواعدنا على مزيد من اللقاءات في الأيام المقبلة. بعد خروجنا توجهنا أولاً للضريح، ثم استرحنا قليلاً قبل أن نخرج باقتراح من كارولين لنستمتع بمشهد الغروب البحري الذي تفتقده قطتي الصغيرة في فرنسا، كما تفتقد لأشياء كثيرة هناك.

• • • •

## (١٢)

تجولنا مساء الغد بجانب البحر، استمتعنا بالأمواج الهادرة التي كانت تصفع الصخور وتنثر رذاذا ينتشر مداه إلى أمكنة بعيدة. عدنا إلى الضريح بعد غروب الشمس بقليل، وقبل وقت العشاء بقليل سمعنا قرعا خفيفا على الباب، إنه خالد، كان يحمل في يده قدرا خزفيا، قال لنا بابتسامة محتشمة وشبه خجولة:

- شربة حريرة، أرجو أن تروقكما وتستلذان بطعمها.

- شكرًا جزيلاً، تفضل أدخل يا خالد.

قالت له كارولين. في البداية تردد قليلاً، لكن حين ألحت عليه، دخل وبعض الحياء يكتنفه.

كان التواصل يتم بشكل جيد بين كارولين وخالد، تحدثا كثيرًا، وفي مواضيع مختلفة ومتعددة، شربنا جميعا شربة الحريرة بتلذذ. في النهاية اقترحت كارولين أن نلعب الورق لتجزية الوقت، جلسنا بصحن الضريح أمام باب البيت الذي ننام فيه أنا وكارولين، تحت ضوء فانوس أضفى على الجو مسحة جمالية ساحرة لم تكن أيضًا إلا لتحيل شجوني إلى عوالم بعيدة ومفعمة بالحلم والحلم وحده. لم يكن الجو حارا ولا باردا كثيرًا أيضًا. لم أكن أبدًا من هواة لعب الورق، لذلك اعتذرت بعد دورتين أو ثلاث دورات. كنت متعبًا ومرهقًا ذهنيًا، شعرت بالنعاس

يداعب أجفاني، قلت لكارولين بأنني سأدخل لأنام، ثم ودعت خالد، وقبل أن أدخل إلى الحجرة قلت باسمًا:

- أتمنى أن تستمتعا باللعب، لكنني متشوق لمعرفة النتيجة ومن سيكون الغالب في النهاية.

ثم قلت مازحا مرة أخرى مخاطبا خالد وأنا أهم بغلق الباب:

- أحذر أن تغشك في اللعب، كارولين غشاشة بارعة جدًا.

آويت إلى الفراش على الفور، وجدت ذهني يسترجع كل أحداث الأيام الأخيرة في باريس، فكرت في مأساة كريمة، هل هي حقًا في حالة هيام ببيرنارد؟ ذلك الهيام الحقيقي الذي لا رجعة بعده أبدا؟ أم أنها مجرد نزوة عابرة سرعان ما تنقضي؟ من خلف الباب كنت أسمع الكلام الخافت الذي يدور بين خالد وكارولين، والضحكات التي تنبعث بين كل لحظة وأخرى، لقد كانا منسجمين تمامًا مع بعضهما البعض. انقلبت في فراشي على الجانب الآخر وحاولت أن أنام، لكن إحساس مفاجئ وثقيل استمر يضغط على صدري، شعرت فجأة بانقباض طيّر النوم من عيوني. كانت ضحكات كارولين وخالد تدق كالمسامير في أذني الاثنتين، كانت ضحكاتهما المنسجمة تعذبني، تجرحني، تسحق شيئًا ما في داخلي. وجدت نفسي أتنهد بلهيب ناري يحرق أعماقي. إن خالد شاب جيد ومهذب، لقد شعرت بالاحترام نحوه منذ أول وهلة، لكن آنذاك انتفى من نفسي ذلك الشعور الإيجابي نحوه، تضايقت من وجوده تضايقًا غريبًا ولا مبرر له، ولم

أدر لماذا استبد بي فجأة ذلك الشعور. تمنيت لو يغادر في الحال، وندمت أصلا أننا تعرفنا عليه. ظللت أسمع الأحاديث الخافتة بين خالد وكارولين، وتهيأ لي وكأن تلك الأحاديث تدور حول أشياء رومانسية حالمة، ثم سادت لحظات صمت تلتها ضحكات بدت لي طويلة ومنتشية. تململت في فراشي بضيق، ولم أستطع أن أغمض أجفاني، ثم فجأة نهضت من الفراش غاضبا. ياه!، أحيانًا نأتي أفعالاً لا نصدق في الأخير أننا قمنا بها فعلاً، لذلك شعرت منذ تلك اللحظة بنوع من التفهم النسبي جدًا لهؤلاء الناس الذين يقومون بجرائم بدافع شكوك تنغص حياتهم، وأوهام تسكنهم وتحول أيامهم إلى جحيم دائم ومستمر، الشك حالة مرضية مزمنة وقاتلة، إنها لا تقتل بشكل حاسم وفي مرة واحدة، بل تقتل بهدوء وعلى إيقاع عذاب رتيب وجارح، يظل ينخر عقل وأحاسيس صاحبه إلى أن يقوده نحو تصرفات مجنونة.

فتحت الباب وتوجهت كالسهم إلى حيث يجلس خالد وكارولين. رأيتهما يجلسان كما تركتهما، كل واحد في مقابل الآخر وهما يلعبان الورق بشكل طبيعي وعادي. صرخت بقوة وأنا أنظر إلى كارولين، خرجت الكلمات من فمي قاسية ومندفعة وسريعة كالرصاص:

- لا أحد يستطيع النوم هنا، ألا تدركين بأن هذا الوقت هو للنوم وليس لشيء آخر؟

قلت ذلك بغضب لا مبرر له، غضب أحمق بدون داع. كارولين ذهلت وهي تراني على تلك الحال، انتابتها حالة صدمة قوية، امتقع لون وجهها فجأة، أصبحت عينيها تقدحان بالشرر، تحولت هذه المرة إلى نمرة شرسة وبمخالب حادة. هبت واقفة، وفي الحال صفعتني على خدي. كنت في الواقع أحتاج لمثل تلك الصفعة لكي أعود إلى نفسي، خلال ذلك كان خالد قد غادر المكان بهدوء دون أن نهتم له. كارولين فوجئت أيضًا وهي تجد نفسها تصفعني، ابتعدت قليلاً، وانزوت في الركن القصي وراحت تبكي وتنشج نشيجا خافتا جدًا وهادئا كبكاء ثلج وضباب جبال قرية شاموني في فصل شتاء حزين.

عدت إلى الحجرة، انكمشت داخل الفراش والندم ينهش قلبي، فكرت في تصرفي الذي كان حقًا تصرفا غريبًا وغبيا ولا معنى له في حقيقة الأمر. هل كل هذا يعود إلى اليتم النفسي الذي استبد بي بعيدًا عن صور ريم، هل تصرفي هذا نتيجة لعقدة ذنب خفية ومستترة أشعرها حيال مأساة كريمة، التي كان يجب من منطق الشهامة أن أظل إلى جانبها في هذا الموقف العصيب الذي تعيشه؟ لقد شعرت في الواقع بما يشبه الغيرة أيضًا، وهذا أمر لا يمكنني أن أنفيه، غيرة حقيقية بكل صورها وتجلياتها الممجوجة، كيف سمحت لنفسي بذلك، كيف سمحت لرجولتي أن أغار على فتاة يمكن في أي لحظة أن تصادفها مع رجل آخر، فتاة متقلبة لا يهمها إلا ما تصيبه من متع الحياة. ثم

أنني نسيت بأنني هنا في مهمة لمصاحبة كارولين لا أكثر ولا أقل، أصاحبها في جنونها وحمقها البوهيمي، وهي في كل الأحوال ليست حبيبتي، وقد ارتضيت طواعية هذه المهمة ولم يجبرني عليها أحد. ثم لماذا تفوهت بتلك الكلمات غير اللائقة، لماذا كنت قاسيا وغبيا لتلك الدرجة؟ ولماذا سمحت لنفسي بالإساءة لشخص خالد الذي لم يبرهن لحد ذلك الوقت إلا على حسن خلق ودماثة تجبرك مرغما على احترامه بالرغم منك؟

مرَّتْ حوالي ساعة وأنا في الفراش صريع إحساس مرير بالهزيمة والخيبة، بقيت كارولين في صحن الضريح أمام الباب جالسة على انفراد، لا شك أنها كانت تبكي طيلة الوقت، أعرف ذلك، إنها امرأة حساسة ومرهفة المشاعر. حينذاك استحضرت في ذهني هذا المشهد الرومانسي الذي لا يخلو من شاعرية، فتاة جميلة تبكي تحت ضوء قمر باهر، لكن ذلك المشهد الرومانسي لم يكن ينعكس على الواقع، كان أقسى وأصعب من أن يكون مشهدًا رومانسيًا وشاعريًا. بعد ذلك أحسست بالباب يفتح، ورأيت طيف كارولين وهي تدخل الحجرة بهدوء، ثم أحسست بها تنزع ملابسها، وتتسلل إلى جانبي داخل الفراش، ثم أحسست جسدها العاري يلمس جسدي، وذراعها تطوق عنقي، وبشفتيها عند أذني، وسمعتها تهمس بصوت حالم ومثير إلى أقصى حدود الإثارة:

- أعتذر، ما كان ينبغي أن أصفعك يا عزيزي عمر.

ضممتها إلى صدري بحنان، قلت في محاولة يائسة للتغطية على سوء تصرفي الأرعن:

- أنا من يجب أن يعتذر، لم أفهم ماذا حصل، على كل حال كان خطأً فظيعًا، أحيانًا أتصرف بغباء شديد غير مفهوم، وهذه الخاصية تلازمني من حين لآخر، بل في كثير من الأحيان.

بدت كارولين آخر الأمر سعيدة رغم كل الذي حدث، كأنها انتشت كوني أغار عليها، وهو الشيء الذي ألهب عواطفها تلك الليلة لتصبح جمرة ملتهبة وحارقة في نزواتها اللذيذة.

في الغد كنت وحدي أمشي بتمهل على ضفة البحر، بجانب الأمواج الهوجاء التي تصفع الصخور النابتة كالأوتاد تحت الضريح. بينما اختارت كارولين أن تتمدد تحت أشعة الشمس التي كانت دافئة نسبيا، تحت مرأى من زوباي، زوباي شخص معتوه، لكنه مسالم جدًا، بل أكثر من ذلك فهو يخاف شغب الأطفال ومشاكساتهم له، وقد طمأنونا بأنه لن يشكل أي خطر على كارولين المتمددة بكل سحر جسدها الأبيض الثلجي تحت أنظاره، زوباي الذي يتقوقع وحيدًا على نفسه فوق جرف عال ومنعزل كجرو هزيل جائع. كانت الرياح تهب لطيفة وسريعة، والسماء زرقاء صافية إلا من بعض السحب الصغيرة الداكنة التي تبتعد هاربة باستعجال. بينما راحت تطير بعض النوارس البحرية وتنوس بحزن فوق الماء والصخور الرمادية السوداء. بدا المكان شبه خال، إلا من صيادين أو ثلاثة، موزعين في أماكن بعيدة

متفرقة، وإلا أيضًا من قارب صيد خشبي صغير يتراءى على الساحل من بعيد.

وصل في تلك اللحظة صياد يحمل في يده قفة عتيقة من الحلفاء، وصنارة صيد على كتفه. ألقى التحية ثم جلس تحت ظل صخرة عملاقة، جهز صنارته وركب عليها الطعم، ثم رمى بها إلى البحر. فتح جهاز راديو ترانزيستور صغير على محطة إسبانية تذيع موسيقى فلامنكو. أشعل السيجارة وأسلم نفسه لانتظار قد يقصر وقد يطول. تأملته بصمت، أدركت انه شخص ليس من السهل تقدير سنه، فهو من ذلك النوع الذي إما أن تقول عنه بأنه في مقتبل العمر ولكنه يبدو أكبر بكثير من عمره الحقيقي، أو تقول عنه انه كبير في السن ولكنه يبدو أصغر من عمره. غير أنني اعتقدت حينذاك أن عمر ذلك الصياد كان يتراوح ما بين الأربعين والخمسين سنة. ارتجت الصنارة في يده، وأسرع برفعها من الماء وقد علقت بها سمكة ذهبية جميلة، وضعها في قفته، ثم ركب طعما آخر، ورمى الصنارة من جديد إلى البحر. اقتربت منه بفضول، كان الصياد حتى ذلك الحين لا ينظر حوله، تأملت السمكة وهي تنتفض داخل القفة.

- إنه يوم ملائم لصيد وفير، أليس كذلك؟

قلت له بود وأدب جم، فرد الصياد:

- نعم، هو كذلك أيها السيد.

خلال الحديث القصير نسبيًا الذي جمعنا كان الصياد الذي عرفت أن اسمه قويدر، قد اصطاد بضعة سمكات بألوان وأحجام مختلفة:

- إنه صيد لا بأس به، هل ثمن السمك في السوق خلال هذه الفترة جيد؟

أجاب قويدر، وهو يركب طعما آخر:

- ليس جيدا جدًا، ثم أنني غالبًا ما أصطاد للاستهلاك الشخصي فقط، أو لاستبداله بالكيف وبعض الخبز والغذاء، ألست من المنطقة؟ يبدو أنك جئت من مكان بعيد، بعيد جدًا.

- نعم هذا صحيح، لقد عشت لزمن طويل في فرنسا.

- حقًا؟ لقد ظننت ذلك، كيف الحال هناك؟ لطالما فكرت أنا كذلك في الهجرة. لم يعد بهذا البلد ما يغري بالبقاء، الجميع يرغبون في عبور البحر. هل صحيح أن من لا يتوفر على عمل هناك يحصل تلقائيًا على راتب شهري مجزي؟

بدا على الصياد حماس واضح للحديث، لمعت عيناه الصغيرتان ببريق غريب، تطلع إلى الضفة الأخرى وأشار بإصبعه:

- هل ترى تلك الجبال التي تظهر قليلاً خلف غبش البحر، تلك الجبال، هل تراها؟ إنها أسبانيا، المسافة قصيرة، ويمكن قطعها حتى سباحة لمن هم شباب وفي لياقة عالية جدًا. أما بواسطة القارب فإنني أعتقد أن الأمر أسهل بكثير، إنها فقط مسألة جرأة، ألا تعتقد ذلك؟

لم أجبه بشيء. في النهاية كان قد اصطاد سمكًا كثيرًا، ترجاني أن أرافقه إلى كوخه:

- سنتفرج على القارب الذي أوشك على الانتهاء من بنائه، أسكن على بعد نصف كيلومتر تقريبًا من هنا، المكان جميل سيروقك، وسنشوي أيضًا بعض السمك.

جذبني الفضول لرؤية القارب الذي يبنيه، وافقت على مرافقته، خصوصًا لأن الصياد أيضًا بدا محتاجا لشخص يستمع إليه، ولقد لعبت الدور بشكل جيد حتى تلك اللحظة. حمل الصياد قفة السمك، ووضع الصنارة على كتفه، وانطلق يمشي بين صخور الشاطئ وأنا إلى جانبه. لم يكف خلال المسيرة القصيرة عن الحديث عن أوروبا وحلمه الكبير بالهجرة:

- الجميع يسخرون مني، يعتقدون أنني أبني القارب لأجل الصيد، ولكن حين أقول لهم بأني سأقطع به البحر باتجاه أسبانيا، لا يصدقون، يضحكون ساخرين، ثم ينصرفون، لكنني سأفعل، سيأتون ذات مرة للشاطئ، وسيبحثون عني وعن القارب، ولكنهم لن يجدوا أي شيء، حتى الكلب سأصطحبه معي، حينذاك سيدركون بأنني كنت جادا كما كنت في حياتي دائما.

لم أعلِّق حول كلام الصياد قويدر، بدأت بعض التساؤلات تضطرم داخلي بشأنه، شككت في قواه النفسية والعقلية. كنا نمشي معًا بمحاذاة الشاطئ، اقتربنا من الكوخ الذي توسط البحر وغابة الأرز. خلف الكوخ بدت ورشة عمل مليئة بالنشارة والخشب

وأعمدة الأشجار، وليس ببعيد رأيت القارب الصغير المبني بشكل جيد وبإتقان غير متوقع أبدًا، قارب صغير لكنه صنع بمهارة وبصبر شهور كما توقعت. كان جاهزا للإبحار تمامًا، ولا يبدو أنه يحتاج إلى أي شيء حسبما تصورت آنذاك.

استفسرت قويدر عن الأمر فأجاب:

- يحتاج لدهان خاص حتى لا ينفذ الماء من بين الشقوق، كما أنني لم أنته من وضع مساند للمجدافين، إنها مسألة ساعات فقط وسيكون كل شيء جاهز بإذن الله. إذا سار كل شيء على أحسن ما يرام فإنني قد أستطيع الإبحار في أي وقت.

جلس قويدر على مقعد مصنوع من جذع شجرة، وقدم آخر مشابه لي، كان الكوخ باردا ورطبا، وتفوح منه رائحة سمك قوية. نصبت في ركن منه مشواة تقليدية قديمة، وتوزعت في أركانه أواني طهي فخارية اسود لونها بفعل الرماد والدخان. خارج الكوخ كان هناك كلب أبيض مرقط باللون البني، هزيل رث وجائع. رمى له الصياد سمكة التقطها الكلب تقريبًا حتى قبل أن تخرج من يد الصياد. لم أرتح لأجواء المكان، بدأت أتململ في جلستي. وبينما انشغل الصياد بإعداد المشواة، وإشعال الموقد، غادرت الكوخ، بعد أن اعتذرت له بطريقة مهذبة ولبقة، وعدته بزيارة مقبلة قريبة، وتحججت بأنني على موعد لا ينبغي لي إخلافه، تفهم الصياد قويدر الأمر، لكنه قال بأنني لا يجب أن أنسى زيارته في أي وقت أشاء، وعدته، وحينذاك كنت ملزمًا بإيفاء وعدي في فرصة لاحقة مقبلة.

عدت من جديد إلى ضفة البحر، سفر الصياد قويدر الطويل من مكان ما من هذا العالم الذي قاده أخيرًا إلى شاطئ أوهامه، هو دلالة تيهانه الأبدي داخل أغوار نفسه التي فقدها حقا، أو أخذت منه عنوة. سينتهي من بناء قاربه الخشبي ربما، وسينتهي زمن صيد السمك ربما أيضًا، وفظاءاته العبقة بروائح البحر، وأريج أشجار الأرز التي تضفي على المكان سحرًا أسطوريًا لا ينتهي. لكن قويدر سيبقى إلى الأبد كما هو، قويدر الرجل المسكون بحلم السفر إلى الضفة الأخرى، الرجل الذي يحمل الحلم، ليس فقط في ذاكرته ووجدانه، لكنه يحمله في كل تفاصيل حياته بأدق وأصغر عناصره.

فركت عيني، وشعرت بإرهاق التفكر، إرهاق النظر إلى بئر نفسي العميقة. هل أشبه الصياد قويدر في ترحاله العجائبي عبر سهوب وأودية المستحيل؟ لا أحد يشبه أحد، الصياد قويدر يختزل ورطة وعنف أزمنة متشابهة، وأنا أختزل ورطة حب يتوزع بين صور ريم، ومأساة كريمة المتورطة في حب غير واضح المعالم، حب أجزم أنها لن تستطيع الإفلات منه هذه المرة. خلعت ملابسي بعد أن ولجت حجرتي في الضريح، أخذت حمامًا باردًا، وأحسست حاجة ملحة لأنسى قليلاً أحداث اليوم المشحونة بكل حالات الالتباس السريعة. فتحت ذاكرتي، ورحت أفكر في الصياد قويدر وكارولين، وكل شيء عن باريس وكريمة وريم. الأشياء الجميلة التي تؤثث حياتي هناك في باريس. رحت أفكر أيضًا في حياتي

العبقة بالحلم والحزن والأمل، الأمل على أية حال أيضًا. هل كان لي أمل أعيش على وقعه في باريس؟ هل صور ريم كانت قادرة على منحي مثل ذلك الأمل؟ لا أعتقد، سأظلم نفسي وأوهمها بغباوة إذا آمنت بهذا النوع من الأمل. حياتي في باريس هي عبارة عن وهم كبير، ولا أمل يتخلله أبدًا، إلا وهم الأمل أو أمل الوهم.

بعد حين جاءت كارولين من تشمسها اليومي متوردة الخدين، أخذت بدورها حماما، ثم جاءت ببرودة جسدها المنعش وتمددت إلى جانبي. أحسست أن حدث تلك الليلة مع خالد، وإحساسها بأنني شعرت بالغيرة عليها، زادها قربا مني. راعني هذا الاحتمال، لكنني سرعان ما صرفت عنه النظر ونحن نتبادل قبلا خفيفة سطحية على الشفاه والخدين، إنها عصفورتي المنحدرة من جبال الألب على أية حال، ويجب أن أسبغ عليها الاهتمام الذي تستحقه، هنا بعيدًا عن مسقط رأسها في بلدة شاموني بجبال الألب، وبعيدا عن باريس التي أصبحت جزءا من كيانها وكياني أنا أيضًا، يجب أن أعترف.

• • • •

## (١٣)

عمَّت الضريح حالة قلق غريبة، ظلت عدة أسراب من الغربان تطير وتحط على جنبات الضريح، غربان تنعق نعيقا مشؤوما يدخل الرهبة والجزع إلى النفوس. الجميع كانوا يجزمون بإيمان شديد أن تلك الغربان، كانت نذير شؤم بحدوث شيء جلل ستهتز له كامل القرية. يقولون إنه قد يحدث ما هو أسوء لولا صلوات القيم وابتهالاته، ولولا الطقوس التي يلجأ إليها الأهالي في مثل تلك الظروف الصعبة المخيفة، لتفادي ما هو أخطر وأجسم.

غالبًا لا ترى طيور الغربان السوداء في هذه المنطقة البحرية إلا نادرا جدًا، تعود الناس بكثرة على النوارس واليمام الوديع الجميل الذي يعشش في مداخل الكهوف والصخور العالية. كما أن العصافير والطيور المختلفة شيء مألوف في غابة أشجار الأرز الجبلية القريبة. أما الغربان التي كانت تزور البلدة في أوقات نادرة ونادرة جدًا، فلم تكن إلا نذيرًا مشؤومًا بموت شخص من الأعيان وكبار القبيلة، أو بحريق يأتي مثلاً على كامل حقول الذرة والقمح في السهل المنبسط الطويل تحت التلال والجبل. أمس حين اجتاحت أسراب هائلة من الغربان التل، وظلت تحوم وتحوم لوقت طويل حول الضريح والجبل والبحر، وفوق غابة الأرز، توجس الناس شرًّا، بدا القلق على العيون الوجلة، وخرج الجميع

من الحجرات، وراحوا يحدقون في السماء مشدوهين والخوف يملأ أعينهم، ويرددون في صمت آيات كريمة من القرآن الكريم. بينما اعتصم القيم بالمكتبة، وروى المقدم أن القيم يروم عزلة روحية استجلابا للحظة تجلي تقربه من الخالق، وتجعل ابتهالاته مستجابة. كان الخوف يملأ وجوه الناس، أناس كثيرون وفدوا إلى الضريح بعد أن أصبحت اللامة على بعد يومين فقط، كان الأمل يحذو الجميع بأن يأتي المصاب بأقل الضرر، أما وقع الضرر في حد ذاته فكان أمرا حتميا بالنسبة لهم، ولم يكن محل نقاش أبدًا. نظم المقدم حلقات لتلاوة اللطيف، فيما وزعت على الأطفال صدقات هي عبارة عن خبز شعير وتين مجفف لتنقية النفوس واستجداء لرحمة يراعي فيها الخالق براءة الأطفال. ثم نام القوم تلك الليلة وهم على يقين بأنهم سيستيقظون لا محالة على مصيبة لا يعرف كنهها وحجمها إلا اللّه سبحانه وتعالى.

نمت أنا وكارولين متعانقين كالعادة، لم أشغل بالي بترهات القوم واعتقاداتهم البالية العتيقة. بعد يومين من ذلك، كانت الشمس ساطعة ومشرقة، والسماء صافية، إلا من سحب قليلة تجمعت جهة الغرب. أفاق الناس والقلق يسيطر عليهم، كانوا صامتين، لا يتحدثون إلا قليلاً. حالة ترقب قصوى تطغى على الأجواء، قلّت الحركة في الضريح، وشوهد القيم، حسب قول البعض، وهو يخرج في الفجر من المكتبة، يُعتقد بأنه قضى ثلاث ليال داخلها. وانكب عمال الضريح كالعادة على أعمالهم، وذهب

الساقي ككل صباح ليجلب الماء من نبع الوادي، فعل ذلك أكثر من عشرين مرة على الأقل، ذهابا وإيابا على بغله حتى ملأ كل القدور والقوارير في الضريح، وهي المؤونة من الماء التي تكفي الحاجة طيلة اليوم. وانبرت النساء لطهي الفطور، وفاحت رائحة الشاي الأخضر بالنعناع، وخبز القمح المحمص، ورائحة البيض وزيت الزيتون الزكية التي يجلبها مريدو الضريح من بساتين الدريوش المشهورة. ثم قدم زوار جدد وحملوا المزيد من الهدايا والمطالب لسيدي مفتاح، كما غادر آخرون وقد تحققت أمانيهم، أو أنها في الطريق إلى التحقق حسب اعتقادهم. حدث كل ذلك في الصباح، كما كان يحدث دائمًا، ولم يحدث بعد ما توقعه الناس، وما ظنوا أنهم سيستفيقون على أمره في الصباح. وبقيت النفوس منقبضة ومتوجسة. هرع الناس إلى الشاطئ عند حوالي الحادية عشرة صباحًا أو أكثر قليلاً، بدون وعي مني وجدت نفسي أركض ضمن الجموع التي هبَّتْ إلى عين المكان. القليلون ربما كانوا يدركون لماذا يتوجهون إلى الشاطئ، والأكثرية بما فيهم أنا يجذبنا الفضول وحب الاستطلاع فقط. الذين سبقوا كانوا متجمعين في مكان معين، يقفون واجمين وينظرون بصمت وحزن. اقتربت بهدوء من المكان، اخترقت الجماهير ووصلت بصعوبة إلى الصفوف الأمامية، ثم شاهدت ما وجف له قلبي. جثة شخص ممدة على الأرض، العيون مفقوءة، والوجه مشوه معفر بالرمل، الأنف مجدوع والجسد شبه عار إلا من

ملاءة صغيرة وضعت على وسط الجثة، إنه غريق لفظه البحر هذا الصباح. وجدت نفسي فجأة أصرخ بدون وعي وبدون إدراك تقريبًا:

- قويدر.

شعرت صدى الصرخة يتردد في كل آفاق الكون، إنه هو، إنه الصياد قويدر، ليس من شك في ذلك. رغم أن الحوت عبث بعينيه، ومزق وجهه وقضم أنفه وأذنيه. لم يكتب لرحلته أن تصل إلى النهاية، أو أنها وصلت إلى هذه النهاية المأساوية التي لم تكن أبدًا كما كان يأمل، لقد حلم بأن يجتاز إلى الضفة الأخرى بقاربه الذي أمضى في بنائه أكثر من سنة، وبعد كل ذلك الجهد هاهو القارب يتحطم، ومعه تحطمت حياته وحلمه في الهجرة إلى الضفة الأخرى، الضفة الحلم، ذلك الحلم الذي كان يستبد به كلما شاهد جبال إسبانيا في الضفة الأخرى.

تحطم القارب، ربما بفعل رياح عاتية، أو ربما بفعل أمواج هوجاء، أو ربما بفعل خطأ تقني لم يتنبه له قويدر ولم يقدر خطورته، أو أن الدهان لم يكن بالفعالية المطلوبة فلم يمنع المياه من التسرب عبر الشقوق. لسبب ما تحطم القارب، لكن ذلك لا يهم بقدر أهمية نهاية قويدر، وانجراره نحو هاوية حلم خادع وغدار. كان قويدر يعشق البحر، وعاش دائمًا بجانب هذا الشيء الأزرق الضخم، ولا شك أنه تمنى إذا مات أن يدفن في قبر عائم. تلك كانت أمنية قويدر الأخيرة ربما، فهل ستتحقق له تلك الأمنية؟ قطعا لا، ولكن قد يكون عزاؤه الوحيد أنه مات في أحضان

البحر، وتنفس من نفس البحر، وامتلأت رئتيه بماء البحر. فمات كما شاء أن يموت، غريبًا ووحيدًا إلا من نفسه، وإلا من ماءِ البحر الذي كان يمده بالسمك والحياة والتنفس.

لم يمس أحد الجثة، ظلت مسجاة على الرمل كما هي، في انتظار رجال الشرطة والطبيب الشرعي. بعد زمن طويل ومتأخر جدًا حضر هؤلاء، بقيت سيارة الإسعاف بعيدة بسبب وعورة الطريق بحوالي ثلاث كيلومترات. حملت جثة الصياد قويدر أخيرًا بواسطة حمالة، تعاون عدة أشخاص وتطوعوا لنقلها إلى سيارة الإسعاف. تفرق الجمع وبقيت وحيدًا على الشاطئ، تأملت البحر وأمواجه المتلاطمة بالصخور، نقمت في نفسي على هذا الوحش الهادر الذي التهم قويدر، والتهم حلمه الأبدي بدون رحمة، شعرت نحوه بحقد حقيقي لأنه خطف شخصًا بسيطا في حلمه، وفي كل شيء في تكوينه. سرت على الشاطئ بخطوات منكسرة، بدا حينئذ أن التوجس الثقيل الذي جثم على صدور الناس قد انجلى، سيتكرس الاعتقاد لا محالة بأن ابتهالات القيم والطقوس التي مورست قد حدت من المصاب، واقتصر الأمر بغرق قويدر فقط لا أكثر. هكذا سيردد الناس في أنفسهم، لأن قويدر كان بالنسبة لهم جميعا مجرد كائن يعيش الهامش، كائن ينتمي للبحر والغابة والصخور، ولا ينتمي للبشر، كان بعيدًا عنهم في كل شيء، لذلك لن يهمهم أيضًا في أي شيء.

توجهت صوب كوخ الصياد قويدر، لا أدري ما الذي كان يدفعني إلى ذلك المكان. شعرت طبعًا ببعض الحزن، أو بكثير من الحزن في واقع الأمر، وحتى بتأنيب الضمير أيضًا، كنت على علم بما يعتزم الصياد قويدر الإقدام عليه، وكنت أدرك تمامًا أن خوضه لمغامرة عبور البحر بقاربه الذي صنعه بنفسه، تنطوي على مخاطر حقيقية على حياته الشخصية. مع ذلك لم أحاول أن أثنيه عن المغامرة المستحيلة، اكتفيت فقط بأن ابتسمت له ابتسامة كانت محملة بمقدار كبير من السخرية والتهكم، كغيري من الناس الذين لا يحملون له إلا الاحتقار. ما الذي حملني على عدم قول رأيي بصراحة ووضوح؟ لماذا لم آخذ كلام الصياد قويدر بالجدية المطلوبة؟ لماذا لم أحذره من المجازفة التي كان ينوي الإقدام عليها؟

من بعيد بدا الكوخ منتصبًا وسط أشجار الغابة. كان المكان صامتا ومهيبا، وكانت لا تزال هناك بجانب الكوخ المبني بالعيدان والقش، بقايا تلك الورشة الصغيرة التي بنى فيها الصياد قويدر قاربه الذي أبحر به في عرض البحر. دفعت الباب المغلق برفق، وسرعان ما قابلتني تلك الرائحة التي هي مزيج من رائحة السمك والعرق والرطوبة. كان الكوخ خاليا تمامًا، إلا من حاجيات بسيطة تافهة مرمية بإهمال. كانت هناك شمعة مستهلكة بشكل تام تقريبًا، وسرير رث عتيق من الخشب، وجذعي شجرة كان يستعملهما قويدر للجلوس. جلست على

أحدهما وسرعان ما استبد بي إحساس غامر بالكآبة والحزن، وتوزعتني عدة أحاسيس مختلفة، تهيأ لي وكأني أسمع وقع أقدام ما خارج الكوخ، وقع أقدام خافتة، وقع أقدام لطيفة، هل هي روح الصياد قويدر تعود للمكان؟ ظللت أسترق السمع لتلك الخطوات الرقيقة الخجلة التي تقترب بوجل من الكوخ، ثم هل تكون امرأة ما اعتادت زيارة قويدر في نفس هذا الوقت، امرأة كانت حبيبته على الأرجح، فهو أيضًا رجل ويحتاج للأنثى ولرائحتها في هذا المكان الموغل في الوحشة؟ وبينما كنت أهم للخروج واستطلاع الأمر، فإذا بكلب قويدر يظهر فجأة في الباب. وقف مليا ينظر إلي، نظرات ميتة مفرغة من أي إحساس، كان يلهث، ولسانه يكاد يسقط على الأرض، ارتخت أذناه، بدا عليه التعب والجوع والهزال، وملح البحر يلتصق على وبره.

قلت بود: - مرحبًا أيها الشقي، كيف حالك؟

لم يرد طبعًا، لكنه جثا وأقعى بجانب باب الكوخ. اقتربت منه، توجس مني وتهيأ للنهوض، ثم ابتعد بحوالي خمسة أمتار، راح يلعق الماء من قدر كان يضعه له قويدر خصيصًا لذلك. كان ظمئًا وتعبًا للغاية، عاد من رحلة مجهدة وأفلت من موت محقق لا شك، ولا شك أيضًا أنه حاول مساعدة سيده قبل أن ترمي به الأمواج بعيدًا جدًا، ولا ريب أنه قضى بعد ذلك ساعات مشيا في طريق العودة الطويل إلى الكوخ. بحثت عن طعام ما يمكن أن أقدمه للكلب الجائع المنهك.

ثم فكرت أن أصطحبه معي للضريح:

- تعال، قد نصبح أصدقاء.

اقترب مني قليلاً، لكنني لم أنل ثقته، وابتعد من جديد وحام حول الكوخ، ثم مشى وسط الغابة، ناديته لآخر مرة:

- يا رفيق، ارجع، لا تهيم هكذا وحدك في البرية.

لم يحر الكلب أي رد فعل، ثم اختفى كما اختفى صاحبه، لكنه اختار الاتجاه المعاكس هذه المرة، اختار وجهة البرية، فربما وجد هناك ما لم يجده بجانب البحر والى جوار البحر، ومغامرته الأخيرة مع صاحبه قويدر داخل البحر. وبينما كنت أصعد تل الضريح فقد شعرت بتعب مضاعف، تعب في الجسم، وتعب في الذاكرة. كنت أريد نسيان ما حدث، قبل أيام قليلة لم يكن هناك بالنسبة لي شيء اسمه قويدر، وبعد ذلك أيضًا لم يعد هناك شيء بهذا الاسم، وبالتالي فإن تلك الصفحة الحزينة المثيرة لأشجان نفسي يجب أن تحذف من دفتر الذاكرة، عليَّ أن أمزق تلك الصفحة وأضغط عليها بين يدي ثم أودعها بمدفن الذكريات غير المرغوب فيها، لا يجب أن نحتفظ بكل الذكريات الحزينة في أعماقنا وإلا ستتكدس ذاكرتنا بهذه النوعية من الذكريات، ولن يبقى فيها أي مجال لذكريات مرحة سعيدة ومحببة.

• • • •

## ( ١٤ )

بدت أدراج الضريح الملتفة حول خصر الجبل، طويلة ومملة، قل المشاة، إنه وقت القيلولة. كارولين ستكون في هذه الأثناء جالسة تحت شجرة الليمون في الجانب الأيسر داخل الضريح، تؤدي صلاتها التأملية اليومية كما اعتادت أن تفعل في الأيام الأخيرة، تبدو في حالة انتظار ما، يطيب لها أن تجلس هناك لوقت طويل وهي تطالع في كتاب أو فقط تتأمل الناس والأشياء من حولها، بماذا تفكر هذه القطة الفرنسية الصغيرة؟

بدأ عدد زوار الضريح يتكاثر، امتلأت كل الجنبات بالحجاج، غص الفناء بالأطفال والنساء، ونام الناس في مخازن المؤونة، وفي الحظيرة، ونصب آخرون خياما صغيرة في السفح، وأشعلت المشاعل والمواقد في كل مكان من الجبل. إنها اللامة، حيث يلتئم جمع مريدي سيدي مفتاح، ويحجون إليه من كل البوادي والقرى المجاورة، بل أيضًا من مدن قريبة وبعيدة. إنه الموسم الذي ينتظره الجميع، فيه تعقد الصفقات وتبرم العقود، وتحل مشاكل وتخلق أخرى، وتزدهر التجارة، إنه مهرجان تلتقي فيه القبائل لتبادل الأخبار والخبرات.

كان الصباح مشرقًا وجميلاً، بعد أن تناولت أنا وكارولين الفطور، خرجنا لنتفرج على المشهد البديع. ازدحمت الأدراج الأفعوانية

الضخمة الملتفة حول خصر التل بالحجاج، وفي الأسفل اكتظت الجماهير في حركة نشطة ودءوبة. ربطت الحمير والبغال إلى جذوع الأشجار، وعرض الباعة على الناصية البضائع والمنتجات المتنوعة، ناس كثيرون أتوا من مختلف الجهات والمناطق.

تحت أسفل التل أقيم مهرجان شعبي كبير، ما فتئ يكبر ويكبر، توجهنا إليه أنا وكارولين لاستطلاع الأمر. وبينما كنا ننزل الأدراج إلى الأسفل استرعى انتباهي فتاة تمشي إلى جوارنا نازلة هي أيضًا إلى الأسفل برفقة امرأة توقعت أنها ربما تكون والدتها للشبه الطفيف الذي يجمعهما.

ولكن أي فتاة كانت تلك الفتاة؟ سبحان الخالق الرازق، آية في الجمال والحسن، فتاة متناسقة القد رائعة الجسم، يترامى شعرها الوحشي الساحر على ظهرها كأمواج هوجاء، حتى يكاد يلامس ردفيها. وجهها مدور بأهداب سوداء طويلة، وحواجب مرسومة بدقة وتناسق متناهيين، لون بشرتها يميل قليلاً إلى السمرة، وشفتيها مكتنزتين قليلاً ينمان عن شراهة طبيعية مذهلة. كنت قد رأيتها أمس حين وفدت إلى الضريح، وسكنت الحجرة التي تحاذي حجرتنا. لم أنتبه إلى جمالها، ثم أنني لم أنظر إليها مليا، رأيتها من بعيد بعد مغرب الشمس بقليل، ولم تترك أي انطباع في نفسي، لكنني الآن وأنا أراها هكذا في وضح النهار، وهي قريبة جدًا مني، فقد انكشفت عن فتاة آية في الحسن والجمال. رغم وجود كارولين إلى جانبي فقد ظللت من حين لآخر

أسترق النظر إليها، لكن شيئًا ما بدا لي غريبًا فيها، كانت وكأنها غير موجودة حيث هي. نظراتها عميقة وتخترق أبعادا أخرى غير التي نعيشها، تمشي بعفوية وكأنها تطلق خطواتها بدون أن تدرك لأي مكان أو جهة تتوجه. أي سرّ تنطوي عليه هذه الحلوة البديعة؟ أي مأساة تجعل نظراتها محملة بكل هذا الحزن الذي يفوق حزن كريمة، ويفوق حزن إناث الدنيا كلها؟ أحسست نحوها بشعور هو مزيج من الإعجاب والشفقة، أي ظروف ساقتها إلى سيدي مفتاح لتروم فيه عافية نفسها وقلبها؟

وقفت كارولين تنظر بإعجاب إلى قلادة من الفضة مطعمة بالذهب، ثم تأملت كثيرًا سجادا عتيقا يزعم صاحبه أن أصله من تركيا، وتأملت أيضًا صينية نحاسية صنعت في فاس بداية القرن التاسع عشر، يدعي البائع كاذبًا طبعًا بأنها كانت ضمن مقتنيات قصر السلطان مولاي يوسف. ثم أعجبت بخاتم من الذهب الخالص نقشت عليه نقوش تقليدية بديعة، كادت كارولين تشتريه لولا أن قياسه أصغر قليلاً من إصبعها. رحنا نسير وسط الجموع الغفيرة من المريدين والزوار، بدت كارولين سعيدة ومنتشية، ومفعمة بالأمل والتفاؤل. راقتها المشاهد التي تتلاءم تلاؤما كُليًّا مع نزعاتها وأهوائها البوهيمية. خلال كل ذلك كنا نلتقي من أسميتها في نفسي الفتاة الغجرية الساحرة، كنت أحاول أن أنظر إليها وأسبر أغوار نفسها العميقة، وفي كل مرة كنت أكتشف فيها لا مبالاة عجيبة. انتهيت في الأخير إلى نتيجة مفادها أنها

فتاة غير موجودة هنا والآن، إنها تشغل حيزا وأبعادا غيبية غير معلومة. حتى حين التقت عينانا مرة ولمدة طويلة نسبيا، شعرت أن نظراتها تتعداني وتتجاوزني إلى آفاق بعيدة وغير محدودة. في غمرة انبهاري بالفتاة الغجرية العجيبة التي كنت أراها من حين لآخر، لاحظت رجلا طوارقيا غريب الشكل، طويل القامة، يرتدي عباءة زرقاء ويتلفع بعمامة سوداء. ظل ذلك الرجل يتابع كارولين عن بعد ليس كثيرًا، ويراقبها باستمرار، لم أهتم للأمر، بدا الرجل وكأنه أعرابي من سكان الصحراء، الذين لم تقع أعينهم أبدًا على فتاة شقراء ترتدي لباسًا يبدي الكثير من مفاتن جسدها التي كانت قمينة بإيقاظ كل ثعابين صحرائه المسالمة. توقعت أنه سرعان ما سيذهب إلى ما جاء من أجله بمجرد ري حاسة النظر فيه، لكنه أطال النظر والمتابعة لكارولين، حتى أن هذه الأخيرة شعرت بالأمر. لم تتذمر، ولكنها أيضًا لم ترتح لمتابعته المستمرة لنا. فكرت أن أفهمه بكل لباقة أن ما يفعله لا يدخل في باب اللياقة في شيء، لكنني نحيت الفكرة من ذهني مراهنا على تعبه ويأسه واختفائه بمجرد رجوعنا إلى الضريح. بعد تجوال قصير، اشترت خلاله كارولين بعض التذكارات القليلة، عدنا من جديد إلى الضريح. كانت الشمس قد أصبحت حارة ومتوهجة أكثر. أخذت كارولين حماما، ثم فعلت أنا الشيء نفسه، جلست بجانبها بينما كانت تقرأ في كتاب سألتني بشكل مفاجئ:

- ما سر تلك الصور التي لا تزال تحتفظ بها؟

- أي صور؟

كنت أعرف أنها تشير إلى صور ريم المخبأة في جيوبي، هل كانت كارولين تتجسس علي، أم أن عيونها وقعت بصدفة غريبة على تلك الصور؟

أجابت:

- صور تلك الفتاة التي تملأ حجرتك في باريس، وصورها الصغيرة التي اصطحبتها معك إلى هنا؟

قلت بنبرة أردتها أن توحي بالتلقائية واللامبالاة:

- صور جميلة، بدلالات فنية بالأساس، أحتفظ بها مثلما نحتفظ مثلا بنسخ للوحة الموناليزا الجميلة ونعلقها على جدران بيوتنا، هذا كل ما في الأمر.. ثم إنها خطيبة صديقي.

صمتت كارولين غير مقتنعة، ثم قالت بشبه اتهام مبطن:

- لاحظت أيضًا مراقبتك المستمرة لفتاة كانت تنزل هي أيضًا الأدراج بجانبنا.

- صحيح، كانت هي أيضًا جميلة، أكثر من ذلك كانت تنطوي على غرابة بدت غير طبيعية، هل لاحظت أنت أيضًا ذلك؟ على أية حال، ذلك كل ما لفت انتباهي فيها.

- لك كامل الحرية أن تنظر إلى حيث تشاء، لا يهمني لا تلك الصور التي ترافقك أينما حللت وارتحلت، ولا نظراتك الشرهة لتلك الفتاة المسكينة.

تلفظت كارولين بعباراتها الأخيرة في شبه لا مبالاة كانت تخفي في الحقيقة اتهامات كثيرة وقاسية، لم تجرؤ ولم تجد مسوغا للإعلان عليها. تفهمت مشاعرها، ولكن من جهة أخرى فضلت الوضع كما هو عليه لتبقى علاقتنا علاقة عادية، لا تكتسي أي بعد عاطفي، لم أكن أرغب أن أتورط في قصة مَهما كان شكلها مع كارولين، ولم أرغب كذلك أن تتطور تلك العلاقة إلى اتجاهات معينة. كارولين بالنسبة لي مجرد صديقة نتبادل كلانا المتع الجسدية، لا أكثر ولا أقل. نمنا تلك الليلة بقليل من الحميمية، شعرت أن كارولين تشعر بغضب ما نحوي، غضب لم تفصح عنه أبدًا ولم تبديه أيضًا، ولكنني مع ذلك شعرت به مبطنا من خلال مسحة أو غلالة تغطي كل سلوكياتها تجاهي خلال المساء.

• • • •

## (١٥)

في وقت متأخر جدًا من الليل، أفقتُ على حركة ما في الحجرة المجاورة لحجرتنا. ارتديتُ ملابسي بسرعة وخرجتُ بهدوء لأستطلع الأمر. فتحت الباب، وجدت أمامي في صحن الضريح تلك الغجرية الفاتنة بلباس أبيض شفاف، بدت تحت نور القمر مثل ملاك بجلال وبهاء باهر، تمشي حافية القدمين، تنظر مشدوهة بعيون زائغة إلى الأعلى، نظراتها متوجهة نحو القمر الذي كان يملأ ضياءه كل صحن الضريح. خرجت من حجرتي، ثم اقتفيت خطاها الهادئة الرتيبة التي كانت تشبه خطوات فتاة حالمة لا تتواجد على مستوى الواقع المحسوس الذي نحياه. فتحت الفتاة باب الضريح، ثم خرجت، تبعتها محاذرا لكي لا أوقظ المقدم النائم كالعادة بجوار الباب مكوما على نفسه فوق ما يشبه السرير.

خارج الضريح كان ضوء القمر الفضي ينشر نوره الساحر على كل شيء، كانت الغجرية تنظر إلى أعلى باتجاه القمر وهي بعيدة عن نفسها، بعدا نائيا جدًا وكأنها كائن لا ينتمي لواقع البشر. تبعتها في واقع الأمر لكي أحاول حمايتها، خفت أن تتوجه نحو الغابة أو البحر وتصادف في طريقها الضبع أو أي حيوان آخر قد يتسبب في تعميق مأساتها وآلامها. بعد لحظة جلست الغجرية

على صخرة كبيرة بجوار جدار الضريح الشمالي المطل على البحر، جلست بدوري إلى جانبها. لم تكن تهتم بوجودي، كنت بالنسبة لها وكأنني غير موجود على جميع المستويات، الحسي منها وغير الحسي.

قالت وهي لا تزال تنظر إلى القمر بعيون زائغة منفلتة من الزمان والمكان: " كنت أحبه، وسأبقى أحبه إلى الأبد كما وعدته، ليس هو المذنب على كل حال، ليس حبيبي عزيز من يقترف مثل ذلك الغدر المشين في حقي أنا التي رفضت عدة خطاب وعرسان لأجله ولأجل حبنا. لم تكن تطاوعني نفسي أن أسبح ضد تيار عواطفي لأتزوج شخصًا لا تربطني به أي رابطة عاطفية. لكن عزيز فعل، ماذا جرى له، هل تعرض لعملية سحر أعمت بصره وبصيرته؟ أي لعنة سلطت عليه لكي يسقط في فخ الغدر الذي أشعر به قاتلا وجارحا إلى أقصى حدود الجرح في قلبي الذي لا يحمل له غير الحب الصادق الجميل. أتذكر كل أحلامنا كل آمالنا التي بنيناها خلال علاقة حبنا التي دامت لعدة سنوات، أتذكر مواعيد غرامنا في مثل هذا الوقت من الليل، تحت شجرة الصفصاف الكبيرة العملاقة المقابلة تمامًا لبيته الذي ينام فيه، ومنزلهم المقابل لمنزلنا. كم كانت مواعيد غرامنا بريئة وحميمية ببراءتها الجميلة. كم كنا نحضن بعضنا بود وبعشق لا متناه. كان الحب يوحد أرواحنا وحتى أجسادنا، كنا في الواقع كتلة واحدة، وكنا نحلم بتأسيس عش زوجية صغير، وننجب

أطفالا صغارا، ثلاثة أطفال أو أربعة. هكذا كنا نخطط ونحلم بحياة مفعمة بالسعادة والطمأنينة. لكن القدر اللعين تدخل في زمن مباغت ليغير كل شيء، وليقلب كل شيء على عقبه. لم يكلف نفسه حتى عناء إبلاغي خيانته وغدره، لا شك أن قوى جبارة منعته بالارتباط بي، عزيز حبيبي الذي أحببته حتى مستوى العبادة، لا يمكنه أن يغدر بي كما يفعل السفلة والأنذال من الرجال. انه من طينة أخرى، شاب رقيق القلب، كان يحبني ويهيم بي، تمامًا كما أحبه وأهيم به أنا للدرجة التي لا أستطيع وصفها. هل يمكن أن تتغير مشاعر شخص إلى النقيض في لحظة واحدة؟ هل يمكن أن ينقلب ولعه بي لاستخفاف بمشاعري وأحاسيسي بهذه الطريقة المشينة التي لا تليق به؟"

صمتت الفتاة الجميلة الغجرية لحظة طويلة نسبيا، وراحت تستجمع أنفاسها، كانت تتحدث بتلقائية مطلقة، كانت الكلمات تخرج من فمها بطلاقة وكأنها مسجلة في ذاكرة رقمية مبرمجة، أي ولع دفع هذه الحلوة أن تحمل في قلبها كل هذا الجمر الملتهب من شخص غدرها بدون ضمير، شخص حقير وخسيس؟ أي حب بهي عميق استبد بها تجاه رجل يبدو أنه كان غير آهل لحبها ليجعلها هكذا سجينة حالة غيبوبة تختلط بالحلم واليقظة والواقع المستحيل الهجين الذي تحياه؟ ظلت صامتة لبعض الوقت وهي لا تزال تنظر إلى القمر وتعلق عينيها الواسعتين عليه، كان وجهها البهي المدور الساحر يعكس في

بواطنه انكسارا لا يمكن للواحد أن يشعر به إلا إذا كان قريبًا جدًا منها، وشعرها المتموج الهائج يحيل توا إلى راقصات الفلامينكو الإسبانيات الحسناوات. إنها كائن يجمع كل فتنة وسحر العالم، يا لها من فتاة خلقت لتجمع بين أن تكون جميلة جدًا جدًا، وحزينة جدًا جدًا. ويا لها من مفارقة شبه مستحيلة ومتناقضة، أو منسجمة لحد ما، لأنني غالبًا ما أعتبر حزن المرأة الجميلة جمالا في حد ذاته أيضًا. لا مقارنة بين حزن كريمة المراكشية وهذه الغجرية الفاتنة، كريمة كانت حزينة جدًا، ولكن حزنها لم يتخط الحدود المعقولة للحزن، بينما غجريتي هذه تحمل في قلبها جروح كل عشاق كوكب الأرض، وحزن كل عشاق كوكب الأرض، ولا شك أنها في لحظة معينة ذرفت أيضًا دموع كل عشاق كوكب الأرض.

واصلت الحكي ووجنتها البهية ترتعش ارتعاشا مربكا زرع داخلي شجونا حزينة كدت أبكي لقسوة اللحظة وألمها، اكتشفت داخلي، في ذلك الوقت إنسانا هشا ومرهفا للحد الذي لم أكن أتصوره: " لا أستطيع رواية ما حدث في الأخير، لأنني ببساطة لا أصدق، كيف أصدق فعل الغدر الذي يبدو أنه صدر منه، من حبيبي. هل هكذا بكل ببساطة يغدر العشاق بعضهم بعضا؟ لا أعرف، لأنني لم أعشق قبل أبدًا، لم أخض مثل تلك التجربة في حياتي مسبقًا أبدًا، كان عزيز هو عشقي الأول وسيبقى مع كل شيء عشقي الدائم والأبدي والوحيد. التحول بدأ حين وفدت إلى

منزلهم أسرة تنتمي من بعيد أو قريب إلى عائلتهم، وكانت ضمن الأسرة فتاة جميلة، لكنها لم تكن أجمل مني، ولا أحلى مني على أية حال. شعرت ببعض الغيرة الطبيعية في مثل تلك المواقف، غيرة عادية لا أكثر. اتصلت به عبر أختي الصغيرة لنرتب موعدا كما اعتدنا دائمًا، لكنه تحجج بعدة حجج بدت لي حينذاك مقنعة، أو أنني حاولت أن أقنع نفسي بأنها حجج مقنعة. حاولت مرة ثانية وثالثة،.. بدون جدوى، حينذاك بدأت أشك، لكنني لم أفقد الأمل، ببساطة لأنني أحبه. في الوقت نفسه، بدأت أسمع بعض الوشوشات بأن عزيز سيتزوج من تلك الفتاة التي وفدت من المدينة إلى منزلهم. لم أصدق طبعًا، كيف لي أن أصدق؟! هل حبيبي بهذه الخسة والدناءة، بحيث يدوس في لحظة واحدة على كل الحب الذي بنيناه طيلة هذه السنين الطويلة من أجل أن يتزوج من فتاة لم يعرفها إلا لمدة أسبوع واحد؟!

تكاثر الهمس حول الموضوع لكنني لم أكن أصدق مطلقًا، كانت لدي ثقة عمياء في عزيز وفي إخلاصه وحبه لي، هل ينهار كل ذلك الإخلاص والحب هكذا في لحظة واحدة؟ بدا لي الأمر سخيفا ولا يحتاج لأن أشغل فكري به، مع أن كل المؤشرات كانت توحي بحقيقة الأمر، بما في ذلك تجاهله لي خلال كل الأسبوع. رحلت تلك الفتاة وأسرتها إلى المدينة، حينذاك شعرت أن الأمور الآن ستنجلي، وستبين الحقيقة. دست على كرامتي مرة

أخرى وطلبت منه موعدا، لكنه لم يستجب، هناك فقط بدأت أشك شكا حقيقيا، اعتراني إحساس بأن تغيرا ما يطرأ.

في الأخير حدث الأمر الذي حسم كل شيء، أصبح أمر زواج عزيز من تلك الفتاة أمرا واقعا، وكنت بنفسي أعاين التجهيز لذلك العرس المشؤوم. نصبت الخيمة في باحة دار العريس، وجاءت سيارة الشحن محملة بمؤونة العرس، وكانت الحركة دءوبة في منزل عزيز استعدادا للعرس القريب. خلال ذلك كنت أنظر مشدوهة وغير مصدقة، هل هذا الذي يحدث حقيقة أم مجرد حلم كابوس سأستفيق بعده وأنا ألهث حامدة الله انه لم يكن إلا حلما مزعجا لا أكثر. لا، الأمر لم يكن حلما،.. كان حقيقة واقعة، حقيقة مرة وقاسية. في ليلة العرس ظللت أسمع قرع الطبول والمزامير ترن في أذني وهي تزرع داخلي غابة من المسامير والأشواك. يا له من عذاب عانيته تلك الليلة، يا له من ألم استبد بي وجعلني كتلة كاملة من المعاناة التي لا نهاية لها، يا له من ماء ناري حارق كان يفرغ على كل أحاسيسي ومشاعري البريئة. صمتت أخيرًا تلك الطبول والمزامير، لكن لم تصمت حدة العذاب التي اجتاحت كل أعماقي وحولتني إلى وحدة موحدة من الجمر المشتعل. لقد كانت ليلة الدخلة، دخلة العريسين، كنت أفكر في لحظاتهما السعيدة، تلك اللحظات التي سرقت مني، اختطفها الغدر بلا رحمة ليسلمها لفتاة لا علاقة لها لا بعزيز ولا بالحب. قررت حينذاك أن أقوم بواجبي كامرأة

أحبت إلى حد العبادة، وعشقت عشقا طاهرا نقيا وجميلا. ألم يكن من اللياقة إهداء العريس هدية يستفيق عليها حينما يفتح نافذة بيته المطلة على الشجرة التي كانت عشا دافئا لمواعيدنا الغرامية الجميلة؟ كنت أريد أن أعلق له في أحد أغصانها شيئًا يفتح عليه عينيه بمجرد ما أن يفتح النافذة في الصباح. تسللت مع الفجر من فراشي، أخذت فستان الزفاف الأبيض الذي كان قد أهداني إياه في لحظة حب صادقة، وخرجت من المنزل بصمت وخطوت باتجاه شجرة الصفصاف حيث علقت فستان الزفاف الأبيض على أحد الأغصان، ثم جرحت بشفرة حادة جرحا صغيرا في ساعدي الأيسر، غمست إصبعي في الجرح وكتبت له بالدم على لباس الزفاف الأبيض: " شكرا حبيبي، لك هذه الهدية مقابل الهدية التي أهديتني، أتمنى لك السعادة الدائمة". بتلك الخطوة الأخيرة شعرت بارتياح وسكينة وطمأنينة غامرة، وبذلك أنهيت كل واجباتي تجاه الشخص الذي أحببته كما لم أحب شيئًا آخر مثله ".

بدأ ضياء خفيف ينبلج من وراء البحر، إنه غسق الفجر، أخذت يد الغجرية الشقية التي تعيش خارج ذاتها، قدتها ونحن صامتان إلى داخل صحن الضريح، ثم تابعتها بنظري حتى ولجت حجرتها بنفس الإجلال والهدوء الذي يكتنفها. انسللت بدوري إلى حجرتي، واندسست تحت الفراش بجانب كارولين الذي يتسم

نومها دائمًا بالاستغراق العميق الذي قد لا يقطعه إلا فرقعة القنابل.

في الصباح وبعد أن استيقظت متأخرًا من النوم، وجدت كارولين قد استحمت وتزينت وارتدت ملابس جميلة تليق بامرأة من بلدة شاموني بجبال الألب الفرنسية الشهيرة، وتدرس الأدب العصري بجامعة السوربون. امرأة الثلج والبياض والأشجار العملاقة الخضراء، أشجار تلال وجبال وسهول فرنسا البديعة.

خرجت من الفراش وحلقت ذقني، ثم أخذت دشا منعشا دافئا، ثم تناولت بعده كأس شاي مع بعض الجبن المحلي والزيتون. قبلت كارولين وضممتها إليَّ في محاولة لكسر الجمود الذي طغى مؤخرا على علاقتنا. ابتسمت لي بود وشعرت بدفء جسدها وحنوها ونحن نحتك ببعضنا، شممت رائحة عطرها المميز. قالت لي وهي مبتهجة:

- هل تعرف يا عمر، لقد أعجبني المهرجان أمس، لن أذهب اليوم للتشمس، أودُّ لو نذهب مرة أخرى إلى المهرجان.
- طبعًا يا صغيرتي، إذا كنت تحبين أن نذهب إلى هناك فلا يسعني إلا الموافقة.

ضحكت بحبور حين قلت لها ذلك، ثم طبعت على وجهي قبلة حارة وراحت تتقافز كفراشة تتهيأ لرحلة النزول إلى أسفل التل. في الأخير نزلنا الأدراج أنا وكارولين مع الأفواج التي تقصد

المهرجان، تذكرت الغجرية الفاتنة، ومأساتها التي حولتها إلى كائن لا يعيش الواقع إلا على مستوى الجسد. كان الجو معتدلا كما كان طيلة الأسبوع، اندمجنا فجأة داخل السوق والباحة والحواة والمهرجون وبائعو التحف المزيفة وفقهاء الأرصفة وقارئو الطالع. اشتريت مزهرية صغيرة منقوشة بفسيفساء مغربية أصيلة، كنت أدرك أن كريمة مغرمة بذلك النوع من المزهريات. بعد تجوال وسط المهرجان والباحة، وبعد أن تفرجنا على كل شيء غريب وعجيب، فجأة لمحت من بعيد ذلك الرجل الطوارقي الأسمر الذي يتلفع بعمامة سوداء، ويرتدي عباءة زرقاء على شاكلة سكان منطقة الطوارق. بدا أيضًا أنه رآنا. لاحظت أنه بدأ باستمرار يقترب منا، كارولين لم تنتبه للأمر، كانت مشدوهة للمشاهد الغرائبية التي لم تتعود عليها. تواصلت مراقبة الرجل الطوارقي لنا، شعرت أن الرجل بدأ يتجاوز حدود اللياقة، ولكي أفهمه بأنني لم أعد أجد الأمر لطيفا، رحت بدوري أنظر إلى الطوارقي لأفهمه بأن تصرفه يفتقد للباقة المطلوبة. لكنني عكس ما توقعت، تقدم الطوارقي نحوي بخفر واحتشام واضحين، وأشار لي بأنه يريد أن يتحدث إلي. تركت كارولين تتأمل بعض الأقمشة المطرزة يدويا، واقتربت منه. لم أدر متى بدأ بالتحديد يتحدث، ولكنني أعتقد أن الرجل بدأ يروي القصة حتى قبل أن أخطو باتجاهه، وبذلك لم أستطع فهم أي شيء مما يقول، وكان يتحتم عليه إعادة القصة مرة أخرى ومن بدايتها. بعدما استمعت

إليه جيدًا، عدت إلى كارولين بأحاسيس متضاربة وأفكار ومخاوف مختلفة ومفزعة تتوزعني. إن الرجل الملثم يبدو في الواقع شخصًا طيبا وودودًا، وفي الآن ذاته مبهما ومثيرا للشك والريبة. كان يريد كأسًا من بول أو دم كارولين! يا للكارثة، أي جنون استبد بالرجل! إن مسألة كأس البول التي طرحها يمكن تفهمها بالرغم من غرابتها، لكن قضية كأس الدم فهي تثير لدي أكثر من سؤال مقلق، إنها شيء مثير وينطوي على درجة عالية من الخطورة. ليس ذلك فقط، بل أن الطوارقي الملثم يشترط أن يكون كأس البول أو الدم المفترض ساخنا فوارا، لقد كنت مستعدا أن أقنع كارولين بتقديم كأس من بولها الساخن، ولكن أي ضمانات أمتلكها حول نوايا الطوارقي الحقيقية؟ ثم من قال بأنه سيكتفي بكأس البول فقط؟ لم أخبر كارولين بكل الحقيقة، قلت لها ضاحكا وعلى سبيل المزاح أن الرجل يريد كأسًا مملوءا ببولها، ويجب أن يكون ساخنا، أي بمعنى أن تبوله على الفور.

نظرت كارولين إليَّ مستغربة، وقالت باندهاش بين:

- ماذا يريد أن يفعل به؟

أجبت جوابًا بصيغة طريفة حتى لا أدخل الروع إلى قلبها:

- قال أنه يريده لأغراض استشفائية محضة ربما، أو ربما أراد أن يشمه، أو يدهن به عضوًا ما من أعضائه.

بدت كارولين في ظاهر الأمر وكأنها لم تهتم بالموضوع، اعتقدَت أن الأمر يتعلق بمزحة، حتى حين ظل الطوارقي الملثم يلاحقنا من بعيد، فقد تجاهلت واستطاعت أن تخفي تخوفاتها إذا كانت لديها تخوفات حقا. لو كنت أخبرتها عن كأس الدم فإن الأمر كان سيصبح بلا ريب مختلفًا تمامًا، بل وكارثيا أيضًا بالنسبة لها، وهو الأمر الذي كان يقض مضجعي. استمر الرجل يراقبنا من بعيد، حتى حين قفلنا راجعين إلى الضريح، وحتى ونحن نصعد الأدراج الملولبة، فقد كان لا يزال يتبعنا محافظا على المسافة نفسها التي تفصله عنا، لم يحاول أن يقترب أكثر. لاشك أنه كان يريد معرفة مكان إقامتنا. فكرت قبل أن نصعد الأدراج بأن نقوم بحركة تمويهية، كأن نلتف مثلا حول الجبل لنصعد إلى الضريح من الجهة الخلفية، وبالتالي نفوت على الطوارقي فرصة ملاحقتنا. لكنني قررت ألا نفعل، لم أجد في الواقع التبرير الكافي لتوضيح الأمر لكارولين. فكرت أنني ربما سأزيد من مخاوفها وأخلق لديها حينذاك هواجس حقيقية لا داعي لها، ولا داعي لأشاركها هواجسي وقلقي الحقيقي.

فكرت أن أخبر مقدم الضريح بالنازلة، وما إذا كان سينصح بشيء، لكن من كان يستطيع ذلك اليوم واللامة في أوجها وذروتها أن يتحدث إلى المقدم، أو حتى أن يجده، فهو إما غائب وغير موجود، أو عابر مسرع. وإذا نودي عليه فإنه يشير بيده، ويعد بأن يرجع حالاً، لكنه لن يفعل طبعًا، سيكون في خدمة القيم

سيد الضريح الكبير، وسيكلف بمهام مختلفة ومتعددة، وسيحمل على عاتقه النهوض بكل ما يخص أمور التنظيم، وسينسق مع أعوانه المتطوعين من المريدين في كل ما يتعلق بذلك اليوم من استقبال للهدايا ومن مأكل ومشرب وتنظيف وغير ذلك من الأمور الكثيرة المتنوعة.

بعد منتصف النهار كان الضريح أكثر اكتظاظا مما كان عليه في الصباح. صار هناك ضجيج وضوضاء، ربما يتنافيان مع الأجواء الدينية والروحية للمكان. شعرت بالتعب، وشعرت بنوع من السأم، كنت أرغب في الواقع أن أتمشى قليلاً جنب شاطئ البحر كما يحلو لي أن أفعل لأتنفس هواء نقيا منعشا، ولكن في المقابل لم أشأ أن أترك كارولين لوحدها، خصوصًا بعد الذي سمعته من الطوارقي الملثم وحديثه عن كأس الدم الذي يبعث الرهبة والفزع في النفس.

تمددت كارولين على الفراش، راحت مرة أخرى تدون في كراس المذكرات. أما أنا وكالعادة حين لا أجد ما أفعله، فإنني آخذ الكتاب ذاته الذي ما فتأت أطالع فيه دون أن أفعل ذلك حقيقة، غالبًا ما يشرد ذهني إلى باريس حيث صور ريم، والزخم المتخم بالجمال الذي تؤثث به حياتي هناك، ثم كريمة التي لا أعرف ما إذا كانت قد سلمت نفسها لبيرنارد رغم تصميمها على العكس، وان كنت أشك أنها ستكون فعلت. هكذا كنت أجد ذهني يسافر بعيدا، إلى حيث حياتي التي أصبحت حقيقية في برد

باريس وعتمتها، ووجوه عمال المطعم الإيطالي وسخافات باتريك السمجة الغبية، وبكل شيء هناك في ذلك الجزء من القارة الأوروبية. شعرت بالنعاس يهاجم أجفاني بفعل النسمات الرطبة البحرية التي تنفذ من الكوة، وضعت الكتاب جانبا، ثم استلقيت على الفراش. وبعد لحظات كنت قد أغفيت، رأيت الطوارقي الملثم يتسلل من الباب ويحمل في يده خنجرا حادا، وفي اليد الأخرى قارورة كبيرة من زجاج البلور الشفاف. في تلك الأثناء كانت كارولين تغط في نوم عميق، اقترب منها الرجل وجثا على ركبتيه بمحاذاة رأسها. كان مختلفًا عما كان عليه في الصباح أسفل الجبل. بدا بشعا، وعيناه غريبتان وتقدحان بالشرر، لحيته رفيعة وطويلة، وأذناه كبيرتين، كان يشبه تمامًا صورة الشيطان في بعض الكتب التراثية القديمة. أخذ يد كارولين، ثم جز بخنجره شريانا من معصمها، وراح الدم يقطر في القارورة الزجاجية. كانت كارولين هادئة ومستسلمة، وكأنها تحت تأثير السحر. بعدما أفرغ الرجل جسم كارولين كليا من الدم، أخذ القارورة الزجاجية، ثم غادر بهدوء. فتحول لون بشرة كارولين إلى أصفر باهت، ثم أزرق، فأزرق داكن، وبدأ جسمها يرتجف... صرختُ مذعورًا وناديت بأعلى صوتي:

- كارولين..

نهضت واقفًا مفزوعًا والعرق يتصبب من جبيني.

ردت كارولين بجزع:

- هل كل شيء على ما يرام يا عمر؟

- أوه،.. إنه حلم، حلم كابوس، لقد رأيت،..

- ماذا رأيت؟

- لا،.. لا. لم أر شيئًا، كان حلمًا فقط، حلمًا مبهمًا وغريبًا، حلمًا ضبابيًا لا يمكن وصفه.

نهضت وغادرت الحجرة، تابعتني كارولين بنظرات ملؤها الاستغراب والحيرة. كانت الساعة آنذاك قد تجاوزت بقليل الزوال، خفت الحركة بصحن الضريح نسبيا، فيما ظلت الحركة دائبة أسفل الجبل. بمصادفة قد تعادل الحصول على جائزة المليون، التقيت المقدم الذي كان عائدا للتو مهرولا من جهة ما، استوقفته بكلتي يدي:

- أريد أن أستشيرك في أمر خطير.

- قل بسرعة، ليس لدي وقت كثير لأضيعه.

كان المقدم قد توقف عن الهرولة أخيرًا، لم أعرف كيف أبدًا معه الموضوع:

- هناك رجل طوارقي يقول إنه جاء من صحراء بعيدة جدًا، شاهد كارولين حين كنا نتجول أسفل الجبل ونتفرج على اللامة، طلب شيئًا غريبا. قال أنه يعاني من مرض ما، وأنه لا يستطيع الزواج لعلة لا يريد الإفصاح عنها. وقد زار فقهاء وحكماء وعطارين وسحرة، لكن بدون جدوى. إلى أن أشار الناس عليه بولي ناسك اسمه الهاجر، نسبة إلى هجرته دنيا الناس

واعتكافه بكهف خال ومنعزل. ولي اللّه الهاجر أمره أمرا مبهما وغامضا " حج إلى آخر البر والبحر، هناك المفتاح ، البينة امرأة أعجمية بشعر كشعر الذرة، كأس من بول أو دم، حج إلى آخر بلاد البرية، هناك مفتاحك ".

استغلق على الرجل كلام الولي الهاجر، ولم يفهم مغزاه. ظل يردد العبارة لأمد طويل. سأل الناس والعلماء والعارفون والفقهاء، ولم يفده أحد بشيء. إلى أن كاد يتسرب اليأس إلى نفسه، وبينما كان ذات مرة نائما، بعد صلاة العصر تحت شجرة تين بوسط الجامع، إذ به يرى رؤيا عجيبة فكت لغز أمر الولي الهاجر. كان المنادي في المنام يخاطبه قائلا " قم على التو، توضأ وصلي صلاة السفر. لا تأخذ متاعا، ولا تتزود بمؤونة، ولا تودع أحدا. أما الوجهة فإلى المغرب، هناك سيدي مفتاح، يحج الناس إليه كل عام، مائة يوم قبل الحصاد. أما الأعجمية فهي امرأة شقراء من بلاد الفرنجة، كأس من بولها أو من دمها الفوار، فيكتب لك الشفاء والتداوي. انهض وتوكل على اللّه، انهض وتوكل على اللّه ". يقول الرجل أنه نهض من النوم فزعًا مرعوبًا، توضأ على الفور ثم صلى صلاة السفر، وبدأ الرحلة التي استغرقت سبعة أشهر بالتمام والكمال، مشيا على الأقدام، بدون راحلة ولا زاد ولا أنيس سفر، إلى أن وصل أمس.

- وماذا يريد الآن بالضبط؟

تساءل المقدم باستغراب، فأجبت:

- طلب غريب، يريد كأسًا من دم كارولين أو من بولها، فبماذا تشير؟

- إنه طلب مخيف، سأحيلك على القيم، لاشك سيجد حلا للأمر.

- هل يمكن أن ترتب لي موعدا قريبًا مع سماحته؟ إن الأمر غير قابل للتأخير كما ترى.

- لديه التزامات متعددة في هذه الفترة كما تعلم، ولكن سأحاول.

لم أدر ما إذا كان المقدم سيرتِّب لي الموعد ذلك المساء، وإذا لم يفعل فسأحاول شخصيا بطريقة ما الوصول إلى القيم. لن أستطيع الانتظار أكثر، مسألة كأس الدم تثير الرعب داخلي، لا يمكنني أن أتصور ما قد يقدم عليه ذلك المجنون في سبيل الحصول على ما سافر من أجله، كل تلك المدة وكل ذلك الزمن الطويل. ولعل الحلم الذي عرض لي في المنام، قد يكون السيناريو الذي لا ينبغي استبعاده بتاتًا. اشتريت عبوة ماء معدني من الكشك الملحق بالضريح، وعدت مجددًا إلى الحجرة. كانت كارولين لا تزال تكتب في دفتر المذكرات، بعد نصف ساعة سمعت قرعًا خفيفًا على الباب، إنه أحد الأعوان:

- القيم يطلبك للمثول بين يديه.

تصرف المقدم في الواقع بأسرع مما توقعت. قادني العون إلى مقصورة في الصحن الثاني للضريح، وانصرف عند الباب. وبينما كنت أهم بقرع الباب استئذانا في الدخول، سمعت صوت المقدم

يقول: (أدخل).. خطوت إلى داخل المقصورة الواسعة المزدانة بالسجاد البلدي البديع المنقوش بنقوش أصيلة والفسيفساء الملونة الباهرة. نفذت على الفور إلى أنفي روائح الكافور والمسك والعنبر. من خلال الضباب الكثيف الذي ينثره موقد البخور، رأيت في صدر المقصورة القيم بلحيته الكثة الطويلة، وهيئته المهيبة. على يمينه المقدم، بينما تقريبًا تحت قدمي القيم رأيت الطوارقي الملثم جاثيًا ككلب، صاغرًا ذليلاً بفعل الروع الذي أحسَّ به بحضرة القيم. ألقيت تحية السلام، ووقفت على بعد حوالي ثلاثة أمتار، خاطبني القيم قائلاً:

- أبلغنا المقدم بقصتك مع هذا الرجل، وقد أحضرناه ليمثل أمامنا، وبعد أن استوضحنا الأمر منه، تبين أنه ربما يكون صادقا فيما يقول، عليك أن تحضر كأسًا من بول السيدة، وعلى الرجل أن يغادر فورًا بعد حصوله على مبتغاه.

كان كلام القيم ينطوي على أمر واضح لا ينبغي عصيانه، لا ضير طبعًا في أن أحضر كأس البول، ولكن كيف أقنع كارولين، ثم ماذا لو لم يتوفر لديها المخزون الكافي الآن، وفي هذا الوقت بالذات، لإدرار كأس كامل من البول؟ قلت لكارولين محاولا أن أجد مقدمة مقبولة ومقنعة لعقل وتفكير كارولين الغربية الطبع والطباع:

- تعرفين أن الناس هنا لديها إيمان عميق بالظواهر الغيبية وبالخرافات، وهناك من لديهم معتقدات عجيبة، كمثل ذلك

الملثم الذي صادفناه أسفل الجبل صباح اليوم، إنه لا يزال يصر على أنه يريد كأسًا من بولك.

- لماذا بولي أنا بالضبط؟

- يقول بأنه يعاني من مرض عويص، ويقول بأن أحدهم أشار عليه ببول امرأة أوروبية شقراء ليستخدمه في الاستشفاء، طبعًا لم يجد من امرأة أوروبية شقراء هنا إلا أنت، وبالتالي هي فرصته ولا يريد أن يفلتها، لذلك فهو يلح، إنه في هذه الأثناء مع القيم، وقد ناشدنا هذا الأخير بأن نقدم العون إذا كنا نستطيع ذلك.

ابتسمت كارولين، ابتسامة تحمل دلالات متعددة وغامضة أيضًا، لكنها بدت متفهمة، أخذت كأسًا من على الكنبة وغادرت باتجاه المرحاض، بعد هنيهة عادت وفي يدها الكأس مملوء بالبول. تناولته منها، كان لا يزال ساخنًا. بالرغم من رائحته ومنظره المقرف، فقد مشيت به إلى أن ولجت غرفة القيم الذي أشار إلى الرجل الطوارقي، فقام هذا الأخير خافضًا جناح الذل، يكاد يتجرجر على الأرض، لمعت عينيه واغرورقت بدموع حارة انهمرت على خديه، طفح وجهه بفرح متألق، مدَّ يديه الاثنتين وانتزع الكأس مني بقوة، كأنه لا يصدق ظفره أخيرًا بالأمر الذي سافر من أجله شهورا طويلة، قاطعا الصحاري والفيافي والقفار. تشمم البول أولا، ثم قال وكأنه يحدث نفسه:

- إنه بول أنثى.. نعم أستطيع معرفة ذلك، تمامًا كما أستطيع التفريق بسهولة بين بول ناقة وجمل.

نظر إلى كأس البول في يديه المرتعشتين، لاحت على محياه ابتسامة مشرقة. نظر إليَّ ثم إلى المقدم فالقيم، وعاد وركز نظره من جديد على الكأس، ثم راح يعب محتواه بمتعة ماحقة، وبشراسة مجنونة لا تصدق. حين صب في جوفه كل البول، أخذ يلعق بلسانه الكأس من الداخل لعقا شديدًا ومتواصلا، كنا ننظر إليه مشدوهين. قبل أن نفيق من حالة الذهول، كان الطوارقي الملثم قد غادر المقصورة وانصرف،.. انصرف بدون أن ننتبه إليه تقريبًا وكأنه لم يكن.

روى بعض المريدين أنهم رأوه يخرج راكضًا من الضريح، ويشد بكلتي يديه على رأسه، ويجهش بنحيب مسترسل طويل. نزل الأدراج الأفعوانية الملتفة حول الجبل على تلك الحال، ثم واصل الركض في السهل المنبسط دون أن يتوقف عن النحيب. إلى أن اختفى في الأفق البعيد، البعيد جدًا، ولم يشاهده أحد بعد ذلك أبدًا.

• • • •

## (١٦)

وضعت كارولين في القفة التي اقتنتها من سوق مهرجان اللامة قبل أمس، ملاءة لتتمدد عليها، ومرهما تدهن به جسدها ليقيها أشعة الشمس التي قد تضر جلدها المرهف الحساس لكل شيء. ثم أعدت لنفسها كاسكروتا، واقتنت من كشك الضريح عبوة ماء معدني بارد، ثم توجهنا معًا إلى خارج الضريح. هي ذهبت إلى مكانها الأثير بجنب النبع النازل خريره الساحر من بين صخور الوادي، حيث يروقها سماع الخرير وشقشقة العصافير وارتعاش حفيف أوراق النباتات التي تدغدغ مشاعرها على حسب قولها. بينما توجهت أنا إلى ضفة البحر، كما أفضل عادة، البحر بالنسبة لي عنصر إبهار وجذب، إنه ملكوت مفعم بالجمال والحلم. حينما أقف أمامه أشعر بهيبة الماء وجبروته اللامحدود، الماء في أصله الجنيني قبل أن يخضع لأي تأثير بأي شكل من الأشكال، الماء المفرغ من طعمه ورائحته، إلا من الملح واللون السماوي.

من بعيد لاحظت كلب قويدر يحوم بجانب البحر، ياه، هاهو ينفلت من شبه المستحيل ليعود إلى البحر، إنه يشبه سيده، لم يكن ليطيب له البقاء إلا بجوار هذا الأزرق الجميل الرهيب الذي اختطف قويدر صاحبه الوفي، لعله كان يبحث بدون جدوى عن سيده ورفيقه الدائم، أو لعله تشمم رائحة جثته التي كانت

مسجاة قريبًا من المكان قبل أربعة أيام، أو ربما ببساطة يبحث عن قوت يسد به رمقه ويشبع به جوعه الذي يلوي أمعاءه. شغلني احتمال أن يكون جائعا، لذلك قصدت صيادا بعيدًا واقتنيت منه بعض السمكات وتوجهت بها إلى كلب قويدر. غير أن الكلب كان يفر من وجهي بمجرد اقترابي منه، لم أستطع أن أنل ثقته بالرغم من أنني كنت ألوح له بالسمكات لأغريه بالاقتراب، في الأخير وضعت له السمكات فوق صخرة صغيرة وابتعدت. اقترب بتوجس من السمك، وراح يلتهمه بشراهة. بدا وكأني اكتسبت بعض ثقته، لأنه بقي ملازما لي بدون أن يقترب مني بمسافة كبيرة، كما أنه ظل يلهو ويتقافز حولي في حالة طمأنينة جعلتني أعتقد بأنه بدأ يستأنس بي. تابعت المشي بجوار الشاطئ، وصلت إلى مكان موحش عالي الصخور، ولكنه جميل ورائع، كنت أدرك أن كارولين سيعجبها المشهد لو رأته، وكانت بالتأكيد ستلتقط له العديد من الصور. حاولت شق طريقي بين الصخور الناتئة الصعبة التي تراكمت بينها أعشاب البحر والزبد، وبعض الأحياء المائية الغريبة كالسلطعون وسرطانات البحر. فجأة رأيت الكلب يرنو برأسه وأذنيه المستنفرتين إلى فوق، لعله أحس بشيء غير طبيعي، لعله شم أمرا ما من مكان بعيد. رحت بدوري أركز انتباهي وسمعي للجهة التي ينظر إليها الكلب، سرعان ما تناهى إلى سمعي صراخ نسوي يمزق بخفوت المجال المحيط بي، صراخ يأتي صداه من بعيد. لم أستطع تحديد هوية

ذلك الصراخ ولا صاحبته، لكنني سرعان ما تذكرت كارولين. انتفضت بفزع ورحت أتسلق الصخور بقوة خارقة ومجنونة، بذلت جهدا مضنيا لكي أخرج من تحت الصخور إلى فوقها. تساءلت بارتياع: يا الهي ماذا يحدث؟ لعلها كارولين، ولعلها تكون في ورطة ما، لم أقدر على تصديق تخميني. ما سبب صراخها وعويلها المجروح؟ حينما وصلت إلى أعلى الصخور، واصلت الركض باتجاه مكان كارولين التي كان صراخها قد توقف، وفي نفس الوقت شاهدت المعتوه زوباي يهرب بكل ما أوتي من سرعة من الجهة الأخرى. بعد وقت قصير كنت قد وصلت إلى كارولين التي وجدتها في حالة قصوى من الخوف والهلع، وجسدها يرتعش ارتعاشا كأنه عصفور صغير بللته الأمطار. رباه ماذا فعل بها ذلك المعتوه؟ كانت تغطي جسدها بملاءتها، بينما اصفرت سحنتها وانتابها رعب وهلع استبد بكل كيانها. ضممتها إليَّ بحنو، وألصقت جسدها بجسدي، كنت أودُّ أن أجعلها نفسيا تلمس وجودي وتحس به، لأنها كانت في حالة صدمة حادة، ثم قلت لها:

- هل أصابك بمكروه ذلك المجنون؟

أجابت بكلمات متقطعة، تكاد تكون غير مفهومة:

- لا، حاول لكنني قاومته.

ساعدتها على ارتداء ملابسها، خلال ذلك لاحظت خدوشًا صغيرة كانت من نتاج عراكها ودفاعها المستميت عن نفسها. ظلت فزعة وجسدها يرتعش ارتعاشًا كبيرًا، بالكاد استطعت أن أجعلها تقوم

لتقف على رجليها بعد أن كنت قد جمعت لها حاجياتها في القفة، أسندت ذراعها على كتفي واتجهت بها نحو الضريح. بعد وقت قصير من ذلك، حضر خالد في حالة توتر بينة، وجدني جالسا بالصحن لأن كارولين كانت محطمة الأعصاب وفضلت البقاء لوحدها في الحجرة. كان وجه خالد ينم عن صدمة حقيقية وصادقة لم أتوقعها، سألني بعد أن صافحني بيد مرتعشة:

- هل صحيح ما سمعت؟

- نعم، لقد اعتدى عليها زوباي بينما كانت بجنب النبع تتشمس كما العادة.

- يا الهي، شيء مروع ولا يصدق. أشعر بأننا قصّرنا في حمايتها، لقد أعطيناكم انطباعًا بأنه شخص مسالم، بينما في واقع الأمر لا يمكنك أن تثق في شخص معتوه أبدًا، ما كان ينبغي أن نعطي ضمانًا حول إنسان بمثل عته وجنون زوباي.

- لا أحد كان يعرف، أحيانًا تحدث أشياء رغم الاحتياطات أو بدونها، لذلك لا أعتبر أن جهة ما قصرت في الموضوع. ثم أننا لا يجب أن نلقي اللائمة على أحد، ما وقع قد وقع، وهو أمر لم يكن بإمكاننا أن نتفاداه اللهم لو كانت كارولين اختارت ألا تتشمس بتلك الطريقة أمام رجل مجنون ومكبوت العقل والغرائز.

ماذا كنت أقول؟ هل كنت أحمل كارولين البعض مما حصل لها؟ نعم ذلك ما كنت أرمي إليه بطريقة غير واعية، لم يكن ينبغي لي في الواقع أن أفعل ذلك وهي في عز مأساتها.

قال خالد متسائلاً بتردد واضح:

- ولكن قل لي هل؟... أقصد هل؟.... أريد أن أقول هل؟..

- لا ، لحسن الحظ، لقد قاومته بشدة ولم ينجح إلا في إدخال الرعب إلى نفسها.

- حسنًا هذا جيد على الأقل، ولكن كيف حال كارولين الآن؟

- نفسيتها جد متدهورة، وهذا متوقع طبعًا.

- هل أستطيع أن أتحدث إليها قليلا؟

- طبعًا ، إنها في الحجرة.

- أريد أن أعبِّر عن تعاطفي معها.

- ستسعد كارولين بمبادرتك.

بعد قليل خرج خالد من عند كارولين، قال لي، وبدا بدوره محطما ومتأثرا تأثيرًا شديدًا بمصاب كارولين:

- إنها في حالة نفسية متدهورة جدًا، لقد طلبت مني أن أذهب للمدينة لأحجز في أول طائرة متوجهة إلى باريس غدا، لا ترغب في المكوث هنا أكثر من هذه الليلة.. لست متأكدا ما إذا كنت سأستطيع العثور على التذاكر خلال هذا الوقت القصير، ولكنني سأبذل جهدي كله.

- حسنًا، فلتكن مشيئتها، أرجو أن يحالفك الحظ وتعثر على تذكرتي سفر، أشكرك جدًا.

ودَّعني خالد، وانصرف مسرعًا ليلحق بالمواصلات التي تؤدي إلى البلدة القريبة. إنه شخص يتمتع بروح من التعاون قد لا يتحلى بها الكثيرون. رحت في صحن الضريح أتأمل طيور السنونو الحزينة التي تحوم حول كل شيء، وأنظر ساهما إلى وريقات الأشجار المتطايرة، وأسمع صوت مقرئ للقرآن يتلو آيات بينات بصوت شجي حزين. ياله من حزن يلف المكان، حزن أشعره داخلي يعتصر فؤادي ويكاد يجعل عيناي تبكيان. كان الوقت يتجه نحو الغروب، وكانت الشمس الحمراء البرتقالية التي تظهر خلف أشجار الأرز النابتة حول الضريح تضفي إحساسًا قاهرًا بالعزلة في النفس. غروب الشمس العنيف في دلالاته اللحظية، يجعلني أتذكر أيامي الحزينة في باريس، تسكعي فيها شبه مشرد، حالة الضياع التي عانيتها في عز وجودي في عاصمة الدنيا مدينة الجن والملائكة. مدينة الاسم الشاعري، المدينة التي لم أر فيها إلا الكثير من الجن، وقليلاً جدًا من الملائكة.

كان الوقت وقت غروب حيث سقوط الشمس في البحر، لكن تلك اللحظة كانت بحق لحظة السقوط في الشمس قبل أن تكون لحظة سقوط الشمس في الماء، ماء البحر القريب الذي سيلتهم الشمس آخر الأمر، لتلتهمه هي غدًا وتفضحه في الصباح،

وتعريه في لعبة كونية لتبادل الأدوار متقنة ومرسومة بدقة شديدة.

مع وقت العشاء تقريبًا جاء خالد، كنت لا أزال في صحن الضريح، مستسلما لحالة سكون رهيب يسكنني، سلمني تذكرتي السفر على متن الخطوط المغربية، ثم غادر بعد أن شرح لي بأنه اتفق مع سائق سيارة أجرة سيأتي بسيارته في حدود الساعة التاسعة صباحًا أسفل التل، ولن نضطر للمشي كل تلك المسافة الطويلة كما فعلنا المرة السابقة. قال لي بأنه سيكون متواجدا ليودعنا لحظة مغادرتنا للضريح. حينما حل الليل دخلت الحجرة المفعمة بالحزن والكآبة، كانت كارولين متمددة على الفراش، بدا لي أنها أخذت حماما ولبست منامتها.

اقتربت منها، قلت لها بحنان صادق خرج من ينابيع قلبي البعيدة:

- هل كل شيء على أحسن ما يرام يا عزيزتي الصغيرة كارولين؟

طوقتني بذراعيها وراحت تبكي، كنت أحاول أن أهدئها وألثمها على وجهها، وفي الوقت نفسه أمسح دموعها التي كانت غزيرة. سألتها ما إذا كانت تحتاج أن تأكل شيئًا، لكنها رفضت رفضًا قاطعًا رغم محاولاتي المتكررة لأقنعها. نمنا آخر الأمر متعانقين بحميمية حقيقية وبحرارة أكثر، كنت أودُّ أن أرجع لها معنوياتها المنهارة في تلك اللحظة. أفقنا في الغد باكرًا، كانت علامات الحزن العميق لا تزال بادية على وجه كارولين بفعل حادث أمس المأساوي، لاحظت دوائر زرقاء خفيفة تحيط عينيها. أخذت

حمامها الصباحي كالعادة. شربنا القهوة بمرح قليل حاولنا أن نصطنع أكثره، أكلنا بعض أرغفة الخبز. كانت كارولين جائعة لأنها لم تتناول شيئًا طيلة نهار أمس تقريبا. ثم جمعنا أمتعتنا في الأخير، لبست كارولين أفضل ثيابها، وتزينت بأحلى زينتها، فهي ستحط في باريس على كل حال، باريس مدينة الجمال والسحر. لبست أيضًا ثيابي وخرجنا إلى باحة الضريح، ثم نزلنا الأدراج الملولبة لننتظر سيارة الأجرة المفترض قدومها في كل لحظة. بعد دقيقة كان خالد إلى جوارنا، حيانا وسأل كارولين عن أحوالها، تأسف من جديد للنهاية التي انتهت بها الزيارة، ولم ينف عن نفسه متوهما، أو من باب اللباقة المسؤولية، أو البعض منها فيما حدث. لكن كارولين نزهته عن أي مسؤولية وعزت الأمر لسوء تقدير منها لشخص زوباي، ولتصرفها الذي وصفته بالأرعن الذي لم تراع فيه نزعات رجل معتوه، غير متحكم في أي شيء من تصرفاته حيال امرأة شبه عارية. قررت في نفسي أن كلام كارولين، وتحليلها الشخصي للموقف لا يخلو بتاتا من الحقيقة. كان الجو غائما في ذلك اليوم على غير العادة، بدت السماء رمادية، وهو اللون الذي انعكس على البحر وأفرغه من حلته الزرقاء التركوازية البهيجة.

جاءت سيارة الأجرة، نقلنا إليها بسرعة أمتعتنا، ثم ركبت أولاً كارولين بعد أن ودعت خالد وداعا حارا وصادقا، الشيء نفسه فعلته أنا أيضًا مع خالد، ثم ركبت في الخلف إلى جانب كارولين.

اندفعت السيارة تسير بسرعة متوسطة، في مسالك وعرة وغير مسفلتة وسط أشجار الأرز. حينذاك بدأت بعض الزخات المطرية تتساقط، وفي ذات الوقت كانت دموع كارولين تنساب بهدوء وسكينة على خديها الشفافتين، لم تكن تنشج ولا تصدر نحيبا. عانقتها وضممتها إلى صدري، وتركتها تبكي على سجيتها. كنت أعرف بأنها تفرغ من أعماقها كامل مأساة أمس ولحظات الرعب التي أدخلها زوباي إلى قلبها.

راحت السيارة تخترق الطرق التي تشق غابات الأرز الجميلة في اخضرارها ورونقها البديع الحالم، بينما لم تنقطع الزخات المطرية عن السقوط، الأمر الذي حذا بالسائق أن يتأنى ويحرص أشد الحرص في السياقة، وهو الأمر أيضًا الذي مكنني من متابعة المشاهد البديعة التي تتمثل أمام ناظري من خلال الجبال المكسوة بالغابات، ومشهد البحر الأبيض المتوسط الذي يظهر ويختفي في كل مرة.

وصلت السيارة إلى الطريق المبلط، حينذاك أطلق السائق العنان لسرعة السيارة، كانت كارولين قد توقفت عن البكاء، لكن وجهها كان لا يزال مكسوا بغلالة قاتمة من الحزن. حزنها الذي ذكرني بحزن الغجرية الجميلة، الغجرية التي غادرت نفسها بمحض إرادتها، أو لأقل بمحض إرادة غامضة وسافرت إلى أبعاد اختارتها بعناية متناهية، لكم أحببت حزن تلك الغجرية، بالقدر نفسه الذي أشفقت فيه عليها. لقد جسدت حالتها خيبة

العاشق في أصغر وأكبر وأدق تفاصيلها. خيبة مطلقة، تجسد غدرا مطلقًا لحبيب مزيف متلاعب لا يعرف المشاعر والأحاسيس، ولا يقدرها حق قدرها.

وضعت كارولين رأسها على كتفي ونظرت إلى وجهي وابتسمت لي لأول مرة منذ حادث أمس المأساوي، شعرت أن ابتسامتها تحمل دلالات متعددة ومختلفة، دلالات أشعرتني بنوع من الجزع والخوف، الخوف من مسؤولية ما قد أتورط فيها في المستقبل. ابتسمت لها بود صادق، راحت بأناملها الصغيرة الجميلة تداعب شعري ووجهي. إنها قطتي الفرنسية الصغيرة التي تشبه في رقتها وعذوبتها يمامة من يمام غابات الأرز في جبال الريف المغربي.

بدت منتشية وهي تنظر إلي، انتشاء بدا لي آنذاك مفاجئا وغير متوقع، لكن بريقا معينا كان يسطع من نظراتها ويغشاني بنور متوهج كنور ليلة مقمرة. أي كلام تحمله هذه النظرات؟ أي رسائل مشفرة تبعثها بواسطة البريد المستعجل إلى أعماقي؟ لم أستطع أن أفسر حالتها التي انقلبت من حزن صامت وهادئ مصحوب بدموع تنز بسكون من عينيها، إلى حالة من السكينة والطمأنينة التي تغشى ثنايا كيانها الصغير الوديع المفعم العبق بالود والأريحية. في كل الأحوال كان شكلها وهي قد تخلصت من الحزن العميق، أفضل بكثير طبعًا من الحالة التي ألمت بها منذ مساء أمس، الحالة التي مع كل شيء تخيفني وتجعلني أتوجس من أي أحاسيس قد نتورط معًا فيها، وهو الأمر الذي لن

أختاره بمحض إرادتي إلا إذا وجدت نفسي غارقا فيه، حينذاك ستكون وضعيتي مشابهة تمامًا لوضعية كريمة والإشكال الذي تتخبط فيه الآن.

أخيرا وصلت سيارة الأجرة إلى مطار العروي بمدينة الناظور، أنزلنا أمتعتنا القليلة، دفعت للسائق أجره، ثم توجهنا إلى شبابيك المطار لإنهاء الإجراءات الضرورية. بعد ذلك جلسنا ننتظر موعد إقلاع الطائرة، طلبت كأس قهوة لكارولين، وكأس شاي لي، جلسنا بجانب بعض. تبادلنا قليلاً من الكلام، ظللنا طيلة الوقت صامتين تقريبًا قبل أن يحين موعد ركوبنا الطائرة المتوجهة إلى باريس. باريس التي أشتاق فيها إلى صور ريم وكريمة وشقتي ورتابة حياتي، التي مع كل شيء اعتدت عليها وصارت جزءا من أفراحي وأحزاني، ولحظاتي المرحة ولحظاتي البائسة التعيسة.

وجدنا أنفسنا أخيرًا نحط على مدرج مطار أورلي العملاق. لم تكن الإجراءات كما في رحلة الذهاب حيث، خضعنا - في تلك المرة - إلى تفتيش دقيق، كما تمَّ التحقق بطريقة مبالغ فيها بجواز سفري، وتم إدخاله إلى جهاز رقمي للتأكد من أن لا يكون مزورا، في الوقت الذي عوملت فيه كارولين، فتاة بلدة شاموني بجبال الألب، معاملة مختلفة وبمرونة جد سهلة. أنا مجرد عربي قادم من شمال إفريقيا أحمل في جيناتي جينات لا تتشابه وجينات كارولين، عربي يحمل على عاتقه أينما حل وارتحل، كل الشكوك المتعلقة بهويته ودينه وأحداث طائرات بن لادن التي

ضربت برجي التجارة العالميين ومقر وزارة الدفاع الأمريكية، ولكن ما ذنبي أنا، وما علاقتي ببن لادن أنا الذي أشتغل في مطعم للأكلات الإيطالية مجرد غاسل صحون، وأحتسي أقداح النبيذ والويسكي بمتعة وتلمظ أستحق بفعلها فتوى إهدار دمي من بن لادن نفسه؟ لا هم لي لا بالسياسة ولا بأهلها. قلت ذلك في نفسي المرة السابقة وأنا أرى كارولين تنتظرني، بينما أبناء بلدها يكادون ينزعون عني جلدي ليفتشوني أحسن تفتيش يليق بعربي. تمَّ تحريري من الإجراءات الرهيبة التي تعرضت لها، وكان عليَّ أن أتحلى بصبر أيوب حتى لا أنفجر غاضبا في وجوههم، وبذلك أمنحهم فرصة إلصاق تهمة إهانة موظف لرميي في الحبس الاحتياطي، لكنني لم أكن غبيا حتى تلك الدرجة، فأنا أعيش في باريس، بل وفي ضاحية مهمشة من ضواحي باريس الفقيرة، وأعرف تمامًا ما يجري في هذه المدينة التي تبدو من قشورها براقة ولامعة، ولكنها تخفي في أعماقها أسرارا مريرة، إلى جانب الجوانب الإيجابية الكثيرة التي تتحلى بها أيضًا حتى لا أكون سلبيا جدًا. ثم أنني عايشت أحداث انتفاضة شباب الضواحي حينما كانت باريس تحترق ليلا، عاجزة ومشلولة أمام الاحتقان الاجتماعي والمعنوي الذي يعيشه شباب ضواحي باريس المنسية.

خرجنا أنا وكارولين من المطار، هذه المرة بدون إجراءات معقدة كما كان الحال في رحلة الذهاب. وجدنا الجو غائما، لكنه لم

يكن ممطرًا. أخذنا المترو إلى وسط المدينة حيث تسكن كارولين، ثم تفارقنا حيث ركبتُ الحافلة إلى الحي الذي أسكنه، قبل أن أفعل ذلك تعانقنا أنا وكارولين عناقا حارا وحميميا وطويلا، تبادلنا خلاله قبلا نارية محمومة وكأننا لن نرى بعضنا أبدًا، وخلال ذلك كنت ألاحظ دموع كارولين وهي تنهمر بغزارة على خديها. تساءلت في نفسي عن سبب بكائها، الذي بدا لي آنذاك بدون مبرر حقيقي. لماذا تبكي بهذا الشكل المأساوي العميق، وفي هذه اللحظة بالذات؟ هل لذلك علاقة بحادث أمس في المغرب؟ لا أعتقد. لقد بدت في آخر الأمر وكأنها تجاوزت الأزمة على الأقل على مستوى الانفعال الظاهري. قالت وهي تنظر إليَّ بعيون حالمة مغلفة بغلالة تشبه السحاب الخفيف، أو الضباب الرطب الذي يغلف باريس في بدايات الربيع:

- دعني أراك قريبًا، هاتفني في أقرب وقت، أحتاج لنخرج ونتنزه مع بعض من حين لآخر، أو فقط لننعم معًا بالهدوء والسكينة بمنزلي أو بمنزلك، هل تعدني يا عزيزي عمر؟

ضممتها من جديد إلي، وطبعت على شفتيها قبلة حارة ملتهبة وطويلة، ثم قلت في أذنها هامسًا:

- أكيد سأهاتفك، وأكيد سنلتقي، وأكيد أيضًا سنقضي مع بعض أوقاتا ممتعة رائعة يا عصفورة أشجار جبال الألب العملاقة.

هل كنت أكذب؟ نعم كنت أكذب، هذه هي الحقيقة. لم أكن أرغب أن أتورط معها، وكنت أدرك عن قناعة تامة أننا نسير في اتجاه سيقودنا آخر الأمر إلى نتيجة معروفة مسبقا، لذلك كنت أحاول تفادي كل الخطوات التي من شأنها تعميق توريطي. مع ذلك وجدتني أتورط في كذب مفضوح أنا شخصيًا لم أكن مقتنع به، وكنت أعرف مسبقًا بأنني لن أبادر بالاتصال بها، لا في القريب العاجل ولا في القريب البعيد أيضًا.

ودعنا بعضنا، في النظرة الأخيرة التي كانت تنظر بها إلي، لمحت الدموع ما تزال تنز من مآقيها.

بعد عدة خطوات التفت إلى الوراء، وفي اللحظة نفسها التفتت هي أيضًا، تلاقت أعيننا من جديد، بعثت لها قبلة عبر الأثير، تلقيت مثلها على الفور، ثم ابتعدنا عن بعضنا. حينذاك اعتصر قلبي إحساس غامض وفريد من نوعه، إحساس فاجأني على حين غرة. ليس من السهل أن تقضي مع فتاة عذبة وجميلة مثل كارولين مدة أسبوعين تقريبًا، وفي حجرة واحدة، دون أن تترك فيك شيئًا منها، دون أن تطبع في نفسك طابعا معينا منها، كارولين تركت جزءا من كيانها داخلي وهي تغادرني. شعرت بحزن استبد بي فجأة وأنا جالس بداخل الحافلة، شعرت أنني أوشك أن أبكي بدوري، تمالكت نفسي، مع ذلك كنت أذرف داخلي دموعا حارة وملتهبة، دموع حزن واهنة تنثال دون أن أعرف مصدرها. وصلت إلى باب شقتي الصغيرة، اجتاحتني رهبة هزتني هزا من أعماقي كلها. لم

تكن الرهبة وليدة غيابي عن المنزل، ولا لقائي الوشيك في المساء بكريمة، إنما بصور ريم التي ستستقبلني بكل إجلال وأنا ألج من الباب الخارجي. حينما فتحت الباب، لمحت صورتها التي وضعتها خصيصا لتلائم مزاجي وأنا أدخل البيت. ألقيت حقيبتي بعشوائية أينما اتفق، ورحت بدون وعي نحو الصورة، اقتربت منها بوجهي، وطبعت على شفتيها القرمزيتين اللتين تشبهان زهرة في طور التفتح، قبلة شوق حارق. توجهت إلى خزانة ملابسي، وأخرجت ذلك العطر من مكانه السري. عطر Place Vendôme، ثم رششت منه شيئًا على كل صور ريم. هكذا يجب أن أشعر بها، كاملة، برائحتها بصورتها، بالوهج الجميل الذي ينبثق من أنفاسها. بعد ممارستي لطقوسي البليدة معها، ارتميت على الأريكة لأستريح من سفر شاق ومرهق. كنت بين الفينة والأخرى أتوقع حضور كريمة التي كانت آثارها واضحة في المنزل، ملابسها الملقية هنا وهناك، أحذيتها الاحتياطية بجانب الباب الخارجي. بعد حوالي نصف ساعة من وجودي مستلقيا على الأريكة، كنت أشعر بسكينة ودعة نفس متناهية، غبت في شبه إغفاءة خفيفة سمعت خلالها المفتاح يدور في قفل الباب، دار عدة دورات متتالية، كنت وكأنني في حلم ممتزج باليقظة بسبب تعب ووهن السفر الشاق نفسيا الذي عانيته خلال اليومين الأخيرين. انفتح الباب، إنها كريمة، لا أحد غيرها، أردت أن ألعب معها لعبة مسلية وماكرة أيضًا، جعلت نفسي أبدو وكأني مستغرق

في نوم عميق جدًا. أحسست بها تقف إلى جانبي، طال وقوفها قليلاً، أحسست دفأها المعهود يقترب مني، دفأها الحميمي الذي أعرفه جيدًا، ورائحة جسدها التي تنفذ إلى وجداني وروحي قبل أن تنفذ إلى أنفي. كانت كريمة حارة وفواحة، إنها تختلف عن كارولين بنت الثلج والبرد، بنت بلدة شاموني وجبال الألب وأشجار السرو الباسقة. كريمة المراكشية تجعلك تحس أنها بين يديك كتلة من النار الحارقة، جمرة ملتهبة، تجعلك في أبعد وأقصى درجات المتعة.. وكأنها فاكهة خلاء حلوة. فجأة شعرت بجسدها العاري الدافئ يغطيني، ونشبت بيننا على الفور ملحمة نارية من عراك كان كل واحد منا في شوق عارم إليه، بعد أن هدأت المعركة، همست لها:

- أنت رائعة يا كريمة.
- لقد اشتقت إليك يا عمر، اشتقت إليك كثيرًا جدًا، كم كان المنزل باردًا ومضجرًا بدونك.

ردت بنبرة بدت صادقة ومخلصة، أعرف كريمة حينما ينبع كلامها من تلافيف قلبها. قلت لها بنفس الصدق والإخلاص:

- أنا أيضًا اشتقت إليك كثيرًا، أحضرت لك هدية، مزهرية من خزف مدينة آسفي الذي تعشقينه، مزهرية مزخرفة بنقش تقليدي مغربي أصيل.
- أنت شخص طيب، مع كل شيء لم تنساني، شكرًا على هذه الهدية اللطيفة.

- كيف أنساك؟ كل العشرة التي جمعتنا يا كريمة وأنساك؟ مستحيل.

- فوجئت حين وجدتك ممددًا على الأريكة، فزعت بشأنك، خفت أن تكون مريضًا أو شيئًا من هذا القبيل، لكنني في الأخير قرأت في عينيك دعة توحي بأنك تتظاهر بالنوم، رغم كل محاولاتك اليائسة في التمثيل فإنك لم تستطع خداعي.

حينما تتحدث كريمة بحنو ينبع من قلبها الصافي، تشعر بها مفعمة بروح الأنوثة العذبة المخلصة، إنها فتاة طيبة القلب. وددت لو أسألها عن بيرنارد وعن تطورات الأحداث، ولكنني لم أرغب أن أوقظ فيها شجونا وأحزانا قد تكون نائمة، تركت الأمور تسير على سجيتها.

- لقد وجدت عملاً بمصنع لتلفيف المواد الغذائية، وسأتقاضى أجرا أكثر من الذي كنت أتقاضاه في مصنع النسيج. لم تتبق لي إلا ثلاثة أيام، يوم واحد فقط في واقع الأمر لأن اليومين الأخيرين هما عطلة نهاية الأسبوع، وبعدها أغادر الجحيم المصنع بشكل نهائي. في لحظة ما كنت أحب عملي في المصنع لكنه أصبح في الأخير مصدر إزعاج مستمر. لذلك فإنني لست نادمة على فراقه والرحيل إلى عمل آخر.

قلت مهللاً:

- هنيئًا لك يا كريمة، انك فتاة طيبة، إن المناسبة تستحق أن نحتفل بها. ما رأيك أن أهاتف مطعم وليمة المغربي ليبعث لنا طعامًا جيدًا.

- لا داعي يا عزيزي عمر، لدينا في الثلاجة أصناف متعددة من اللحم والسمك والدجاج والخضر، وسأطبخ لك بيدي وجبة لذيذة تقضم عليها أصابعك، أم أنك لم تعد تجد طعامي لذيذًا؟

- كل شيء فيكِ أجده لذيذًا، صدقيني.

• • • •

## (١٧)

كان الوقت حينذاك قد تجاوز ساعة المغرب بقليل، نهضت كريمة وهي عارية تمامًا ثم أشعلت النور، أخذت تلبس ملابس منزلية خفيفة، تقتلني بعفويتها التي لا تشبه عفويتها أية عفوية أخرى في الوجود، تتصرف بتلقائية جميلة ساحرة تخلب لبي وحواسي، ما أحلى المرأة التي تتصرف بعفوية تامة ولا تفتعل أي تصرف مهما كان. ارتديت أنا أيضًا لباسي وتوجهنا معًا إلى المطبخ، كنت جائعا، كذلك كريمة التي عادت توا من العمل. فتحت الثلاجة وراحت تستعرض محتوياتها:

- ماذا تأكل؟ هل لديك اختيار محدد؟

سألتني وهي تنظر إلى الثلاجة، أجبت وأنا أعانقها من الخلف وأضمها إلي:

- ليس مهمًا، أي شيء يبدو لك ملائمًا.. فأنا موافق.

أخرجت كريمة بعض الخضراوات، وشريحتين من لحم العجل، ثم راحت بهمة تشتغل لإعداد وجبة العشاء. ثم باغتتني بسؤال أربكني جدًا، حتى أن حضور البديهة خانني بشكل فظيع:

- من جديد أشم في هذه الحجرة رائحة عطر أنثوي قوي، وهو نفسه الذي شممته في الحجرة قبل أن تسافر إلى المغرب، مع

أنني لا أشم هذا العطر في جسدك، ما السر في الأمر، ماذا تخفي عني أيها الثعلب الخبيث؟

سؤالها هذه المرة كان مباشرًا وواضحًا جدًا، ولم تكن أمامي خيارات كثيرة للمناورة، رغم ذلك قلت:

- لا أخفي عنك أي شيء يا عزيزتي كريمة، أنت تعرفين حتى هذا العطر الذي تشمينه لم أحاول أن أخفيه عنك، وإلا لما كنت قد شممته أصلا. الرائحة هي الشيء الوحيد الذي لا تستطيع إخفاؤه عن أي كائن بشري يمتلك حاسة شم، أليس كذلك يا عزيزتي؟

قلت ذلك الكلام المبهم غير المقنع فقط لأجل أن أقول شيئًا، لم أكن أمتلك أدوات إقناع حقيقية حيال سؤال وجيه وصريح كالذي طرحته كريمة، لأن الإجابة الصريحة ستكون سخيفة. قالت هذه المرة بمكر لم يخف على أحد منا نحن الاثنين:

- هل يروقك أن أتعطر بهذا العطر ليبقى هذا الأريج منثورا في كل البيت وعلى جسدي وفي الفراش، وفي كل مكان كي توفر على نفسك وعلى صاحبته المجيء إلى هنا؟

تسرعت وأجبت بما قد يكون حدة ملطفة غير لائقة ربما بالموقف ولا تتطلبه:

- لا، أرجوك لا تفعلي. ثم عن أي صاحبة تتحدثين يا كريمة؟ ليست هناك أي امرأة تدخل هذه الشقة غيرك.

- أمرك غريب ومحير، كل مرة تزداد شكوكي نحوك. هل يجب أن أصدقك دائمًا، أم أصطنع الغباء؟

يا لها من ورطة أخرى، هل يحق لكريمة أن تتدخل في شؤوني بهذا الشكل السافر؟ ثم من أعطاها الحق لتحاسبني كزوجة أو حبيبة؟ من سيئات بعض النساء، وليس كلهن على أية حال، أنهن يتدخلن أكثر من اللازم في الخصوصيات الشخصية للرجال، بغير أن يكون لذلك من داع.

أجبتها جوابًا فيه الكثير من الحقيقة وليس كلها، فأنا لست قديسا لألتزم في تعاملاتي مع أي كان بالشفافية والصراحة المطلقة، والأخلاقيات المثالية التي يجب أن تسبغ تعاملات الناس مع بعضهم:

- اسمعي يا كريمة، هذا العطر مرتبط بامرأة كان ولا يزال لها تأثير معين في حياتي، ولكن للصراحة، لم أر هذه المرأة ولم أشاهدها على مستوى الواقع مطلقًا، إنها قصة معقدة ومن العبث أن نخوض فيها لأنها ليست مفيدة لا لك ولا لي، من الأفضل أن نتجاهل الأمر، ولا نعود مرة أخرى للخوض فيه.

قلت ذلك وأنا أشعر بأنني بحت بحساسية قوية بأكثر مما ينبغي. نظرت إليَّ كريمة مبتسمة وقالت بمرارة بدت واضحة في نبرتها المتشنجة قليلاً:

- لا أريد أن أزعجك، أو أتدخل في أمورك الشخصية، إنه مجرد سؤال من امرأة فضولية، فضولية أكثر من اللازم ربما، كما هو طبع كل النساء، لا أكثر ولا أقل. ثم لا يجب أن تذهب بك الظنون أكثر مما ينبغي.

عبارتها الأخيرة كانت خطابا واضح المعاني ويحتمل تفسيرات عديدة ومختلفة.

- لك أن تسألي متى ما شئت، هذا أفضل، الوضوح أحسن طريقة لعلاقة زمالة يحترم كل واحد فيها الآخر كما ينبغي للاحترام أن يكون.

هل تكون أزعجتها عبارة زمالة التي استعملتها في خطابي نحوها؟ ربما لأنها قالت بعد ذلك كلامًا بعيدًا جدًا عن موضوعنا، لكنه قريب أيضًا من حيث المقاربة التي أسبغتها هي شخصيا عليه:

- أنا الآن في إطار البحث عن سكن لأنتقل إليه في أسرع وقت ممكن بعد انتهائي من الشغل بمصنع النسيج، ثم أنني أنهيت عقدي في كراء منزلي السابق، لذلك إذا لم أجد منزلا خلال هذه الثلاثة أيام فإنني سأضطر للمكوث مدة أخرى في منزلك، حوالي أسبوع، أكثر أو أقل قليلاً، أتمنى أن أجد الترحاب من لدنك، وأن تتحملني لبضعة أيام أخرى، لا أعرف بالتحديد كم ستدوم. لكنني أتمنى على العموم ألا تطول.

فاجأتني حقًا كريمة بهذا الكلام الغريب، وأحسست بأنها تطعن أيضًا في مصداقيتي، وفي ترحابي بها الذي لم يكن محل شك أبدًا، لذلك قلت غاضبا، وكان غضبي حينذاك حقيقيًا وصادقا، وليس مجرد اندفاع وقتي غير محسوب:

- أعذريني، ولكنك تقولين كلامًا غريبا، أعتبره اتهاما واضحا لشخصي ومصداقيتي لديك. أنا كنت في هذه النقطة بالذات صريحًا جدًا معك، وقلت لك أن البيت بيتك، حتى لو أردت الرحيل فإنني لن أتركك ترحلين إلا لمنزل زوج أو حبيب ما. أما أن تكتري منزلا بينما منزلي مفتوح ومشرع الأبواب لك، فهذا أمر لن أستسيغه ولن أتفهمه ولن أسمح لك به، وسأعتبره لا يليق بأصدقاء حقيقيين، تجمعهما الكثير من الوشائج والعلاقات الحميمية، التي لا يمكن الضرب بها عرض الحائط هكذا ببساطة في مرة واحدة.

حينما لاحظت كريمة اللهجة الصارمة نوعا ما التي تحدثت بها، قالت في شبه تسليم بالأمر الواقع:

- حسنًا، أفهمك جيدًا.. وأشكرك جدًا أيضًا، على أية حال سنتشارك في أداء كل شيء في هذا المنزل، سواء تعلق الأمر بالأكل أو الكراء أو أداء فواتير الماء والكهرباء، هكذا لكي ننصف بعضنا البعض.

بدا وكأننا تجاوزنا حساسية الموضوع الذي جثم بثقله على حميمية لقائنا الأول بعد كل هذه المدة من الفراق. بعد قليل كان الأكل جاهزا، لم تكن في الثلاجة أي زجاجة نبيذ، لم أجد الأمر مبعث أسف، ربما كنت في ذلك الوقت أفكر جديا في التخلي عن شرب الكحول. شاركت كريمة شرب الكولا والأكل الذي كان لذيذا حقا.

في صباح اليوم الثاني استفاقت كريمة مبكرا جدًا، كان عليها أن تذهب إلى الشغل، استيقظت أنا أيضًا على شرشرة الحمام. شعرت بروح كريمة الحلوة تعبق في المكان، والأجواء الساحرة التي تضفيها على شقتي، نزقها اللذيذ الذي تشملني به بسخاء كبير، مرحها الذي يتقافز من وجهها، الفرح المفعم بالحبور والتفاؤل، أسئلتها المحرجة الذكية التي تضعني في مأزق أمامها وأمام نفسي. إنها فتاة حلوة بكل المقاييس، وعلى كل المستويات، هكذا فكرت وأنا مستلق في الفراش.

بعد مدة أيضًا سمعت صوت انهمار ماء الحمام يتوقف، ورأيت كريمة تقبل كعادتها لترتدي ملابسها في بيت النوم. يا له من جسد باهر، يا لها من فتنة ساحرة، يا له من جمال يخلب الألباب. راحت ترتدي أولاً التبان المغرق في الإثارة الذي يخفي، أو لا يخفي، إلا القليل من أردافها، ثم بعد ذلك ارتدت تي شيرتا وسروال جينز أزرق غامق من آخر طرازات الموضة، ثم ارتدت القميص الشتوي الصوفي، وفوقه المعطف الأسود الذي ينحصر

حول خاصرتها ويجعل من جسدها شبه عارضة أزياء رائعة القد والقوام. انحنت نحوي وطبعت قبلة طويلة على شفتي ثم ودعتني، وخرجت بعد أن لبست حذاءً جميلاً يتلاءم مع ألبستها وينسجم معها انسجاما كاملا. كريمة تتوفر على ذوق عال فيما يتعلق بلباسها الذي يتسم بالبساطة غالبًا في كل شيء، والأناقة الباهرة في الوقت نفسه أيضًا.

أخذت حمامي الصباحي المعتاد، وارتديت ملابسي، وخرجت إلى المتجر القريب لأبتاع منه خبز الباكيت الفرنسي الشهير. كان لا يزال دافئا، اشتريت أيضًا جبنة بري الأصيل وحاجيات أخرى صغيرة وعدتُ إلى المنزل. صنعت لنفسي قهوة بالحليب، وحشوت الخبز بجبنة البري وتناولت فطوري بشهية. خارج المنزل كان الجو غائما ومعتما، لكن لم تكن هناك أمطار، وهو الأمر الذي أغراني بالتمشي قليلاً والتسكع بأزقة وشوارع باريس الهادرة بالناس والسيارات. لم يكن لدي ما أفعله، فاليوم كان يوم جمعة ولن ألتحق بالشغل إلا ليلة الأحد المقبل. كريمة أيضًا هذا يومها الأخير في مصنع النسيج باعتبار أن يوم غد السبت هو يوم عطلة. فكرت بكارولين التي لا شك تنتظر مكالمة لأسألها عن أحوالها، لكنني لن أفعل طبعًا، وان كان يهمني ذلك كثيرًا من الناحية الإنسانية ومن الناحية الشخصية أيضًا، فقد صارت بيننا عشرة، كان يهمني أن أعرف تطور حالتها النفسية بعد نكبة يوم ما قبل الأخير في المغرب، هناك أشياء كثيرة تحول دون أن

أفعل. لن ألوم كارولين أو غيرها، أو كريمة مثلا إذا وقعت في مستنقع حب مستحيل، ولكنني سأشفق بالتأكيد على أي عاشق بائس خائب، لم ينل من حبه إلا المأساة والآلام والحزن.

بعد تجوال طويل في متاهات باريس وأزقتها الملتوية الغامضة المفرغة من الحرارة، وبعد أن بدأ يتسرب إلى نفسي جوع أحسسته يلسعني لسعا في بطني، توجهت إلى مطعم وليمة المغربي. تناولت أكلة خفيفة، ولكنها لذيذة، ثم رجعت مسرعًا إلى المنزل. قبل ذلك توجهت إلى المتجر القريب، اقتنيت منه أرغفة التاكو المكسيكية وصلصتها وحشواتها. كنت أعرف أن كريمة ستأتي إلى المنزل متعبة ولن أجعلها تتعب نفسها أكثر بإعداد وجبة العشاء، لذلك أخذت المبادرة على عاتقي وقررت إعداد وجبة أرغفة تاكو مكسيكي، لأثبت لها بأنني أجيد طهي وجبات قد لا تخطر على بال. أعددت كل شيء، وجهزت الأرغفة والصلصة التي خلطتها مع مزيج من الكفتة والفلفل الأحمر والأخضر والبصل وبعض الخضر الأخرى، وقليل من الهريسة. أصبح كل شيء جاهز ولا يحتاج إلا إلى إدخاله الفرن. تركته جانبا وغطيته بورق الألمنيوم الرقيق ثم وضعته في الثلاجة في انتظار قدوم كريمة. توجهت إلى الأريكة وتمددت في حالة استرخاء قصوى. بعد قليل حلّتْ كريمة، سمعتها أولاً تضغط على الجرس قبل أن تفتح الباب، يا لها من لفتة مؤدبة توحي بها كريمة. قلت

لها في نفسي: لن تجديني في الفراش مع إحداهن، يجب أن تفهمي هذا الأمر يا كريمة، خصوصًا صاحبة عطر Place Vendome .

إنني أعيش الحقيقة على مستوى افتراضي غير موجود، أو على الأقل غير موجود هنا في باريس. حيتني وتعانقنا بحرارة، ألقت حقيبة يدها الصغيرة على الأريكة، ثم توجهت إلى بيت النوم لتغير ملابسها. وفي الوقت نفسه أدخلتُ أنا أكلة التاكو إلى الفرن، لن تحتاج لوقت طويل لتنضج. عدت للجلوس فوق الأريكة، مترقبًا عودة كريمة من بيت النوم، عادت بعد لحظات وجلست إلى جانبي، كان وجهها شاحبًا وغلالة قاتمة من الحزن تغلف نظراتها. تفهمت الأمر، اليوم الأخير في العمل، وداع الزملاء، الذكريات التي تركتها خلفها، الحلو منها والمر، الزمن الطويل الذي اشتغلت فيه هناك، ليس سهلا أن تفارق مكانا قضيت فيه سنوات طويلة، ثم قصة الحب الغريبة التي تورطت فيها وبسببها تستقيل. كل تلك العوامل تجعلني أتفهم الحالة النفسية المتدهورة التي تعيشها كريمة، حينذاك كان عليَّ أن ألعب الدور الذي ينبغي، ضممتها إلي، ثم قبلتها على وجهها وعينيها، وداعبت شعرها الجميل بحنان:

- هل تشعرين بالجوع؟ لقد أعددت لك وجبة لاشك ستفاجئك لأنك تعتقدين بأنني أسوء طباخ في العالم، مع انني أشتغل في مطعم.

قلت ذلك ونظرت إليها، لم ترد بشيء، فأضفت:

- أكلة غير تقليدية، لكنها لذيذة، لا تقولي بأنك لا تتوفرين على شهية الآن، أنت متعبة جراء العمل ويجب أن تأكلي.
- سأفعل يا عزيزي، فأنا فعلاً جائعة جدًا، شكرا لأنك أعددت الأكل.
- لا تشكريني يا كريمة، أنت التي تستحقين الشكر على كل ما قدمته لي حتى الآن.

نهضت إلى المطبخ، أخرجت أرغفة التاكو المكسيكي، ثم أعددت سلطة سريعة بخَسّ وطماطم وخيار، وأعددت كل شيء على الطاولة وناديت كريمة. جاءت وجلست أمامي على الكرسي، حين بدأنا الأكل سألتها:

- هل ودعت زملاءك في العمل؟
- نعم.. كلهم تقريبًا، ومن بين الذين لم أودعهم بيرنارد، لم أفسح له المجال ليكرر نفس أسطوانته المملة، لذلك انسللت من المصنع قبل أن تقع عليّ عينيه.

حين قالت كريمة ذلك، أدركت أنها لم تودع بيرنارد ليس لأنها لم ترغب في ذلك، وليس لأنه لم يكن يهمها، بل لكي لا تنهار أمامه، فهي مغرمة به، وفي تلك اللحظة لن تستطيع أن تتحكم في عواطفها، وستلقي بنفسها في أحضانه، هكذا يحول العشق الكائن البشري إلى قطعة قماش ممزقة وواهنة. استمرت لبعض الوقت تأكل صامتة، كانت غشاوة شفافة من الحزن تغطي وجهها. ماذا تراها ستفعل، هل ستستطيع نسيان بيرنارد والمصنع

والجرح الذي لم يندمل بعد في قلبها؟ لكم أشفق عليك يا كريمة، لكم أجد نفسي متعاطفا معك، لكن ماذا بوسعي أن أفعل!. كل ما أستطيعه هو أن أشملك بالعطف والحنان الذي تستحقينه، خصوصًا في هذه المرحلة بالذات.

نمنا تلك الليلة بغير الطقوس المعتادة، لم تكن الأجواء السائدة تسمح لأي نزق أو جنون. التزمنا كلانا بالرصانة والوقار الذي بدا غريبًا علينا نحن الذين لم نمارس هذا الوقار إلا نادرا جدًا. في الفراش تعانقنا بمودة، حاولت بشتى السبل أن أواسي كريمة، وأن أحتوي حزنها الذي كنت أحس به يلهب وجهي. لا تتكلم كثيرًا كريمة حين تكون حزينة، تركن إلى هدوء وصمت بارد، لكنه جميل، يشعرك وكأنك بحضرة عصفور وديع. لثمتها على وجهها لثمات خفيفة، وفي لحظة ما فكرت في هذا الكائن الجميل الذي يحمل في قلبه كل هذا الألم والحزن، إنها تشبه في هذه الأثناء، تمامًا أو تقريبًا، لأن مجال المقارنة شاسع جدًا، غجرية ضريح سيدي مفتاح في المغرب. كانت كريمة قد استسلمت لنوم عميق وهادئ، جذبت ذراعي من تحت عنقها برفق شديد حتى لا أتسبب في إيقاظها. التفت إلى الجهة الأخرى وحاولت بدوري أن أنام، وحاولت أن أطرد من ذهني كل الأفكار المتزاحمة التي كانت تهاجمني بشراسة في تلك الأثناء.

لا أعرف من منا استفاق في الصباح قبل الآخر، ولكننا وجدنا أنفسنا ننظر إلى بعضنا. ابتسمت لها بود، بادلتني كريمة الابتسام بمثله، قلت لها:

- صباح الخير يا صغيرتي، كيف حالك؟

بخير، وأنت؟

- أشعر بسعادة غامرة وأنت إلى جانبي.

- حقا؟

- نعم يا صغيرتي، وجودك يشعرني بالدفء، وينثر حولي إحساسًا متميزا، إحساسًا خاصا يداعب أعماقي.

- ضحكت كريمة وعانقتني، ثم قالت:

- ليتني أستطيع تصديقك.

- هل تشكين في كلامي؟

- أحيانًا، ولكنه يبدو كلامًا جميلاً جدًا للدرجة التي يصعب عليَّ تصديقه.. وعدم تصديقه أيضًا.

- عليك أن تصدقيني غالبًا، فأنا لا أكذب إلا حين أتورط في أسئلة محرجة لا أجد لها جوابًا، أما حين أقول كلامًا لست مطالبًا أو ملزمًا بقوله، فإنني حينذاك أكون صادقًا جدًا.

- على كل حال كلامك جميل، ويدخل الفرحة إلى القلب، وهو مبعث تفاؤل يجعل يومي يبدأ بداية جيدة.

بدت كريمة مرتاحة جسديًا وذهنيًا، أحسست بتلك المرونة العذبة الجذابة في جسدها التي تشجعني حميميًا على الاقتراب

منها أكثر. احتضنتها إلى صدري، وضممتها بذراعي، ظلت صامتة ولا تبدي مقاومة، ولكنها شيئًا فشيئا راحت تتناغم مع تفاصيل اللعبة المسلية، وراحت تمارس شغبها الجميل الذي يتفجر من كل ثنايا كيانها الساحر.

كنت على شبه يقين بأن هذه المتعة الصباحية، ستزرع يوم كريمة ويومي كله بالفرح والحبور والانتشاء. التلاقح الجسدي بين المرأة والرجل ليس عاملا بسيطا لمتعة عابرة عبورا مسرعا، بل هو قنطرة للعبور الدائم نحو مجال أوسع وشامل لمفهوم اللذة الدائمة طيلة اليوم أو الأسبوع، أو حتى العمر كله. ليس هناك ما يرضي المرأة أو الرجل أكثر من لحظة حميمية حقيقية صادقة تختلط فيها المشاعر اختلاطا كاملا، كل هدايا العالم المادية لا تنفع ولا تجدي إلا جزئيا جدًا، أما التلاقح الروحي والجسدي فهو المحدد الهام والأساسي للسعادة. ولعل تجربة الطوارقي الغريب الذي وفد من مكان بعيد جدًا إلى ضريح سيدي مفتاح طالبا حلا لعلته المستعصية، أحسن مؤشر للعلاقة بين جسد المرء وغرائزه من جهة وبين نفسيته ومتعته من جهة أخرى.

خرجت كريمة من الفراش عارية تمامًا، وسارت باتجاه الحمام وأنا أتابع اهتزاز أردافها الساحرة، يا لها من امرأة تمثل الأنثى في أعمق عنفوان أنوثتها الطاغية. حين سمعت ماء الحمام ينهمر، انهمكت في ممارسة طقوسي المعتادة، تأملت أولاً صور ريم البديعة الرائعة، والبهاء الذي ينبثق من كل كيانها الجميل. حينذاك

توصلت إلى أن وجود كريمة في فضائي ما هو إلا تكميل في واقع الأمر لشجيرات اللبلاب المزهرة المزروعة على جدران غرفتي. كريمة هي مصدر إشباع روحي وجنسي ضروري بالنسبة لي، بينما ريم تعتبر مصدر إشباع ميتافيزيقي غريب في مفهومه لا يمكنني الاستغناء عنه. إنها الازدواجية الجميلة التي تحافظ على توازني النفسي.

أخذت زجاجة العطر، ورششت منه شيئًا قليلاً جدًا على جميع الصور. لم أبالغ في ذلك، كنت أعرف أن أنف كريمة حتمًا سيلتقط الرائحة فور خروجها من الحمام. وهو الأمر الذي حصل فعلاً، فما كادت تخرج من الحمام حتى توقفت ونظرت حولها، ثم نظرت إليَّ بارتياب، لكنها لم تقل أي شيء، ظلت صامتة، فهمت بطريقة أو أخرى أن الأمر يتعلق بعادة أو بطقوس غريبة وعجيبة تكتنفني، عادة مستهجنة وغير مقبولة بالنسبة لها، لم تكن لتستطيع فهم الحقيقة كما هي. ثم حتى لو فهمت الحقيقة فان لا شيء سيتغير، سأبدو لها مع ذلك غريبًا وشاذ الطبع، وهذا الأمر صحيح إلى حد ما. ستتساءل كيف يمكن لرجل أن يحب صورة لامرأة لا يعرفها، وربما غير معروفة أيضًا على الطريقة التي يعرف بها نجوم الغناء أو التمثيل.

• • • •

## (١٨)

بعد أسبوع آخر لم تتخلله أحداث تُذكر، وجدنا أنفسنا في نهايته أنا وكريمة من جديد نستيقظ من النوم مع بعض، ذهبت كريمة وأخذت حماما صباحيا منعشا، ارتدت ملابسها، وأخذت زينتها كاملة كما يحلو لها أحيانًا حتى وهي فقط في المنزل، تعطرت وراحت تضفي على وجهها المليح لمسات خفيفة وساحرة من مايكوب لطيف يلائم بشرتها المائلة قليلاً إلى سمرة تشبه الظل.

بعد أن استحممت بدوري ولبست ثيابي قلت لكريمة:

- سأخرج لأشتري بعض الحلويات، كرواسان وبوتي بان للفطور، هل ترغبين في شيء آخر؟

- لا ، ولكن هل تدري أي شعور ينتابني ونحن نفطر معا؟ شيء بديع جدًا.

- أوه،.. إنها مناسبة تبعث دائمًا الفرح في قلبي.

خرجت إلى الشارع الذي كان عبقا برائحة الرذاذ وأشجار البندق والسرو، والضباب الخفيف الذي يغلف فضاء باريس، ويحيلها إلى مجال مغلق إلا من نفسها. شعرت ببرد تسرب سريعًا إلى جسدي الجائع، وبينما أنا أخطو على أحجار الرصيف، وسط هدير السيارات والمشاة وصخب الطقس العنيف، سمعت هاتفي النقال يرن. إنها كارولين، رباه بأي وجه وبأي كلمات سأتحدث إلى هذه القطة

الفرنسية المشاكسة؟ ماذا تريد في هذا اليوم الذي أريد فيه أن أتفرغ فقط لكريمة، وأن أستجمع شتات ذاتي المكسورة كشظايا مزهرية مهشمة؟

- يوم طيب عمر، هل أنت بخير؟

أجبت بتلعثم، ينتابني أحيانًا توتر غير مبرر في الوقت الذي ينبغي فيه أن أبقى محافظا على هدوئي:

- يوم طيب كارولين، نعم أنا بخير، كيف حالك يا عزيزتي؟

- هذا السؤال يأتي متأخرًا جدًا، بل ليس له مكان أبدًا في حديثنا الآن، لكم انتظرت مكالمة منك كما وعدتني بأن تتصل بي في أقرب فرصة لتطمئن علي، لكنك لم تفعل مع الأسف، هل تعرف لقد خيبت ظني وأنا أعتب عليك عتابًا شديدًا جدًا، ولا أعرف كيف ستعلل موقفك الآن ؟

كان هجوم كارولين كاسحًا ومخيفًا، حتى أنني شعرت بارتباك حقيقي حيالها، ارتباك شل لساني وكياني كله. بماذا كان بوسعي أن أجيب؟ فكرت قليلاً، وقلت لأربح بعض الوقت:

- هل هدأت ثورتك الآن يا كارولين؟ دعينا نتحدث بتعقل، وأرجو أن تفهميني أنا أيضًا.

أجابت ببعض الحدة:

- من منا كان يجب أن يفهم الآخر؟ ألا تعلم بأنني تعرضت لمحاولة اغتصاب من مخبول، وهو أكبر مصاب يمكن أن يلم

بامرأة، هل تفهم ماذا تعني عبارة محاولة اغتصاب، أم ينبغي أن أشرح لك؟

- طبعًا يا عزيزتي أفهم كل هذا، بل أكثر من ذلك لم تفارقني ذهني طيلة رجوعنا من المغرب، كنت قلقا جدًا عليك للدرجة التي لم أجرؤ على مهاتفتك، فضلت أن أفسح المجال لبعض الوقت حتى تسترجعي سكينة نفسك. ثم يجب أن تدركي بأنني أنا أيضًا كنت ضحية خيبة كبيرة، لأنني لم أستطع توفير الحماية الكافية لك. لم يكن ليمر كل ذلك بدون أن يحفر في نفسي آثارا عميقة وجراحا لم يكن لها أن تندمل بسرعة. طبعًا كنت في بالي طيلة الوقت وكنت كل مرة أحاول الاتصال بك، لكن شيء ما كان يحول بيني وبين ذلك.

قلت في نفسي، إلى متى سأظل أهرب من الحقيقة، في كل مرة أحاول تعليل موقفي الضعيف بكذبة جديدة تتولد عنها لاحقًا كذبة جديدة أخرى وهكذا لاحقا، حتى أصبحت حياتي بين كريمة وكارولين مجرد سلسلة متواصلة من الكذب والنفاق الذي كان أيضًا وفي الوقت ذاته كذبا ونفاقا على نفسي. استمعت كارولين لثرثرتي، مقتنعة أو غير مقتنعة لست أدري، ولكنني كنت أعرف أن النساء أحيانًا يرغبن في تصديق كلام أزواجهن أو أحبائهن حتى يتفادين الإحساس بالجرح والإهانة التي تسببها خيانة الزوج أو الحبيب، مع أنهن منطقيا لا يصدقن ما يسمعن.

كذلك كان شأن كارولين، كانت مجبرة على تصديقي لتحافظ على شعرة معاوية أو شعرة نابوليون بيني وبينها.

- على أية حال ماذا تنوي أن تفعله الآن؟

- سأسألك عن أحوالك، وسأقول لك يا عزيزتي الصغيرة الحلوة، يا سليلة جبال الألب، كيف حالك؟

- إذا كان فعلاً يهمك أمري، يتحتم أن أقول لك بأنني ذهبت إلى طبيبة نفسانية، وبعد أن طرحت عليَّ بعض الأسئلة، قالت لي بأنني لا أعاني مشكلا حقيقيا، وأنني سأستطيع بنفسي تجاوز هذه المرحلة في أقرب الآجال ولن أحتاج إلى جلسات استشفاء.

- هذا حسن وخبر يسرني جدًا، الآن أصبحت مطمئنا عليك.

كان عليَّ أن أعرض عليها موعدا لأحفظ كرامتها، كنت أدرك أنها رغبتها ولم تهاتفني إلا من أجل ذلك.

سألتها بثقة، وبدون أن أشعر بالتلعثم الذي كان ملازما لي طيلة حديثنا السابق:

- كارولين، أشتاق لجلسة هادئة تجمعنا في مكان هادئ مادام مزاجك الآن أصبح رائقا، وما دمت قد تخلصت نسبيًا أو كليًّا من حادث المغرب، ما رأيك؟

صمتت لبعض الوقت ثم قالت وهي تفتعل بعض التردد:

- لست أدري ما إذا كانت أجندتي تسمح في القريب العاجل بمثل هذا اللقاء، ولكنني سأحاول أن أجد وقتًا للغداء معًا في القريب.

استبقتُ الأحداث كي أحافظ على كرامتها، ولكي أجعلها تثق بي أيضًا. سألتها متحمسًا:

- هل يلائمك يوم غد الأحد لنتناول الغداء معًا؟

بعض أن صمتُ قليلاً أضفت:

- ثم أنني أقترح مطعم المنصورية المتخصص في أكلة الكسكس لم أزر هذا المطعم من قبل وهي مناسبة لاكتشاف طبيعة ما يعرضونه على زبائنهم، هل يروق لك ذلك؟
- لدي في أجندتي ثغرة غدًا وقت الغداء، كما يسرني أن نلتقي بمطعم المنصورية.
- إلى اللقاء يا عزيزتي كارولين.

رباه، ها هي كارولين تعود، بل وتعود بقوة غير معهودة، أشم رائحة ما تفوح من أنفاسها الداخلية العميقة وهي تتحدث. كيف تنظر إلي؟ من أنا بالنسبة لها؟ ماذا تعتبرني؟ لماذا الإصرار على لقاءات متكررة تكتسي في الغالب مفهوم المواعيد الغرامية الغامضة التي لا أجد لها أي مبرر؟ بل إنها تحاسبني حسابًا عسيرًا على كل تصرفاتي تجاهها، أتمنى ألا نكون قد تجاوزنا النقطة التي لا رجعة بعدها، سواء من جانبي أو من جانبها، لأنني أيضًا أنساق وراء اللعبة بطريقة عمياء وبدون تقدير للموقف الخطر الذي يمكن أن أورط نفسي فيه.

اشتريت الحلويات من حلواني الحي، وبعض الحلويات الأثيرة لدى كريمة بالرغم من أنها لم تصرح برغبتها فيها، ثم عدت إلى المنزل. وجدت كريمة تجلس على الأريكة، وتضع على الطاولة صحنا عليه إبريق القهوة التي يعبق أريجها الفواح في كل المكان. تناولنا فطورنا معًا، ثم خرجنا لنتحرر من زخم الاختناق الذي نشعره ضيقا في المنزل، خرجنا إلى رحابة باريس التي كان بردها ذلك اليوم شديدًا وقاسيًا، لكن الدفء الذي كان يغمرنا أنا وكريمة من الداخل، كان يجعل البرودة متحملة. تجولنا قليلاً في الشوارع والأزقة القديمة، ثم ركبنا الحافلة إلى الحي اللاتيني التي أرادت كريمة أن تتنزه في حوانيته ومتاجره. التسوق عادة نسوية في الغالب، لكنها تكتسي بعدا من المتعة الجميلة إذا كان الأمر يتعلق بشخصين يجدان بعضهما في بعضهما، وهو الأمر الذي تحقق بيننا أنا وكريمة في تلك اللحظة. مررنا بالباستيل، ثم وصلنا إلى الحي اللاتيني. تجولنا طويلاً بين الحوانيت والمتاجر، كنت في كل ذلك مدفوعا برغبة كريمة التي كانت دائمًا تحب التسوق، وتشتري الألبسة الأنيقة التي تحتاج بعضها، ولا تحتاج أكثرها على غرار أغلب النساء. اشترت في الأخير بعض الإكسسوارات والألبسة الداخلية، ثم توجهنا إلى محطة الأوتوبيسات حيث اقترحت عليها أن نتوجه إلى مطعم وليمة المغربي.

دخلنا المطعم البسيط في كل شيء، وانزوينا في ركن قصي. كان جل رواد المطعم من المغاربيين وربما بعض العرب المشارقة أيضًا. بعد أن أنهينا الأكل بسرعة قفلنا راجعين، كانت سماء باريس الملبدة بغيوم سوداء قاتمة، وتنذر بسقوط المطر في كل لحظة، واشتدت حدة البرد التي وصلت ذلك اليوم إلى أوجها. دخلنا الدار وأسرعت كريمة لتشغيل جهاز التدفئة، بينما رحت أنا أبحلق ببلاهة في صورة ريم المعلقة على الجدار المقابل للباب.

كنت قد أبلغت كريمة بأنني مرتبط بموعد مع شخص غدًا الأحد على الساعة الثانية عشرة من منتصف النهار، لم تأخذ القضية أبعادا معينة، الأمر عادي بالنسبة لها لأنه يتعلق أولاً وقبل كل شيء بحريتي الشخصية، وهي متفهمة للأمر تمام التفهم. انهمكت هي صباح ذلك اليوم بالذات، أي صباح الأحد، تقرأ في مجلة نسائية، بينما انشغلت أنا بالتجوال في متاهات الإنترنت بدون أن أستقر على موضوع أو شيء خاص معين. فجأة رن جرس الباب، خرجت لاستطلاع الأمر، كنت لا أزال أرتدي بيجامة النوم. لما فتحت الباب قابلني وجه شاب طويل أسمر، سمرة داكنة قليلاً، ضخم الجسم لكنه يفتقد للتناسق المناسب بين أجزاء جسمه. لم يعن لي أي شيء ذلك الشخص، لأنني لم أعرفه يومًا ولا أتوقع أنني كنت قد صادفته في أي مرة في حياتي، قال لي بطريقة أرادها أن تكون مرحة:

- صباح الخير سيدي.

- صباح الخير.

أنا بيرنارد زميل كريمة السابق، جئت لأسأل ما إذا كانت موجودة الآن في المنزل.

نظرت إليه بحيرة، فكرت قبل أن أجيبه، هل ينبغي أن أكذب عليه وأقول له بأنها لا تسكن هنا؟ ولكن من أدراني؟ لعلها تكون قد أعطته بنفسها العنوان وهي تلعب معي لعبة ما من ذلك النوع الخبيث من اللعب الذي لا يروق لي. لم يكن لدي كثير وقت للتفكير وتحليل الموقف بالدقة التي يستحقها، لذلك أجبته بود مفتعل:

- نعم هي موجودة بالداخل، سأبلغها حالاً بوجودك.

- شكرا.

دخلت المنزل وأنا على يقين بأن شخصًا ما تواطأ مع بيرنارد وسلمه عنوان سكنها معي، وكنت على يقين أيضًا بأن كريمة ستصرفه فورًا إلى حال سبيله بطريقة أو أخرى، إنها ذكية وتعرف غالبًا كيف تتصرف في المواقف المشابهة.

حينما ولجت إلى الداخل سألتني كريمة بفضول:

- من كان ذلك الشخص؟

- بيرنارد ، إنه ينتظرك عند الباب، يريد أن يتحدث إليك قليلاً.

قالت باستغراب، بدا لي حينذاك وكأنه صادق:

بيرنارد؟ يا للكارثة!

هل افتعلت ذلك الاستغراب، أم أنها كانت صادقة في استغرابها؟ لم أكن لأعرف في ذلك الوقت.

خرجت إليه كريمة وهي بلباس المنزل، وبالحالة التي كانت عليها، اللهم أنها عدلت قليلاً جدًا من تسريحة شعرها بيديها، خرجت وأنا مطمئن بأنها ستعرف كيف ستتخلص منه هذه المرة نهائيًا ولن يجرؤ بعد هذا اليوم بمطاردتها وإزعاجها. بعد عدة دقائق عادت، دون أن تنظر إلي، وتوجهت إلى بيت النوم، أحسست بها تلبس ألبستها وتتزين للخروج. حينما أتمت طقوس زينتها عبرت من أمامي وقالت ومسحة من الخجل أو كذلك خيل لي، وهو خجل غير معتاد في طبع كريمة يكسو محياها:

- سأخرج مع بيرنارد لنجلس ونتبادل الحديث، وربما تناولنا الغداء معًا، إلى اللقاء عمر.

هكذا ببساطة تخرج مع بيرنارد، أنا الذي طالما راهنت على صمودها، وهي التي غيرت العمل من أجل أن تتخلص منه كما قالت، ومن إلحاحه المستمر عليها. هكذا ببساطة وبمجرد أن طرق الباب، استجابت له وانقادت كالعمياء وراءه.

لا أنكر أنني أحسست بنار غيرة لاهبة تلسع قلبي، نار حارقة اشتعلت في كل كياني. هل تتلاعب بي، تقول لي شيئًا، لكنها في الخفاء تلعب لعبة ماكرة ودنيئة مع هذا البيرنارد العادي الذي وصفته لي سابقًا بأنه يشبه نجما من نجوم السينما؟ في حين أنه

في الواقع مجرد شخص لا يمكن وصفه حتى بالعادي، ولا يمكن أن يليق بكريمة في جمالها وحلو معشرها وحلاوتها التي تقطر من كل كيانها. لم أستطع إيجاد أي مبرر لكريمة، بل في الواقع أحسست بحقد ما نحوها، حقد ممزوج بالغضب العارم، حقد لا أنكر أنه أعمى بصري وبصيرتي، وسجنني في حلقة ضيقة خنقت أنفاسي. ماذا تراهم سيفعلان الآن؟ سيعرف ذلك الثعلب كيف يأكل مخها، وكيف يغويها، فهي رغم ذكائها إلا أنها فتاة نزقة ومندفعة ولا تتحكم في تصرفاتها أحيانا. فما دامت قد قبلت أن تخرج معه بهذه البساطة، فستقبل منه كل شيء بالبساطة نفسها أيضًا. ثم هل حقًا ما كانت تردده دوما على مسامعي، ضمنيا، بأنني الرجل الأول والوحيد في حياتها بعد طلاقها؟ لقد بدأت أشك في كل شيء، من الآن فصاعدا فهذه الكريمة لن تكون أبدًا تلك الكريمة السابقة. سقطت من نفسي سقوطا ذريعا ومحبطا، وقعت من صرح عال كنت أضعها عليه وفوقه بتقدير كبير لا يماثله أي تقدير آخر. سقطت كريمة من عيني مثل مزهرية جميلة من الخزف الصيني النادر، وتهشمت إلى شظايا غير قابلة للترميم.

لكن في المقابل، لماذا أثير كل هذه الضجة، وأضخم الأمور بهذا الشكل المثير والغريب لمجرد أنها خرجت مع شخص لم تنف حبها له؟ بينما أنا الذي أمارس مع كارولين كل شيء، لا أجد غضاضة في ذلك لأنني رجل، ولأنني بذكوريتي يحل لي مالا يحل لكريمة التي لم نعترف لبعضنا بأي روابط في أي وقت من

الأوقات، ولم نلزم بعضنا بأي نوع من الالتزامات. يجب أن أتحلى ببعض الواقعية تجاه كريمة وألا أظلمها. لكن مع كل شيء أحس بأشواك حادة تُغرز في قلبي من الغيرة، غيرة لا أجد لها من مبرر واقعي. هل فقط لأننا نتبادل السرير من حين لآخر يجب أن أحتكرها وأمنعها من الشخص الذي تحبه؟

وأخيرا هل يمكن لي أن أنكر أن سبب كل هذا النحيب والبكاء الذي أصدره الآن صامتا على كريمة هو من نتاج حب ربما لم تتضح ملامحه بعد، حب بعيد يستوطن جزيرة نائية في جزء منسي من محيط قلبي الشاسع؟ في كل الأحوال، وبكل المقاييس، أنا أعتبر كريمة من أكثر الناس قربا إلى قلبي. إذن غيرتي وغضبي وثورتي وكل هذه العاصفة التي أثيرها هي مشروعة ولها ما يبررها على نحو ما من الزاوية التي أنظر من خلالها للأشياء على الأقل.

تعكر مزاجي ذلك اليوم تمامًا، كنت أدرك بأنني سأذهب إلى موعد كارولين مشتت الذهن، غائب البال، ولست أدري كيف سيكون موقفي مع كارولين التي تنتظر مني مرحا وانشراحا ودعابات أنا الآن لست مستعدا لها، ولا أجد القدرة في نفسي على خلقها أو اختلاقها، أو حتى اصطناع جزء منها.

من أي جحيم انبثقت كارولين في ذلك اليوم الذي كنت أجلس فيه بمقهى دوفلوغ بحي سانت جيرمان؟ ومن أي عالم غريب

وعجيب خرجت عليَّ كريمة لتورطني مع نفسي ومع صور ريم، والآن تترك في أعماقي بصمات جارحة لغروري أمام رجل آخر أراه يأتي ويقودها من يدها إلى مكان ما. كيف سأنظر من اليوم فصاعدا إلى كريمة وهي تمارس طقوسها المعتادة قبل أن تتسلل إلى الفراش؟ كيف سأنظر إلى جسدها العاري وأنا أتصور أياد أخرى لامستها وداعبتها؟ كيف يمكنني أن أتلقى كلماتها الرقيقة وهي تهمس بها في أذني وأنا أعرف أنها قالت مثلها أو أعذب منها لشخص آخر. كل شيء سيتغير منذ الآن، لن نستطيع، أو على الأقل لن أستطيع أن أكون أنا نفسي مع كريمة كما كنت دائمًا، هناك هوة عميقة فصلت فجأة بيننا.

كنت لا أزال أبحلق في الكمبيوتر، وأنا في واقع الأمر لاهٍ عنه، ولاه عن نفسي أيضًا. قمت من مكاني وأنا أروم ريحًا رطبة تخفف وجع قلبي. رششت من جديد العطر على صور ريم، عطر كثير جدًا، كنت أريد أن أنتقم من كريمة، حين تدخل البيت ستدوخها هذه الروائح، ياه! كم يصبح العشاق أحيانًا قساة على بعضهم؟ كم يتركون أنفسهم بدون رحمة يجلدون محبيهم بقسوة بالغة، لا لشيء إلا لأنهم يحبونهم، إنها مفارقة حقا، مفارقة عجيبة وغريبة في الواقع.

كان موعدي مع كارولين يقترب، لذلك بدأت بسرعة، رغم كل شيء أعتني بنفسي، اعتناء يليق بلقاء كارولين قطتي

الفرنسية الصغيرة، وبمطعم المنصورية المغربي الفاخر،وبشخصي أنا أيضًا.

عند باب مطعم المنصورية التقينا أنا وكارولين، لم أدر كيف استطعت إخراج ابتسامة باهتة من شفتي، عانقتها بحرارة، قبلتها كما أفعل عادة، أولاً على عينيها وثانيا على شفتيها. ثم ضممتها بحنان إلى صدري، ذلك الحنان الذي أنا من كان يحتاجه منها في واقع الأمر وفي ذلك الوقت بالذات. مشكلتنا نحن الرجال حين نشعر بالغيرة أو بالحب يصبح مزاجنا شبيها بمزاج الأطفال، بل اننا نمارس ذلك المزاج تمامًا مثل مزاج الأطفال. وضعت يدي على خصر قطتي الصغيرة الوديعة ودخلنا المطعم الفخم المزدان بألوان الشرق، ورحيق زهور مدينة قلعة مكونة والفسيفساء المغربية الفاسية الشهيرة، والنقوش المبثوثة على الجدران، واللوحات التي تعكس واقع وعبق أريج الطبيعة العربية. كنت منبهرا بسحر المكان الذي أدخل إليه لأول مرة، بينما كارولين المتعودة على مطعم المنصورية لا يبدو عليها نفس التأثير الذي أحدثته أجواء المطعم حولي في ذلك الوقت. كانت كارولين قد اقترحت طاولة في مكان قصي يشبه غالبًا أمكنة العشاق الذين يرومون العزلة والوحدة، وينأون بأنفسهم في عالم خاص بهم وحدهم لا يشاركهم فيه أي شخص آخر. جلسنا متقابلين، بمجرد ما نظرت في وجهي هذه الأخيرة حتى صاحت بارتياع حقيقي وصادق:

**- يا الهي، وجهك يبدو شاحبا جدًا، ماذا جرى لك يا عمر؟**

**هل يتحتم أن أكذب مرة أخرى وأفبرك قصة تعيسة كما أفعل غالبًا، أم أقول الحقيقة الغبية التي لن تجعل مني إلا مثار سخرية ونفور من لدنها؟ وأكيد أنها ستغادرني على التو وتتركني هنا أعتصر داخلي كل خيبات وألم وعذابات اليوم، خيباتها هي وخيبات كريمة.**

**أجبتها بصوت أردته أن يخرج عاديًا، لكنه لم يكن كذلك إطلاقا:**

**- هل حقًا أبدو شاحبًا؟**

**- نعم، انك تبدو شاحبا بشكل لم أراك عليه من قبل أبدًا.**

**وجدتها فرصة لأثبت صحة كلامي الذي قلته لها عبر الهاتف:**

**- ما عايشته في المغرب أثر في نفسي تأثيرًا كبيرًا، الاعتداء عليك حفر في قلبي جرحا غائرا ولم يعفني من المسؤولية، ظللت أشعر بالذنب، لقد صاحبتك إلى المغرب لأحميك في واقع الأمر، تلك كانت مهمتي، ألم أنصحك في البداية بأنه يتوجب عليك أن تبحثي عن مرافق إذا أردت خوض مثل هذا السفر المغامراتي؟! لقد كنت أدرك المخاطر، ولكنني للأسف لم أستطع حمايتك.**

**- عمر، لو كنت أريد الحماية لاصطحبت أكثر من شخص مستعد ليحميني، لكنني أردتك أنت لتصاحبني إلى المغرب وليس أي شخص آخر، هل تفهمني؟**

- مع ذلك أشعر بالذنب، أنا من كان إلى جانبك وبالتالي أنا من كان يجب أن يوفر لك الحماية.

- لا تفكر بهذا الشكل، علينا أن نتجاوز حادث محاولة الاغتصاب، هذا أمر لم يعد مطروحا. حاول أن تكون أنت نفسك، عمر الذي أعرفه.

- ليس بمقدورنا أن نزيل الشحوب من وجوهنا متى وأينما أردنا، إنها حالة تستبد بالمرء على حين غرة، لكنني لن أنغص عليك جلسة اليوم التي أريدها أنا أيضًا مناسبة لطي صفحة الماضي القريب، والأحداث المؤلمة في المغرب.

كانت الأجواء في مطعم المنصورية مفعمة بالمرح والزهو، صدحت موسيقى شعبية راقصة تناثرت كزهور عذبة في النفوس، تألقت الأضواء الصفراء والحمراء والبرتقالية لتشكل مشهدا بهيجا أنساني البعض من شجوني.

سألت كارولين:

- هل كنت تأتين إلى هنا مرارًا.

- على الأقل مرة كل شهرين، تروق لي وجبة الكسكس، وتروق لي الأجواء الشرقية الساحرة.

- كنت تجيئين بمفردك أم برفقة أصدقاء؟

- غالبًا برفقة أصدقاء.

ظلت عبارة أصدقاء معلقة في ذهني، إنها فتاة منفتحة على ذاتها أولاً وعلى العالم وثقافات العالم ثانيًا، فلا غرو أن تجدها تأتي إلى

هنا برفقة مغربي أو جزائري أو تونسي أو إفريقي. كل امرأة فرنسية يجب أن تمر عبر تجربة حميمية مغاربية وإفريقية، وإلا ستكون تجاربها الحميمية منقوصة. كارولين لن تكون استثناء طبعًا. بعد قليل حضر الأكل، صحن الكسكس المكلل بالخضر ولحم الضأن، ثم عدة أنواع من السلطة المغربية الأصيلة. التهمنا الطعام بشهية ونحن نتحدث عن الجو الذي أصبح خلال اليومين الماضيين قارسًا وباردًا جدًا، وتحدثنا أيضًا عن الدراسة، قالت بأنها تجد وتجتهد لأجل إنهاء ديبلومها بنجاح، وربما سافرت بعد ذلك إلى مقاطعة الكيبيك في كندا، ولن يحدث ذلك طبعًا إلا بعد سنتين.

قالت لي على حين غرة:

- يا له من أسى يغلف نظراتك، إنني أشفق عليك يا عمر، هناك شيء ما يشغلك لكنك لا تريد الإفصاح عنه.

للمرأة دائمًا حاسة صادقة تجاه الرجل، إنها تستطيع أن تسبر أغواره أكثر مما يستطيع هو. أكيد كان كلامها صحيحًا وكنت لا أزال تحت وقع الصدمة التي أحدثتها كريمة في أعماقي، بل أكثر من ذلك في مصداقيتها كشخص عزيز على نفسي. كنت متواجدا حقًا مع كارولين في مطعم المنصورية وأمامنا صحن الكسكس ونحن نأكل ونتبادل الحديث، كان كياني وجسمي متواجدا فعلاً هناك، لكن ذهني كان في مقهى ما أو مطعم صغير بعيد يضم عاشقين مولهين يمارسان كل طقوس العشق

الصامت بينهما. أو ربما من يدري، في غرفة مظلمة الستائر في شقة من شقق باريس المدينة الباردة والحارة في نفس الوقت.

- كلامك صحيح يا كارولين، أنا في حالة محيرة لا أستطيع تفسيرها، ولكنها حتمًا عابرة، حينما نلتقي المرة المقبلة ستجدين عمر الذي تعرفينه، عمر المرح الضاحك المليء بالحياة. عمر المنتشي بك وبوجودك وبوجهك الذي ينضح بالود والسعادة ويمنحهما لكل من ينظر إليك.

- أشكرك أولاً على هذا الكلام الذي أرجو أن أستحقه، ثم أنني أتمنى السعادة والطمأنينة لك، لأنك وأنت في حالة حيوية ونشاط تبدو أكثر نضارة، مع أنك الآن بالرغم من كل شيء فإنك تبدو متألقًا وجميلاً كما العادة.

هل كانت تغازلني كارولين ذلك اليوم؟ نعم ذلك ما استنتجته، كانت تود أن تصل بأسرع وقت لنقطة معينة لم أكن لأفهمها حتى تلك اللحظة. قلت لها ضاحكا:

- هذه مجاملة لطيفة منك أعتز بها مع ذلك، وسأحتفظ بها ولن أفرط فيها طبعًا.

- ليست مجاملة إنها الحقيقة يا عمر، يجب أن تصدقني.

فكرت أن أغرقها بالمدح والثناء والغزل، لكنني تذكرت أن ثقافة الفرنسيين تقتضي الاقتصاد في الغزل والاقتصار على العبارات المقتضبة ذات الدلالات الموحية الصادقة، لذلك فضلت الصمت والتعبير بكلمات قليلة.

- شكرا لك كارولين، يا تحفتي الصغيرة العزيزة.

قالت لي بعد أن أكملنا الأكل:

- كنت قد هيأت برنامجًا معينًا بعد خروجنا من المطعم، وبما أنك محبطا وحزينا، وأنت على هذه الحالة الكبيرة من الأسى سأترك الأمر لفرصة مقبلة. هناك مفارقة تشغلني دائمًا وهي أننا قريبون جدًا من بعضنا لدرجة الاحتكاك الشديد الذي يتبدى في كل شيء، ولكننا في الوقت نفسه بعيدون وكأن لا صلة تجمعنا.

إلى أي شيء تومئ هذه القطة الفرنسية التي لم تعد صغيرة ولم تعد بريئة؟ هل تريد أن تنشب مخالبها الحادة الموجعة في قلبي المرهف الذي لا يحتاج إلى تمزيق أكثر؟ عن أي بعد أو قرب تتحدث؟ إنها ليست من الغباء لكي توحي بهذه الكلمات وتلقي بها هكذا مصادفة؟ غادرنا أنا وكارولين مطعم المنصورية، كان الجو باردا جدًا، أخذت ذراعها ورحنا نمشي بوداعة على الرصيف المندى برذاذ المطر الخفيف. كانت تمشي إلى جانبي وتتطلع من حين لآخر إلى وجهي بعيون مفعمة بمعان مختلفة لم أجرؤ حينذاك عل تفسيرها، لكنني شعرت حيالها بحميمية صاخبة انتشرت داخلي وجعلتني أشعر بكارولين وبي على شكل عاشقين يمشيان جنب بعض يجمعهما الحب والوله وكل أنواع العشق وتجلياته. ذلك الشعور الذي أحسسته حينذاك، كان من تخطيط كارولين ورسمها لأدق تفاصيل عناصره، لكنني وجدت

نفسي فيه وفي خضمه برغبة أو بغير رغبة حقيقية مني، هل كنت أنا أيضًا أتواطأ مع نفسي ضد نفسي؟ تساءلت بنية بريئة، هل تحمل لي كارولين مشاعر معينة، هل أصبحت بغير إرادة منها سجينة عواطف حب نحوي؟ لا أجرؤ على الميل لهذا الاحتمال.

ودعتني كارولين بقبلة نارية وطويلة، طويلة جدًا، قبلة أفرغت فيها كل رحيق روحها ونفسها، بعد ذلك طلبت مني أن نلتقي قرب متحف اللوفر ثم نتمشى بعدها قليلاً بجانب نهر السين، في الأخير أضافت:

- هناك أشياء جد مهمة أريد أن نتحدث حولها تتعلق بنا نحن الاثنين، هل توافق؟

لم يكن لي بدا من الموافقة، ولم يكن لي من سبب لرفض طلبها من غير أي مسوغ معقول:

- طبعًا أوافق، ولكن في أي وقت؟

- غدًا على الساعة الحادية عشرة صباحا، هل يوافقك التوقيت؟

- نعم يوافقني جدًا.

- إلى اللقاء عمر عزيزي.

- إلى اللقاء كارولين، عصفورتي العزيزة الوديعة.

كالمعتاد أرسلت لها قبلة عبر الأثير، تلقيت مثلها على الفور، ثم ابتعدنا عن بعضنا كلٌّ إلى وجهته.

• • • •

## (١٩)

توجهتُ نحو محطة الحافلة، ومن ثمة إلى محل سكناي. فتحتُ باب المنزل وولجت إلى الداخل، قبل أن أنظر إلى أي شيء استرعى انتباهي ذلك الزخم غير المعقول من صور ريم التي تؤثث جدران البيت، رباه ماذا فعلت، إن هذا يعد جنونًا حقيقيًا بكل مقاييس ومعاني الجنون. بعد صدمة اللحظة الأولى وجدت كريمة جالسة على الأريكة وهي تتفرج على التلفزيون، بنفس الهدوء والسكينة التي تطغى عليها غالبا. حييتها، حاولت ما أمكن أن أبدو كما العادة وكأن شيئًا لم يقع. جلست إلى جوارها بعد أن استبدلت ملابسي ورحت أنظر أنا الآخر إلى التلفزيون، لم أحاول أن أسألها عما دار بينها وبيرنارد، كنت أنتظر توضيحات تلقائية منها، لكنها بحدس المرأة الماكر، وبسبب الصور المزروعة كالنجوم في المنزل، لم تفعل، ظلت هي أيضًا صامتة في إطار لعبة نشترك معًا في ممارستها بخبث مفضوح في الحقيقة.

بعد لحظات صمت طويلة وقاسية، قالت لتستدرجني ربما:

- هل قضيت وقتًا ممتعًا مع صديقك.

أجبت بغير كثير اكتراث:

- جلسنا كثيرًا وتحدثنا كثيرًا، وتمتعنا إذا جاز أن نسمي الجلوس والتحدث متعة.

في تلك الحالة كان ينبغي أن أسألها السؤال نفسه، وهو ما كانت تريد الوصول إليه، لتوجه لي صفعة قوية أخرى تعاقبني فيها على عطر Place Vendôme المدوخ الذي نثرته، لكنني بحكمة تقتضيها الضرورة، ظللتُ صامتًا ولم أطرح عليها السؤال.

استمرت هي أيضًا بدورها تلعب معي اللعبة نفسها، كنا في الواقع معًا الخاسرين فيها من الناحية النفسية، لأن مثل تلك اللعبة لم تكن إلا دليلا على احتراق داخلي يشتعل في أعماقنا. راحت تدور من محطة تلفزيون إلى أخرى دون أن تستقر على أي محطة بعينها، وهو الأمر الذي جعلني أتوقع بأنها شاردة الذهن وسارحة بأفكارها في عوالم بعيدة، ولا تجد في الواقع أي رغبة لمشاهدة أي شيء في التلفزيون.

أخيرا نهضت وغادرت حجرة الجلوس بدون أن تقول أي شيء، ذهبت إلى بيت النوم مبكرا طبعًا، لم يكن موعد النوم المعتاد قد حان بعد، بينما بقيت وحدي جالسا أتفرج على فضائية إخبارية عربية، ولم أكن أنوي اللحاق بكريمة إلا حين أتأكد بأنها قد نامت فعلاً. بعد وقت متأخر من الليل نسبيا، تأكدت فيه أن كريمة ستكون بدون شك قد استغرقت في نوم عميق جدًا، انسللت أنا أيضًا بدوري إلى الفراش محاولا بذل كل جهدي لكي لا أوقظها. حينما استقررت في الفراش استقرارا تاما، استبد بي إحساس أن كريمة ليست نائمة، رغم أنها كانت تصطنع ذلك. لماذا ظلت مستيقظة في الفراش حتى ذلك الوقت؟ ما الذي يجعل

النوم عصيا على عيونها الجميلة؟ لم أجد الإجابة طبعًا، كريمة تحولت بالنسبة لي منذ زمن طويل إلى ألغاز غامضة ومحيرة لم أعد أفهمها، ولا أفهم تصرفاتها ولا نفسيتها.

في صباح الأحد استيقظنا كالعادة، أنا وكريمة، تبادلنا تحية صباحية باردة في الفراش، هي كانت متمددة في الجانب الآخر من السرير، وأنا في الجانب الآخر، لم يكن هناك احتكاك لجسدينا. حركة غير مقصودة ، أو هو وضع غير مقصود، لكنه يحمل في طياته العديد من الدلالات. بعد قليل نهضت من الفراش وتوجهت إلى الحمام، حلقت ذقني، ثم ارتديت ملابسي، ثم خرجت إلى حلواني الحي لأقتني بعض حلويات الفطور، اصطدمت في الخارج ببرد قارس وبندف ثلجية تتساقط من حين لآخر، كانت تلك الندف الثلجية تذوب بمجرد ملامستها للإسفلت والرصيف. لم يخل المشهد من رومانسية حالمة، استمدت البعض من تشكيلاتها من داخل نفسي التي تمازجت تمامًا مع ندف الثلج والبرد. سيكون طقس اليوم سيئا جدًا إذا استمر سقوط الثلج، قلت في نفسي، أنا الملتزم بموعد بارد مع كارولين على ضفاف نهر السين، وفي طقس بارد أيضًا كهذا، لم أعرف كيف سيكون اللقاء ولا ملابساته، وكيف ستؤثر عليه الثلوج التي ربما ازدادت مع الوقت. اشتريت الحلويات المعهودة من الحلواني، وقفلت راجعا إلى المنزل بخطوات حثيثة، فالبرد كان لاسعا وقارسا. ستكون كريمة كما أتوقع، أو كما يجب أن أتوقع حسب العادة، قد

أعدت إبريق القهوة التي تتفنن في صنعها أيما تفنن. كنت قررت أن أتحدث إلى كريمة قليلاً، وربما سألتها أيضًا عن تفاصيل لقائها ببيرنارد حتى أذيب الجمود الذي ساد بيننا منذ مساء أمس.

لم تكن كريمة في قاعة الجلوس، ولم أشم أيضًا أريج قهوتها المعتادة، إنها لا تزال في فراشها. لم أهتم للأمر، لها أن تفعل ما تشاء، ولها حرية التصرف بالطريقة التي تحلو لها، بالرغم من أنني كنت أعلم بأنها طريقة متعمدة تروم من ورائها إرسال خطاب معين، خطاب محمل بتجاهل مقصود، تروم من خلاله معاقبتي على شيء غير موجود في الواقع. أعددت القهوة بنفسي، وجلست أمام طاولة المطبخ أتناول فطوري وحيدًا، أتأمل ندف الثلج التي ترتطم بزجاج النافذة الكبيرة لتتحول إلى قطرات ماء تنز في الأخير إلى الأسفل. ياله من جو سيئ وجميل أيضًا كان يغلف فضاءات باريس ذلك اليوم، حينما يكون الجو سيئا أو مثلجا في باريس، فانه ينعكس على وجوه الناس والمارة وسلوكياتهم كذلك. تراهم متجهمين، ويمشون بعجلة غير مبررة، بينما ترى البعض الآخر يتفاعل إيجابيا مع الطقس المفعم بسقوط الثلج الذي يدخل البهجة إلى قلوبهم، وربما حررهم من ضغط أيام فصل شتاء طويلة وقلقة، ورتابة طقس متشابه من حيث القتامة وسقوط الأمطار الغزيرة. بعد أن أنهيت أكلي ارتديت ملابسي الشتوية الثقيلة، المعطف الأزرق الداكن الطويل وتحته كالعادة قميص صوفي دافئ، ثم وضعت على عنقي شالا، وارتديت قفازات أيضًا حتى لا تتجمد أصابعي من البرد. خرجت من المنزل مبكرا، لم

أكن أرغب في رؤية كريمة، خصوصًا وأنها تعمدت من جانبها أن تتجاهلني في هذا الصباح. خرجت مبكرا رغم أن موعد كارولين لا يزال بعيدا، لم أصادف في ممر المنزل كريمة، كانت لا تزال في فراشها منكمشة ومستمتعة بالدفء، أو أنها كانت فريسة للهواجس والشكوك والظنون القاتلة المستبدة بها في هذا الوقت. أو أنها ببساطة كانت تحاول أن تتجاهلني، وتوجه لي عقابا لم يكن في الواقع يعني الكثير.

فكرت أين يمكنني أن أذهب في هذا الصباح الباكر، قررت الذهاب برغبة دفينة وغير معلنة إلى مقهى وبار دوفلوغ بحي سانت جيرمان. المقهى الذي شهد لقائي المشهود بكارولين، والملابسات التي أحاطت بذلك اللقاء، وما تبع كل ذلك من أحداث لا أزال أعيش في خضمها مع القطة الفرنسية الصغيرة حتى هذا الوقت. هل عودتي الآن إلى المكان تشبه بشكل أو آخر عودة المجرم إلى مسرح الجريمة؟ ربما، إذا أفرغنا مفهوم الجريمة من معناه القانوني والأخلاقي القوي الصادم. هناك بدأت الرحلة الطويلة المتذبذبة بعلاقتي الضبابية غير الواضحة بكارولين، ومن هناك انطلقنا نحو مسار مجهول لا يعلم أي أحد منا إلى أي اتجاه سيقود، من هناك ارتسمت خريطة طريق ملتوية ومعوجة وربما لا تقود إلى أي شيء. كانت ندف الثلج تزداد كثافة في السقوط مع مرور الوقت. بالنسبة لكارولين ليست مشكلة، فهي تنحدر من قمم جبال الألب، وولدت في الثلج، وتربت في أحضان

الثلج، لكنني أنا القادم من لهيب الحر اللافح في بلدي، الساقط من الشمس الحارقة، كيف سيكون إحساسي وأنا أمشي تحت انهمار ثلج كثيف، يزور باريس لأول مرة بهذه الكثافة في هذه السنة الحزينة الموغلة في كآبتها ووحشتها.

كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة صباحا، لذلك كان عليَّ أن ألحق سريعًا المترو للوصول إلى الموعد في الوقت المحدد. داخل أنفاق الميترو تغيب معالم باريس، باريس الحقيقية بمعالمها وببرجها الباسق ايفل ومتحف اللوفر وقوس النصر ونهر السين والشانزيليزي، والمونبارناس، وكاتدرائية نوتردام ومعهد العالم العربي والباستيل وغيرها من المعالم الشهيرة. داخل الميترو، تشعر وكأنك تدخل عوالم أخرى لا تنتمي للمدينة ولا لأجوائها الملبدة في هذه الأثناء بالثلوج والبرد القارس. الأنفاق تحيلك توا إلى أحاسيس تشبه الأحاسيس التي تراودني في بعض الحالات، حيث تتحول نفسي إلى أنفاق ملتوية وطويلة ومتسردبة ومغرقة في المجهول والغموض. نزلت من الميترو، وسرت في ردهاته باتجاه المخرج، صدمتني على الفور موجة باردة محملة بثلج يتساقط بغزارة في هذا الصباح الباريسي البارد. مشيت قليلاً تحت الثلج المنهمر بكثافة، كنت أحس به يرتطم باردا ونديا بوجهي، للثلج أيضًا لذته وعذوبته، إنه يشبه في كل شيء كارولين، ابتداء من البياض والصفاء، وانتهاء بالحزن الممزوج بالفرح الذي هو أحد مكونات شخصية قطتي الفرنسية الصغيرة.

كنت أمشي على الرصيف المحاذي لنهر السين، النهر الجميل الذي كان يعانق في تلك اللحظات ندف الثلج بفرح غامر، كانت تلك الندف من الثلج تندمج سريعًا معه لتشكل وحدة الأصل بينهما، الماء الذي يرتفع من الأرض، ثم ينزل إليها، ثم يرتفع من جديد لينزل من جديد، وهكذا في حركية مستمرة ودائمة لا تنتهي. إنها حلقة من حلقات تلاقح الطبيعة التي نحن أيضًا جزء لا يتجزأ منها، رغم أننا نتصور أنفسنا جسما محايدا ينظر إلى الطبيعة كجسم آخر بعيدًا في الجهة المقابلة. فجأة لمحت كارولين، لمحتها من بعيد مقبلة باتجاهي، كانت تبدو من خلال كثافة الثلج وضبابه ترتدي معطفا أسودا وسروالا أسودا وطاقية سوداء تغطي بها شعرها، وترتدي أيضًا حذاء أسودا وقفازات حمراء. لم تكن ألوان ألبستها اعتباطا، لقد اختارت الألوان القاتمة السوداء لتتناقض مع لون الثلج الأبيض، وبذلك تنسجم معه في الوقت نفسه أيضًا انسجاما تاما وجميلا، هذه الفرنسية الصغيرة، تتابع بلا شك مجلات الموضة الفصلية، أو ربما ببساطة تمتلك حسا ذوقيا رفيعا، لكنها في مرات كثيرة تبدو مجرد فتاة عادية ترتدي سروال جينز عادي، وقميص عادي، كما كان شأنها في تلك الفترة القصيرة التي اشتغلت خلالها بيننا في المطعم الإيطالي. أشرق وجهها الأبيض الذي يتماهى مع لون الثلج، بابتسامة عريضة وهي تقبل نحوي. ابتسمت لها أنا أيضًا بود زائد، كان شكلها بديعا ويدخل الفرح والسعادة إلى النفس. تعانقنا

عناقا حارا كما هو الحال دائمًا، ضممتها إليَّ بقوة، أردت أن تكون تلك الضمة مفرطة، لكنها في الوقت نفسه رقيقة ولطيفة. قبلتها على عينيها، ثم على شفتيها وكان الثلج يختلط بقبلنا الحارة النارية.

- كم أنت جميلة يا كارولين؟

- حقًا؟

- نعم، أكثر من ذلك هذا التناسق البديع بين ألبستك السوداء والثلج الأبيض الذي ينهمر غزيرا فوقك وحولك.

- شكرًا، هل تدري؟ سأقول لك الحقيقة، لقد تزينت اليوم لك، لك وحدك فقط يا عمر.

- هل أهمك لهذه الدرجة؟

سألتها سؤالاً خطيرًا، لم يكن من الحكمة لأسأله لأنه سيجر عليَّ متاعب كنت في غنى عنها في واقع الأمر.

- طبعًا تهمني، وربما تهمني أكثر بكثير مما تتصور. ثم ماذا عني أنا، هل أهمك أيضًا بالقدر نفسه، أم تعتبرني شيئًا عابرًا في حياتك؟

يا له من سؤال فخ، في كل الأحوال لا تستطيع جرح مشاعر أنثى، كل ما تستطيعه هو أن تكون لبقا وسريع البديهة، لكن هذه السرعة في البديهة لا تتوفر لي دائمًا، لذلك غالبًا ما أجدني في مواقف جد حرجة، بل أكثر من ذلك قد يجر الأمر عليَّ التزامات معينة لا أرغب في تبعاتها مطلقا. كنا نسير وذراعها في

ذراعي كما ينبغي لعاشقين أن يسيران جنب نهر السين، نهر العشق نهر الجمال نهر السحر، بينما كان الثلج الكثيف يواصل انهماره علينا.

قلت لها ضاحكًا:

- كيف أعتبرك شيئًا عابرًا في حياتي وأنت التي طبعت وجودك داخلي بقوة تماثل قوة سقوط هذا الثلج الكثيف.

كنت أتصور أنني قلت لها ما يشفي غليلها، وستكون راضية بما سمعت، وهو ما حصل فعلاً، إلا أنني أحسست بأنها تحوم حول شيء ما لم أستطع حينذاك إدراكه. ماذا تريدين يا كارولين؟ اتركينا هكذا بدون أي التزامات تقيدنا، اتركينا نسير جنب بعض، سواء تحت الشمس أو تحت الثلج، بعفوية وتلقائية بدون أن نجبر أنفسنا باعتبارات تقيدنا أكثر مما تحررنا. أرجوك افهميني، هناك في حياتي امرأة افتراضية، امرأة جميلة جدًا تأخذ كل مشاعري وتأخذني أنا أيضًا، لا أريد لامرأة أخرى أن تحل محلها، إنها الملهمة لي في لحظات يأسي القاتل، في لحظات بؤسي ويتمي النفسي، وهي بلسمي لجراحي النازفة هنا في باريس، ببساطة يا كارولين عشقي ريم هو من نوع مختلف، وقد يكون ذلك العشق غير واقعي أيضًا، وتلك هي خصوصيته التي تميزه، لأنني ربما ببساطة أخاف من حب حقيقي وواقعي.

تراكم فوقنا الكثير من الثلج، وقفنا لحظة أنا وكارولين نتأمل نهر السين وهو يعانق ندف الثلج بحب عارم، انهما يتحدان مع

بعضهما ويرسمان لوحة جميلة لتلاقح الطبيعة وتزاوجها حتى في برودتها وقساوتها وعنفها الذي لا نستشعره إلا نحن البشر. هل كان ذلك المشهد يمثل حالتنا؟ لا أعتقد، ولا أعتقد أيضًا أن كارولين كانت تفكر بذلك. أو ربما كانت... من يدري.

- هل تحب الثلج؟

سألتني على حين غرة وأنا أنظر إلى نهر السين وأتأمل الثلج المتساقط.

أجبتها كما ينبغي لأي واحد أن يجيب بشكل عفوي وتلقائي:

- نعم أحب الثلج، إنه يجسد النقاء وكل شيء جميل في الكون.

فكرت قليلاً وقلت لها أيضًا:

- لن أسألك السؤال نفسه، فأنت سليلة الثلج، ولدت فيه، ومنه خلقت، بل يمكنني أن أقول أنك ندفة جميلة ولطيفة من ندف الثلج المتناثر الآن في سماء باريس.

كان حوارنا ذلك اليوم تحت انهمار الثلج، وبجانب نهر السين يكتسي طابعا رومانسيا خالصا، ربما كارولين هي من دفع بالحوار إلى ذلك الاتجاه، أو ربما الأجواء الجميلة التي لا تخلو من رومانسية ساحرة هي التي أوحت بكل ذلك. كنا لا نزال نمشي تحت الثلج، وبجانب نهر السين، حينما قالت كارولين بلهجة بدت لي حينذاك محملة بنوع لطيف من العتاب:

- كلمة كنت أودُّ سماعها منك ونحن في ضريح سيدي مفتاح بالمغرب، لكنك لم تقلها، لست أدري لماذا لم تقلها مع أن كل

المؤشرات كانت تدفع لذلك الاتجاه. كان سيكون الأمر ممتعا أيضًا، وخارقا للعادة لو قلتها ونحن في الطائرة بين السماء والأرض، تصور كلمة مثل تلك تقال فوق السحاب وتحت السماء، كم كنت سأكون سعيدة بذلك، لا يحدث أن تقال تلك الكلمة في مثل ذلك الفضاء إلا نادرا جدًا ربما. لكنك مرة أخرى خيبت أملي ولم تقلها، لم يكن بالضرورة ما أفكر فيه هو ما تفكر فيه أنت، بالشكل والطريقة نفسها. انتظرت هنا أن تقولها في باريس، عبر مكالمة هاتفية لطيفة منك عقب وصولنا، أو لحظة نزولنا من الطائرة وافتراقنا كل إلى وجهته، لم لا؟ لكنك لم تقل تلك الكلمة. مع ذلك انتظرت أن تقولها خصوصًا أمس بمطعم المنصورية، بطابعه وطقوسه الموحية بالدلالات العميقة الموحية بالتقاء الشرق والغرب، كانت تلك الكلمة كفيلة بتجسيد نوع من التوحد الذي ينبغي أن يسبغ الحياة في باريس. لكن تلك الكلمة لم تخرج من فمك، تفهمت الأمر لأن مزاجك كان مختلفًا وغير رائق ولا يناسب شاعرية كلمة مثل تلك. الآن وتحت هذا الزخم البديع المفعم بكل المؤثرات الطبيعية المشكلة لمشهد رومانسي حقيقي، الآن وتحت هذا الثلج الأبيض، وهذه الأشجار التي تخلت مؤقتا عن حلتها العادية، ووسط هذا المشهد الذي قد لا يتكرر في هذه السنة، أطالبك بأن تجرؤ وتقولها، قلها بأي طريقة تشاء، وبأي شكل يروقك، المهم أن تقولها.

أكملت كارولين كلامها ثم أمعنت النظر إليَّ في محاولة لسبر أغوار نفسي العميقة، ولاستكشاف مكنونات ذاتي التي رمتها كلماتها في مستنقع موحل يصعب الهروب أو الانفلات منه.

رباه ماذا تريد هذه الفرنسية الصغيرة المشاغبة؟ أي كلمة تود سماعها؟ أنا لست جاهزا لأي تصريح ألزم به نفسي وأصبح سجينا له ربما العمر كله. لماذا تصر، مادامت لمست عدم تحمسي لقول أي شيء ينبئ بما تأمله مني. كيف سأتعامل الآن مع الموقف؟ كيف تواتيني نفسي المرهفة لتحطيم كرامة هذه الطفلة البريئة؟ ثم كيف ألزم نفسي بشيء لا أومن به ولا وجود له في ذاتي وقلبي أصلاً. ثم لماذا يجب أن أدفع ضريبة باهظة مقابل فعل اشتركنا فيه معًا دون أن أجبرها عليه، بل أكثر من ذلك أشعر وكأنها هي من سعت ورائي تحت إيحاء بأنني أشتهيها، وهذا كان صحيحًا في البداية على المستوى الغرائزي، ولم يكن صحيحًا على مستوى المشاعر والأحاسيس. إنني أعتبر كارولين صديقة جيدة وجميلة، نتجانس كثيرًا إلى حد بعيد في كل شيء تقريبًا ونتحد بحميمية شبه مطلقة، ولكن لا شيء أكثر من ذلك.

قلت لها لأربح قليلاً من الوقت:

- كارولين، لا أفهم ما تقصدين بالضبط، حبذا لو تشرحين بدقة أكثر.

ردَّتْ بنوع من الحدة والنرفزة:

- لا بل تفهم، والأكثر والأدهى من كل ذلك تدعي بأنك لا تفهم.

ظللنا صامتين لبعض الوقت، صدمني جوابها. حينذاك اعتبرت أن الموقف ينطوي على جدية مطلقة. كان ذراعها لا يزال في ذراعي والثلج الكثيف يتساقط فوقنا وحولنا، ماذا أقول لها بحق اللّه؟ أي إجابة تخرجني من المأزق بدون أن أجرح مشاعرها؟ كنت أدرك بأنني لن أستطيع البوح بتلك الكلمة التي ترغب في سماعها، وكنت أدرك أيضًا حجم الحرج الذي أجد نفسي فيه. لذلك رحت أقول أي شيء، كلام هرطقة غامض لا علاقة له بالواقع والحقيقة:

- اسمعي يا كارولين، لماذا نحاول دائمًا أن نسجن حريات أحاسيسنا في قمقم سحري غير واقعي غالبًا؟ لماذا لا نترك لأنفسنا العنان للمتعة التي هي أساس وجودنا، وهي مبدأ صراع البقاء الذي يخوضه الإنسان ضد نفسه في أغلب الأحيان؟ لماذا نورط أنفسنا في التزامات أعتبرها تشبه الضريبة التجارية المفروضة على مشاعرنا، في حين أن المشاعر يجب أن تكون متحررة من أي ضرائب كيفما كان شكلها أو نوعها.

قالت كارولين بعد أن سحبت ذراعها من ذراعي، فعلت ذلك بفظاظة واضحة:

- ما هذا الكلام يا عمر، أشعر وكأنك تتهرب، أشعر بك تحاول مخادعتي وهذا ما لا أرضاه أبدًا في علاقتنا، كنت أشعر دائمًا بأنك تلعب معي لعبة غير مستحبة، لكنني الآن أتأكد.

- أنا لا أتهرب أبدًا، إنني أقول ما أومن به.

حين تلفظت بهذه العبارة، أحسست بالغضب يتطاير من وجه كارولين كشظايا نارية ملتهبة. وقفت أمامي وأمسكتني من كتفي الاثنتين وقالت صارخة في وجهي:

- كان عليك أيها البليد الذي لا يفوقه أي بليد آخر في الدنيا أن تقول بأنك تحبني، وكنت سأقول لك بأنني أيضًا أحبك، لكنك نذل وحقير، لا يهمك إلا غرائزك البهيمية المتوحشة.

قالت عباراتها المهينة الأخيرة ثم صفعتني على خدي صفعة قوية لاسعة، أحسست بها مؤلمة بسبب الثلج والبرد، ثم انصرفت. انصرفت كارولين وأنا أتابعها بعينين مذهولتين، وقفت في مكاني وأنا أخفي يدي الاثنتين في جيوب معطفي الشتوي الطويل، بينما راحت عصفورة جبال الألب الحزينة الجميلة تبتعد بهدوء بخطوات هادئة وخافتة خلف غلالة ضباب الثلج الكثيف، تمشي مولية ظهرها إليَّ في مشهد بدا حزينا وجارحا كأقصى ما يكون الجرح والحزن، وعلى جميع المستويات. سرعان ما اختفت وسط بياض الثلج وتلاشت وكأنها لم تكن أبدًا. ياه! كيف يمكن للقصص أن تنتهي ببساطة؟ لم أتصور أبدًا أن قصة ما يمكنها أن

تتلاشى وتضمحل في اللا شيء هكذا وبهذه السرعة والقسوة، ولكن هل فعلاً القصص تنتهي؟ لا، نحن الذين ننتهي أما القصص الحلو منها والمر، فيبقى حيًّا وموجودًا في كل الأماكن والأزمنة التي عاشت فيها. اختفت كارولين ولم أعد أراها، اختفت تمامًا من الصورة ومن الثلج ومن أمام ناظري، لكن قصتها ستبقى موجودة وخالدة في كل شيء اشتركنا فيه، في كل فعل تبادلناه، في كل فرح أو حزن تقاسمناه. في الوقت نفسه تبدى لي فيه طيف نوراني يقترب مني برتابة ووداعة، طيف كالحلم يقبل بجلال ملائكي ساحر، طيف تحيطه هالة من البهاء الباهر، طيف كارولين بألقها ووهجها الجميل، ولكن حين وصلت إليَّ وهي باسمة الثغر، وأردت أن أفتح ذراعي لأحضنها إلى صدري وأضمها إلي، أفقت فجأة من أوهامي البليدة لأجدني ما أزال واقفًا في مكاني، والثلج الكثيف يتهاطل فوقي وحولي. لم أستطع أن أتحرك، كنت كمن فقد القدرة على التحكم في كل أعضائه، سجنت في لحظة معينة من التاريخ، وفي مكان معين من الجغرافيا، ولم أستطع أن أنفلت من الاثنين، سجنت داخل نفسي، وداخل حدود قاسية من رهبة حزينة أطبقت عليَّ كما يطبق النسر على فريسته. لحظة الوداع هي أقسى المشاعر التي يمكن أن تستبد بالإنسان، إنها تفوق الحزن وتفوق الكآبة والخوف. الوداع هو اقتطاع جزء منك وابتعاده عنك وأنت تتابعه بعينيك

بأسى لا ينتهي، ليتجمع داخلك كل شيء، الحزن والكآبة والقلق والخوف والألم.

ذهبت كارولين مع الثلج واختفت في أعماقه، لن أراها بعد أبدًا، يا لها من حقيقة مرة، حقيقة أتجرعها كالسم. ذهبت كارولين بدون رجعة، طرقت هذه الفكرة في رأسي مسامير حادة مؤلمة وقاسية، شعرت بحزن مفاجئ يخترق قلبي كشفرات حادة. مع كل شيء كان لكارولين مكان ما في حياتي، كان لها معنى مختلف ومغاير، لم أرض أبدًا أن تكون نهاية علاقتنا بهذا الشكل الحزين الكئيب غير المتوقع. أحسست بالذنب، أنبني ضميري تأنيبا شديدًا، آلمني أشد الألم. كارولين الجميلة البريئة التي أحبتني لا تستحق مثل هذه النهاية الكئيبة التي نشترك في كآبتها ولوعتها معا. إنها فتاة حساسة جدًا، وموسومة بحزن بهي يطالعك في كل تقاطيع نفسها المبهورة بمتع الحياة وملذاتها، هل سأتسبب في تعميق جراحها وحفر ثقوب غائرة من الكآبة في قلبها كما حدث للغجرية الساحرة في ضريح سيدي مفتاح؟ لا، حكاية الغجرية حكاية مختلفة، إنها حكاية غدر، غدر حقيقي وقاسي جدًا. أنا لم أغدر أحدا، ولم أعط وعدا لأي أحد، كما أنني لم ألزم نفسي بأي التزامات أمام كارولين، لعلها في لحظة ما تصورت بأنني أحبها بسبب تصرفات أعتقد بأنني أنا المسؤول عنها، ولكنني من غير ذلك أشعر أن ضميري مرتاح من ناحيتها وان كان حزني أنا أيضًا يعادل حزنها أو ربما يفوقه.

انتفضت فجأة فزعا حين سمعت عجوزا يمر بقربي وهو يخاطبني بأدب جم وبعطف أبوي واضح:

- سيدي.. سيدي، إذا بقيت هكذا واقفا تحت الثلج، ستتجمد حتما.. وتموت ببطء.

كان كلام العجوز يحمل في طياته بالنسبة لي دلالات شاسعة وكثيرة، لا تنتهي عند تلك الكلمات التي استخدمها ذلك العجوز الطيب.

- شكرًا لك.

قلت له بود، ثم تحسست مكان صفعة كارولين على خدي الذي كان لا يزال يؤلمني ألما مبرحا. حينذاك فقط انتبهت إلى حجم الثلج الذي تراكم علي، وإلى الوقت الطويل الذي قضيته واقفا في مكاني كعمود كهربائي معطوب، أو كشجرة نخل يابسة. شعرت بحجم البرد الذي جمد أوصالي. نفضت عني الثلج، ثم رحت أخطو بدون أي اتجاه، وجدتني تائها داخل أغوار نفسي وأزقة باريس المعتمة بالضباب الأبيض. وجدت نفسي أخيرًا في ساحة برج ايفل، رحت أتمشى على الثلج وحيدًا وبعيدا عن نفسي، كيف ستكون حياتي منذ الآن بدون كارولين؟ كيف ستكون حياتي بغير ضحكتها الربيعية المفعمة بالعنفوان والنشوة، بل كيف ستكون حياتي بدون أن أتذكر الجانب المشرق من اللحظات الممتعة التي جمعتنا. أعترف بأنني فقدت شيئًا كان أساسيًا يؤثث فضائي في باريس. شيئًا كان لصيقًا بذاتي، ومتجذرًا في

أعماقي. كل مخلوق تتعامل معه في هذه الأرض يترك بصمة معينة في حياتك، فما بالك بكارولين التي اشتركنا معًا في الكثير من الجنون والمتع والحزن وكل شيء.

أشفق عليك يا كارولين، بنفس القدر الذي أشفق فيه على نفسي، لقد جمعنا الفرح، وجمعتنا المتع، كما يجمعنا الآن الحزن، الحزن العميق الذي لا حد له. لست أقل مني حزنا يا كارولين، لست أبدًا أقل مني حزنا، أعرف أن قلبك الرقيق المرهف الحساس سيكون الآن منكسرا ومكلوما، ولكن يجب أن تدركي أن نفس الأمر ينطبق علي، أنا الذي أخطو الآن تحت ثلوج باريس المجمدة غير عابئ حتى بنفسي، متحملا هذا الصقيع كنوع من جلد الذات الذي أستحقه، أنا في حاجة لعملية جلد ذات لكي أتمكن من استرجاع توازن نفسي وروحي المتعبة الكئيبة الخاسرة لكل شيء. روحي المغرقة في بحر حيرة عجيبة وغريبة، حيرة تلقي بي كأشلاء قتيل مطعون طعنا موجعا في كل أنحاء جسمه.

وأنا أخطو بتثاقل وحزن يشل كل شيء في نفسي، رأيت بارا في الجانب المقابل للشارع، قطعت الشارع مهرولا حتى لا تدركني السيارات المقبلة، ثم ولجت البار. جلست بعيدًا بجانب زجاج النافذة، شعرت ببعض الدفء النسبي يتسرب محتشما إلى جسمي، تأملت الثلج وهو يذوب وينز على زجاج النافذة، كنت في حاجة إلى أن أغادر نفسي ولو مؤقتا على غرار الغجرية التي صادفتها في

ضريح سيدي مفتاح، تلك الفتاة التي عرفت كيف تجد مخرجا محزنا وجارحا لموقفها المحزن والجارح. طلبت شراب الباكاردي رغم أنه ليس شرابي المفضل، ربما بدافع خفي وحنين جارف نحو كارولين، أو استجابة لرغبة مستترة تجعلني متوهما أنني قريب في تلك اللحظة منها، لأن الباكاردي كان دائمًا شراب كارولين المفضل. رحت أكرع الشراب، شربت كثيرًا، وكان سيكون ذلك آخر عهدي بشرب الخمر. شربت إلى أن أحسست بدفء نسبي يعود إلي، لكنني ظللت تحت وطأة ارتعاشة غريبة استمرت تهزني هزا عنيفا لم تشفع كؤوس الباكاردي في تهدئتها، إنها رعشة كارولين التي أشعرها تنبع من الداخل قبل أن تنعكس على جسمي من الخارج، لتحيلني إلى مجرد حطام من تفاصيل كائن بشري تشويه لوعة فراق أنثى لا تستحق الفراق. بعد ساعة من مكوثي في البار خرجت وتوجهت إلى أقرب محطة للأوتوبيسات، كانت الثلوج لا تزال تتساقط بغزارة، غمرتني حالة البرد من جديد، ومن جديد وجدت نفسي مغمورا بالثلج الذي غطى رأسي ومعطفي، وحتى أشجان نفسي من الداخل التي أضحت باردة ومتجمدة. أي لعنة أصابتنا يا كارولين ليكون فراقنا في يوم حزين وكئيب كهذا اليوم، أي لعنة أصابتنا لنفترق في يوم غزير الثلوج بشكل لم يسبق له مثيل خلال المواسم الخمسة الأخيرة على الإطلاق؟ ماذا فعلنا أنا وأنت لتصيبنا لعنة مجهولة المصدر، في يوم كان يجب أن يكون يومًا للانكماش في

الفراش، والاغتراف من المتعة التي تجيدينها أيما إجادة يا كارولين؟

شعرت بدموع حقيقية تنهمر من عيني، الهي ماذا يحدث لي؟ إن الدموع تنز من مآقي، هل كنت مغرما بكارولين؟ هل كان عشقها يستتر في مكان ما من أعماقي؟ إنها المرة الأولى التي أبكي فيها امرأة، ولكن هل كنت فعلاً أبكي كارولين؟ لا، ليس بالضرورة، أنا متأكد من هذا، إنها مجرد لحظات انفعال لابد منها لتصريف احتقان نفسي كان مستوطنا في تلك اللحظة داخل أعماقي. احتقان هو ترسبات عدة، تشمل أيضًا كريمة ريم والغربة التي تهاجمني بوحشية قاتلة في هذه اللحظات الموسومة أساسا بالضعف الذي أعانيه. نزلت من الحافلة، وكان عليَّ أن أمشي مسافة معتبرة لأصل المنزل، كانت الساعة حينذاك السابعة مساء، مشيت من جديد تحت الثلج والبرد القاسي، وشعرت بكتل الثلج تتراكم فوقي، والبرد القارس يتسرب إلى عظامي ويزرع رعشة يهتز لها جسمي كله. صعدت المصعد في العمارة التي أسكنها، ثم فتحت باب الشقة، نظرت بدون وعي كالمعتوه إلى صورة ريم المعلقة أمامي.

طال وقوفي في الباب وأنا أبحلق بشبه غباء إلى صورة ريم، قبل أن أتفاجأ بكريمة تهرع إليَّ بفزع حقيقي.

- عمر عزيزي، ماذا جرى لك، أدخل.

سحبتني إلى الداخل، وأضافت.

- رباه كم تبدو متعبًا ومحطمًا، صارحني ما الذي يجري لك؟ إنك على وشك الانهيار.

كنت قد عدت إلى نفسي حين شعرت بكريمة إلى جانبي:

- لا شيء، أنا متعبٌ، متعب.. جدًا يا كريمة، متعب وحزين أيضًا، حزين إلى أقصى وأبعد حدود الحزن، ثم أنني قررت ألا أقرب الخمر أبدًا ما حييت.

راحت كريمة بعطف الأم الحنون تزيل عني الملابس المبللة، أشعلت المسخن في الحمام، وهيأت لي الملابس والمناشف. خرجت من الحمام بعد أن فركت جسمي برغوة الصابون، وعطرت جسدي بملين منعش يدخل الراحة والسكينة إلى النفس. لبست بيجامتي وتوجهت إلى فراش النوم وتمددت، كانت عضلات جسمي متعبة جدًا، ولم تكن لدي القدرة على فعل أي شيء. كنت أسمع كريمة منشغلة في المطبخ، تعد بلا شك أكلة للعشاء. رغم سوء التفاهم، والتجاهل الذي أبديته نحوها منذ أمس، رغم كل ذلك فهي تسبغ عليَّ حنانا جميلاً لا يمكنك أن تشعره إلا من أنثى حقيقية، أنثى مفعمة بروح الحب الخالص النقي الذي لا تشوبه أي شائبة. جاءت إليَّ في الفراش، قبلتني وقالت برقة وعذوبة متناهية:

- قم يا عمر، لقد أعددتُ لك وجبة تروق لك، من شأنها أن تزيل عنك الإعياء.

شعرت حيالها بضعف اكتسحني اكتساحا شاملا، المرأة تقهر الرجل برقتها وحنانها ولينها، أكثر من قهرها له بأي شيء آخر. استجبت لدعوتها وقمت من فوري بتثاقل بين من الفراش، أخذت بيدي وهي تنظر إليّ محاولة أن تسبر أغوار نفسي العميقة. قلت لها في نفسي، لن تستطيعي أن تفهمي القهر الذي أعانيه اليوم يا كريمة، لأنه قهر يرتبط بقطة فرنسية لا تعرفينها. قطة فرنسية شرسة في عواطفها وأحاسيسها، وحتى في الطريقة التي تعبر بها عنهما. أعدت كريمة طاجينا بالدجاج والبرقوق المجفف والزيتون، وسلطة خفيفة أعدتها على عجل، كريمة طباخة ماهرة.

- ماذا يجري لك يا حبيبي؟ أرى سحبا داكنة من الحزن تغطي عينيك الحزينتين.

هل قالت حبيبي؟! لم أصدق أذني، إذا كانت قالت ذلك، فان ذلك يحدث للمرة الأولى، لم يسبق لكريمة أن وصفتني بالحبيب أبدًا ولو حتى على سبيل الدعابة، كانت دائمًا حينما تريد أن تدللني تصفني بالعزيز، كانت هذه هي العبارة المتداولة بيننا. كلمة عزيزي هي التي ألفت سماعها منها، ولكن الآن تخرج عليّ في لحظة ضعف لم يسبق أن حصل لي مثلها بكلمة جميلة ومعبرة " حبيبي "، ما أحلى أن تسمع مثل هذه الكلمة، ولكن يجب أن تقترن بصدق وعفوية وتلقائية تامة، وهو الأمر الذي لمسته حقًا وبوضوح في نبرة كريمة، لم تكن الكلمة وليدة

مجاملة عابرة، كانت وليدة مشاعر حقيقية وصادقة. أي تحول تتعرض له كريمة؟ أي سر تنطوي عليه هذه الأنثى المغلقة للدرجة التي تعتقد معها وكأنها مكشوفة أمامك بشكل كامل، لكنها في الواقع غير ذلك تمامًا.

- أنت حزين يا عمر، حزين جدًا، حزين إلى درجة لا توصف.

قالت ونحن نتناول الأكل... ثم أضافت:

- أنت حزين منذ مساء أمس، ألا يحق لي أن أطلع على مشاكلك؟ ربما استطعت مساعدتك من يدري.

- كريمة.. لن تستطيعي مساعدتي، لأنني أصلا لا أعاني مشكلة معينة، أشعر فقط بمزاجي في الآونة الأخيرة معكرا جدًا، ولست أدري لماذا.

نظرت إليَّ بدهاء وقالت:

- إنك تخفي خلف نظراتك، وخلف وجهك أسى عميقًا أحسه يمتد إليَّ أيضًا.

قلت لأحول المعركة إلى ساحتها.

- ما يهمني أكثر هو أن تكوني أنت بخير.

- لا تقلق بشأني، أعرف غالبًا كيف أصرِّف أموري، قسوة الحياة علمتني أشياء كثيرة.

جواب ثعلبي أيضًا بعثر أوراقي، لم أكن أتوقعه. حينذاك أردت أن أكون مباشرا أكثر في طرح الأسئلة عليها حتى لا أفسح لها المجال للمراوغة والمناورة:

- كيف قضيت وقتك أمس مع بيرنارد؟

أجابت مرة أخرى بخبث، أحسسته كخنجر صدئ يحز قلبي:

- قضينا وقتًا طيبًا، بيرنارد شخص مهذب ولطيف جدًا.

ها هي مرة أخرى تمتدحه، وتسبغ عليه كل الأوصاف التي يحلم بها أي رجل من الرجال في هذا العالم. لم تجدي إلا بيرنارد الخسيس لتسبغي عليه هذه الهالة الخرافية من الأبهة التي لا يستحقها أبدا؟ مع ذلك حافظت على هدوء ظاهري، واستمررت في طرح الأسئلة، كنت أودُّ أن أحشرها في زاوية ضيقة أخر الأمر:

- هل اتفقتما على شيء يخص مستقبلكما، أقصد هل حسمتما في العلاقة بينكما حسمًا تامًا وكاملاً؟

- لا، كان اللقاء وديًّا ولم نتطرق فيه إلى موضوع محدد بعينه.

يا لها من امرأة هذه الكريمة الخبيثة، لم أستطع أن أنتزع منها أي شيء يخص لقاءها ببيرنارد، هل تلعب معي لعبة ما؟ لا أحب اللعب مع النساء، تلك الألعاب الملتوية المعوجة التي لا تليق بأناس يحترمون أنفسهم. انتهى زمن اللعب، إذا كانت ترغب ببيرناردها فلتفز به، وتتلقفه قبل أن يفلت من بين يديها، وليكن لها إذن بيرناردها هذا الذي شغلتنا به، لن أتزاحم معه حولها.

تجاهلت الموضوع وقلت لها:

- كان الثلج اليوم كثيفا، والبرد قارصًا لدرجة غير متحملة، ثم أنني عرضت نفسي بجنون للتمشي طويلاً تحت الثلج. هل تعرفين، يفتنني منظر الثلج وهو يتهاطل عليَّ وعلى الأرض،

ويثقل أغصان الأشجار ويغطي الأرصفة، لكنني عرضت نفسي لقسوته ولسعاته الباردة أكثر مما ينبغي.

- أنت شخص غريب الأطوار لدرجة لا توصف، لولا معرفتي الطويلة بك لجزمت بأنك أحمق بشكل رسمي، مع ذلك أتحمل حمقك وجنونك، لأنني أيضًا حمقاء وغبية لدرجة لا توصف.

لم أسألها عن مناسبة هذا التصريح بحقي وبحقها أيضًا، لأنني كنت أعرف بأنها تشير بطريقة أو أخرى لصور ريم التي تكاثرت بشكل رهيب في المنزل، ولرائحة عطر Place Vendôme المدوخ الزائد عن كل الحدود الذي نثرته أمس على جميع الصور.

• • • •

( ٢٠ )

ظلّتْ علاقتي بكريمة باردة على العموم، وإن اتسمت في الغالب بطابع عادي كونها تشتغل بالنهار وأنا أشتغل بالليل، ولا نلتقي إلا لساعات جد محدودة طيلة الأسبوع. لم تغب كارولين من ذاكرتي، ظل جرحها غائرا وعميقًا في نفسي، كيف تراها تكون الآن؟ كيف ستتعامل مع أمر اكتشفت فيه خيبة أمل لم تتوقعها؟ هل هي بالرهافة والنفسية الهشة التي تجعل وهم حب عابر يؤثر عليها لدرجة كبيرة؟ لكم أودُّ لو ألاقيها من جديد، لكم أودُّ لو أراها فقط لأستمتع بطلعتها البهية الرائعة، لكم أودُّ لو نجلس لوقت معين ولكن بناء على صداقة حقيقية لا أكثر، بدون مشاعر أو أحاسيس تنغص متع اللحظات الحلوة اللذيذة التي طالما تقاسمناها مع بعضنا أنا وكارولين. إن المتعة يا كارولين تشبه التفاحة، نقتسمها لكي يستلذ كل واحد منا بنصفه وحقه في المتعة. لم آكل أبدًا التفاحة وحدي، لم ألتهمها كاملة بدون أن أترك لك أي جزء منها، لم أكن أنانيًا بحيث أجردك من كل متعك التي تستهويك، كنت عادلاً ومنصفًا كما ينبغي لرجل يحترم رجولته وأنوثة رفيقته أن يفعل، لذلك كنا نتقاسم التفاحة دائمًا، وكان حيزي منها بقدر حيزك منها بالتمام. لا يجب أن تكرهيني يا كارولين، ولا أن تحقدي عليَّ لأنني ببساطة

لا أستحق ذلك، ولأنني لا أشبه حبيب غجرية سيدي مفتاح في المغرب لا من قريب ولا من بعيد.

في آخر الأسبوع كانت مناسبة جديدة لننام أنا وكريمة بشكل طبيعي، مارست أمامي عريها بحسب الطقوس المعتادة، بدت وكأنها نسيت جو برود الأيام الأخيرة الذي خيم على علاقتنا. انسلت إلى جانبي في الفراش، وأحاطت وجهي بكفيها الدافئتين، وراحت تقبلني بشراسة ماحقة ومجنونة. لم أستطع أن أفهم هذه اللبؤة الأطلسية، أي ازدواجية تحمل في شخصيتها؟ أي سر تنطوي عليه هذه الجنية المنبثقة من أغوار المستحيل، لماذا تستطيع بسحرها أن تمارس عليَّ سر سحر جسدها الباهر، جسدها الذي يشتعل بجانبي مثل جمر ملتهب؟ ثم ما الذي يجعلها رغم كل شيء متشبثة بطقوس الجنون الذي ما فتئنا نمارسه سابقا؟ هل هي متعودة على هذا الأمر، وأنا مجرد شخص ساذج غر مفغور الفم كالأبله أمام صور ريم اللاواقعية؟ أم أن الأمر أعمق من ذلك بكثير، وهي تخفي خلف تصرفاتها سرا ما لا يمكنني بالتأكيد إدراكه. حاولت ألا أفكر ببيرنارد، لكن هذا اللعين كان ما فتئ يدق تفكيري وهواجسي بمسامير حادة، هل تراه عبث بجسدها هذا الذي ظللت أتوهم أنه لي وحدي وليس لغيري، ودنسه بريحه الوسخة؟ لا أريد أن أفكر بذلك، وإلا كنت سأفقد الشهية للمائدة اللذيذة التي تقترحها كريمة بجانبي، وفي تلك اللحظة بالذات على الفراش.

- أنت عذبة ولذيذة يا كريمة.

في الوقت الذي كنت أهمس لكريمة بهذه العبارات، كانت هي تداعب وجهي وشعري، إنها طقوس النشوة التي لا تنتهي. لم أعرف متى استسلمنا للنوم ونحن متعانقين، ولكننا أفقنا في نفس الوقت تقريبًا كما العادة في أيام السبت والآحاد. وكما تعودنا دائمًا أن نفعل، الحمام أولاً ثم ارتداء ملابس المنزل بالنسبة لكريمة، وملابس الخروج العادية بالنسبة لي لأنني يجب أن أخرج لأشتري شيئًا لوجبة الفطور. هذه المرة فضلنا، باقتراح رأيته وجيها من كريمة، أن نتناول فطائر وحلويات مغربية أصيلة من باتسري مغربي قريب. في الخارج كان الجو معتدلا، غائما قليلاً، مع هبوب رياح خفيفة جنوبية. عدت إلى المنزل فوجدت كريمة قد أعدت القهوة التي قابلني أريجها من خارج باب الدار، القهوة المغربية المخلوطة بقليل من الفلفل الأسود والقرفة. الجلوس بحضرة كريمة، والاستماع إلى حديثها الذي يشبه شدو عصافير الكناري متعة لا تعادلها أي متعة أخرى، إنها تشعرك بسعادة غامرة في كل شيء تفعله أو تقوله، فتاة كالفراشة في فرحها وتطايرها العذب في الأجواء. كنت ذلك الصباح بحق سعيد وأنا أجد نفسي مغمورا بالسحر الجميل الذي تزرعه كريمة حولي. تناولنا وجبة الفطور تحت وقع الدعابات والضحكات الوديعة لكريمة ولمرحها المستمر الذي لا ينتهي، ولحكاياتها الصغيرة الباهرة التي تشكل من كل واحدة نكتة ذكية تجعلنا نغرق في موجات متتالية من الضحك البريء الجميل. شعرت بتحول

عميق خضعت له نفسيتها منذ ذلك اليوم الذي خرجت فيه مع بيرنارد، بحيث تجاهلتها طيلة المساء، ولم أهتم بها أيضًا الأسبوع كله. كنت أتوقع أن تبحث عن سكن آخر في أقرب فرصة، لكنها فعلت العكس، إذ ألاحظ أن حبورها وفرحها قد ازداد عكس ما توقعت، بالرغم من الوجوم الذي أبانت عنه في البداية، وكان على كل حال وجوما عابرا، بعد ذلك تحولت إلى كريمة أخرى، كريمة السابقة، بل أكاد أجزم أن حميميتها تضاعفت وأصبحت أكثر قربا مني.

بعد أن انتهينا من تناول وجبة الفطور، تعاونا لإنجاز بعض الأمور المتعلقة بنظافة المنزل، وتشغيل ماكينة تنظيف الملابس، وكنس الأرضية بالمكنسة الكهربائية، وتوضيب سرير نومنا. بعد أن أنهينا أشغالنا جلسنا على الأريكة متعانقين، نداعب بعضنا ونتبادل الحديث بانتشاء ولذة وسعادة غامرة. فجأة رن جرس الباب، خمنت من يكون الزائر في صباح عطلة أسبوع يفضل فيه أغلب الناس الركون بهدوء مع أسرهم في منازلهم، أو الخروج للتنزه إذا كان الجو يسمح بذلك. هرعت لأستطلع الأمر، لم أتوقع شخصًا بعينه، لكن المفاجأة كانت صاعقة حينما طالعني وجه بيرنارد السمج الكريه. هاهو جاء ليفسد الهدوء الذي كنا ننعم به طيلة الوقت. لا شك أن وجهي احتقن بالغضب، ولا شك أنني نظرت إليه بازدراء حقيقي وغير مفتعل. بعد أن بادلته تحية باردة جافة تفتقر إلى أدنى ود أو ترحيب، قلت له:

- تريد كريمة؟
- نعم لو تفضلت.

رجعت إلى الداخل بعد أن دفعت الباب بحدة غير خافية، وأنا أشعر بتجهم يطغى على وجهي، تجهم حاولت إخفاءه ما أمكن. خاطبت كريمة بطريقة متهكمة محملة بكم هائل من السخرية:
- حبيبك العزيز بيرنارد ينتظرك في الخارج.

لم تعلّق كريمة بشيء، أطرقت برأسها قليلاً إلى الأرض، في الأخير توجهت إليه، وبعد لحظة عادت وقالت لي بدون أن تنظر إلي:
- سأخرج معه للجلوس قليلاً، لا تنتظرني على الغداء.

نظرت إليها بازدراء، يالها من وقحة ونذلة أيضًا. لا تنتظرني على الغداء، من قال لك بأنني سأنتظرك على الغداء؟ شعرت بأنني أطعن في كرامتي، هذه المراكشية تلعب بي، لكنني سأعرف كيف أوقفها عند حدها، لن أقف مكتوف الأيدي هذه المرة، سألقنها درسًا لن تنساه، وستكون هذه هي نهايتنا معا.

لكن لم يكن في عزمي أن أطردها من المنزل، شهامتي لا تسمح بذلك، غير أني سأطالبها بأن تبحث عن سكن خاص بها في أقرب فرصة. توجهت مهرولا نحوها إلى بيت النوم، كان الغضب يسيطر علي، وجدتها منهمكة في أخذ زينتها وتضع أحمر الشفاه الخفيف على شفتيها، كانت تتزين له. خاطبتها بحدة:

- لن تخرجي مع هذا اللعين، لا اليوم ولا في أي يوم آخر.

نظرت إليَّ كريمة بارتياع، تفاجأت للأمر الذي صدر مني، ولكن في الوقت نفسه قابلته بهدوء لم أتوقعه، نظرت إليَّ باستغراب وقالت:

- هل قلت بأنه يجب ألا أخرج مع بيرنارد؟

- نعم لن أتركك تخرجين معه.

ردَّت دائمًا بهدوء مريب وغريب أيضًا:

- لماذا؟

- لأنني لا أريدك أن تخرجي معه، هل تفهمين؟

- لا، لا أفهم.

هذه الذئبة تريد إغاظتي، تحب أن تلعب بي، من تكون حتى تجعلني هكذا أضحوكة وسخرية من طرفها ومن طرف بيرناردها السخيف.

واصلت كريمة أخذ زينتها غير عابئة بي، حينما أتمت ذلك بدأت ترتدي ملابسها في حركة تحد واضحة. أخذتها من تلابيبها، وصرخت في وجهها كالبركان:

- أنا لا أمزح، قلت لك لن تخرجي مع هذا السافل، هل تفهمين؟

حاولت أن تقاوم قليلاً، أو تتظاهر بذلك لتتحرر من قبضتي الحديديتين، لكنها لم تستطع. وكانت خلال كل ذلك تحافظ على هدوء عجيب وغير عادي استغربت له.

ألقيت بها فوق السرير بتصميم جاد وصارم ثم قلت لها:

- انزعي عنك المعطف، اخرجي إليه الآن حالاً واخبريه بأن لا يعود للبحث عنك مرة أخرى، وان فعل سأضطر لاتخاذ إجراءات غير مهذبة في حقه.

استجابت كريمة لطلبي بطاعة عمياء، لم أستطع حينذاك تفسيرها وإيجاد مبرر واقعي لها، خرَجت إليه. في الوقت الذي تركت نفسي قريبًا من الباب حتى أستطيع الاستماع والتجسس على ما تقوله له:

- بيرنارد، قلت لك مرارًا بأنني لا أشعر بأي شيء تجاهك، كنا مجرد زميلين في المصنع، لم أعد أشتغل هناك، صدقني إذا قلت لك إن إزعاجك المستمر لي هو ما جعلني أغيِّر العمل. الآن أطلب منك طلبًا أخيرًا، أرجو أن تحترمه كما ينبغي لشخص يحترم نفسه أن يفعل. ابتعد من طريقي أرجوك، خرجت معك المرة السابقة فقط من باب اللباقة لا أكثر، وتفارقنا في منتصف الطريق. الآن وفي هذه اللحظة بالذات أبلغك بأنك ستزعجني كثيرًا وكثيرًا جدًا إذا تعرضت لي، سواء هنا أو صادفتني في الشارع. سأعتبر نفسي منذ هذه اللحظة بأنني لا أعرفك، وعليك أن تتفهم الأمر.

- ألا يكون ما تقولينه الآن بإيعاز من الشخص الذي تسكنين معه؟

- هذا ليس شغلك، ثم أنه ليس صدفة أننا نسكن مع بعض، وداعا والى غير لقاء، أتمنى لك مع كل شيء التوفيق.

قالت ذلك دون أن أسمع ردا من بيرنارد ، انسحبت بسرعة وجلست على الأريكة، كانت الفرحة تكاد تقفز من وجهي بدون أن أعرف لذلك سببًا ، لكنني رسمت تجهما مزيفا على ملامحي. غير أنني فوجئت بها تأتي مبتسمة، ثم تلقي جسدها الجميل علي، وتحضنني إليها وتضمني بقوة. همست في أذني بكلمة عذبة الوقع واللحن، كلمة شبيهة بموسيقى فردوسية منبثقة من السماء، كلمة شبيهة بتغريد عصفور الهي النغم والصوت، كلمة حلوة كالسكر، ومحملة بكل أريج زهور العالم ، لم أكن لأسعد وأفرح بها كما فرحت بها لأنها انبثقت من شفاه وفم كريمة العذب الجميل المفعم بالحنان والدفء، هل كنت أنتظر في وعيي البعيد مثل تلك الكلمة؟ قالت بصوت عذب ورقيق:

- أحبك يا عمر.. أحبك كما كنت أحبك من فترة طويلة.. حبا صادقا وعميقًا.

نظرت إليها بدهشة وانبهار لذيذ غير مصدق ما أسمع:

- لكنك قلت مرة بأنك متورطة في قصة حب، حين سألتك عن الشخص المعني قلت بأنك مغرمة ببيرنارد؟

- صحيح، وصحيح أنني حين هاتفتك لأخبرك بأنني متورطة في حب عنيف يجتاحني، كنت أقصدك أنت بالذات، لقد فبركت حكاية بيرنارد حتى أثير عواطفك، لأنك كنت

مشغولا عني بعالمك الخاص الغريب، وبهذه الصور الغبية المعلقة على الجدران. بيرنارد كان يزعجني حقا، وكان يطاردني باستمرار، لكنني وجدته دائمًا شخصًا سخيفا إلى أقصى الحدود، ولا يستحق حتى مجرد الالتفات إليه، لكنني لا أنكر استعمالي له كورقة أخرج بها من أعماقك بذرة الحب التي كنت متأكدة بأنها موجودة داخلك، وكنت ألمسها مرارًا في تعاملك معي، وأنها كانت تحتاج فقط لقطرة ماء لتنمو وتكبر لتصبح شجرة حب عملاقة وارفة الظلال وكثيرة الأزهار، حتى المرة التي خرجت فيها مع بيرنارد، صدقني، لقد صرفته فورًا بمجرد أن خرجنا من هنا. أنا ركبت في حافلة وهو في أخرى. عفوا لقد اتبعت أسلوبًا ملتويًا للوصول إلى قلبك، قد يعتبر هذا الأسلوب من منطلق منطق أو آخر أسلوبًا ليس شريفًا، لكن ذلك كان نابعًا من حب صادق وحقيقي نحوك. اليوم اكتشفت أنك مثلي تعشقني كما أعشقك، كنت تحتاج يا عمر فقط لدفعة بسيطة لتكتشفني ولتكتشف الحب الذي يجمعنا، ذلك الحب الذي كنا نمارسه في الواقع وعلى كل المستويات. أليس هذا صحيحًا يا عمر يا حبيبي؟

- أعشقك وأحبك ومغرم بك أيتها الكذابة اللذيذة الحلوة.

يا لشخصية كريمة الحلوة المتفردة، ففي الوقت الذي كنت أشك في مشاعري نحوها وأحاول مغالطة نفسي بكل السبل، كانت هي تحاول إيجاد الطريقة المناسبة للتلاقي. بل أكثر من

ذلك حين اكتشفت بأنني أنا أيضًا مغرما بها لم تجد هي غضاضة في أن تعترف أولاً بحبها لي بكل شجاعة.

- أحبك يا كريمة، أحبك، أقولها علنا وسرا لقد خلقنا لنكمل بعضنا، أنت بنزقك ومرحك وشغبك اللذيذ، وأنا بهدوئي وجنوني وغرابة طبعي. أحبك يا كريمة، الآن وغدا وفي كل يوم تشرق فيه الشمس أو تغيب، في كل يوم تكون فيه الشمس أو لا تكون،.. أحبك.

• • • •

# ( ٢١ )

بعد أسابيع طويلة، مرضتْ كريمة فجأة، كنا قد اشترينا أكلاً من بيتزريا الحي، لم يتوفر لنا الوقت لنطبخ في المنزل. اشترينا شوارمة وكباب، يبدو أن معدة كريمة كانت من الرهافة بحيث لم تتحمل الأكل الذي كان قديمًا حسبما اعتقدت حينذاك. تقيأت كريمة، تقيأت بشكل مفاجئ، انتابني نحوها قلق جعلني أسألها ما إذا كان ينبغي أن نذهب إلى الطبيب، لكنها طلبت مهلة، لم يحدث أي شيء في ذلك المساء ولا الليل كله. حمدنا اللّه على أن الأمر توقف عند ذلك الحد، كنت أعتقد أنه تسمم غذائي خفيف وعابر. لكنها بعد يومين تقيأت مرة أخرى، سألتها بجدية كانت تتطلبها خطورة الموقف الذي شعرت به:

- كريمة، لا بد أن تراجعي الطبيب، لا شك أن بكتيريا ما في معدتك.

وافقت على اقتراحي عن قناعة تامة. انصرفت أنا إلى العمل في المساء بينما رتبت هي موعدا مع الطبيب في الوقت نفسه. حين عدت في الساعة الواحدة والنصف ليلاً من العمل، وجدتها مستيقظة تنتظرني، راعني وجودها مستيقظة حتى ذلك الوقت المتأخر من الليل، لكنني سرعان ما قرأت في وجهها وفي نظراتها كلامًا غريب المعاني. لم تكن كريمة فرحة، ولا تعيسة أيضًا.

كانت مزيجًا من الحالتين معا. بعد أن تبادلنا التحية المعتادة، وبعد أن استبدلت ملابسي وانكمشت إلى جانبها في الفراش، سألتها باستعجال:

- لماذا أنت مستيقظة حتى هذا الوقت؟ خير إن شاء الله.

نظرت إلى وجهي بمنتهى الحب والعشق، ثم قالت بدون مقدمات كعادتها:

- لدي خبر هام جدًا، يخصنا نحن الاثنين.

- كريمة، قولي ما لديك، وبسرعة أرجوك.

- أنا حامل يا عمر.

قالتها مرة واحدة وهي تتطلع إلى وجهي لتلاحظ مدى التأثير الذي يمكن أن يحدثه خبر خطير كهذا على نفسي. قالت العبارة وكأنها تتخلص من عبئ ثقيل تحمله على عاتقها. صدمت طبعًا، اندهشت، خرس لساني، آخر شيء كنت أتوقعه. كريمة حامل؟! كيف حدث ذلك؟! رغم الاحتياطات ورغم العازل الطبي ورغم كل شيء هي حامل؟! ثم ماذا يعني ذلك بالنسبة لي؟ خبر مثل ذلك كان من شأنه أن يزلزلني من الأساس. وهو الأمر الذي حدث فعلاً، ظللت لوقت طويل أنظر مشدوها إلى صورة ريم المعلقة أمامي، كنت أنظر إلى شيء غير مرئي، شيء بعيد ونائي، كنت أنظر إلى.. لا شيء.. فكرت في أمور كثيرة، فكرت في تلك النطفة المزروعة في رحم كريمة التي ستصبح جنينا، وبعدها طفلا رضيعا، وحينذاك سأصبح أبا بالتزامات عديدة وضرورية.

كانت كريمة لا تزال صامتة وهي تنتظر رد فعلي، وحين طال صمتي واستغراقي في التفكير، قالت لتحسم في الأمر بشكل بدا لي جديا وصادقا أيضًا:

- اسمع يا عمر، أنا وأنت نحب بعضنا، ولكننا لسنا متزوجين، إذا بدا لك بأنك لا ترغب في هذا الجنين داخلي فإنني ببساطة سأعرض نفسي للإجهاض، لأننا لم نتفق على إنجاب أطفال، حدث الأمر بشكل خاطئ، لا يهم من كان السبب. على كل حال نحن الآن أمام أمر واقع، إنني حاملة منك، ولك أن تقرر، سأرضى بأي قرار تقرره مهما كان هذا القرار، لأنني لا أحب أن أنجب منك في الوقت الذي لم تقرر فيه بعد أن تصبح مشروع أب.

بعد تفكير قصير نسبيًا، أجبت بحسب قناعة تامة وتفكير رصين، وبدون اندفاع غير محسوب. كنت أدرك أن حياتي مع كريمة ليست قصة قصيرة تنتهي في النهاية بنقطة نهاية تدل على انقضاء كل شيء، بل هي قصة طويلة ومسار دائم ومستمر إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولاً:

- اسمعي يا كريمة، لقد طوينا مرحلة المراوغة والمناورة في الكلام منذ زمن طويل، كلانا لم نختر هذا الوضع، وبما أنه أصبح واقعا جميلاً في حياتنا، فلماذا لا نرحب بهذا الجنين الذي سيضيء حياتنا بالبهجة والسرور والمزيد من المحبة والعشق، ثم يجب أن نشرع في ترتيبات الزواج الشرعي في أقرب وقت.

بمجرد أن تلفظت بعباراتي الأخيرة حتى رأيت نورا متوهجا يشرق من وجه كريمة، نور لا يمكن وصفه إلا بتوهج وجه الأم التي تتطلع إلى وليدها لأول مرة وهو يخرج من بطنها. عانقتني على الفور ثم استغرقت في بكاء جميل وطويل، بكاء مختلط بابتسامة خرجت من فمها العذب كإشعاع الهي رائع البهاء.

- أحبك يا عمر، أحبك بكل معاني الحب النبيلة، الحب الخالص الجميل، الحب الذي أحس به يرفرف في قلبي كفراشة نورانية منفلتة من الفردوس.
- لا داعي لتعبري عن مشاعرك يا كريمتي الحبيبة، كلانا نحمل الحب نفسه لبعضنا، وكلانا نتفوق على بعضنا في هذا الحب.

نظرت إلى صور ريم المبثوثة في كل جزء من المنزل، هاأنت ترين التحول الذي يطرأ في كل حين على حياتي، بعد شهور قليلة ستعاينين صبيا يمرح ويحبو هنا تحت أنظارك، وستنيران كلاكما بالنور وبالمحبة الإلهية الصادقة المخلصة فضاء هذا المنزل الصغير. هل قلت المنزل الصغير؟ نعم قلت في نفسي المنزل الصغير، وهذا يعني أن الطفل المنتظر لن يجد له بيتا خاصا به هنا، وهذه إحدى التحديات التي ستفرض نفسها عليَّ أيضًا بقدوم طفلنا المرتقب.

سألتني كريمة:

- بماذا تفكّر يا حبيبي؟

- كما ترين المنزل صغير جدًا يا حبيبتي، وهو بالكاد يكفينا أنا وأنت، يلزم أن نبحث عن مسكن أكبر يتوفر على بيت خاص بطفلنا المرتقب.

- صحيح، يجب أيضًا أن نؤثث حجرته بطريقة تلائم أمير أو أميرة صغيرة، سأهيئ كل شيء قبل الولادة، كل شيء ولن أنسى حتى التفاصيل الصغيرة. انه طفل ليس عاديًا، إنه وليد مخاض عسير لحب مجنون ومثير.

في الأسابيع التالية بحثت جادًا عن مسكن يحتوي على الأقل على صالون جلوس وحجرتين ومطبخ، لم تكن المهمة سهلة. كانت كريمة أكثر مني استعجالاً، خلال ذلك كان بطنها ينتفخ أكثر فأكثر، ويومًا عن يوم.

• • • •

## ( ٢٢ )

أخيرًا وجدتُ منزلاً متواضعًا وقديمًا ليس بعيدًا عن نهر السين، يقع في حي بمحاذاة جسر ألما، منزل متواضع بصالون أوسع قليلاً من صالوني السابق، وببيتين أيضًا أوسع نسبيًا من بيت نومي السابق. لكن المنزل كان عتيقًا جدًا ويحتاج لإعادة صباغة وترميمات جذرية، وهو ما قررته وفعلته في إحدى نهايات الأسبوع بمساعدة صديق يفهم في فن الصباغة وترميم المنازل. كريمة هي التي اختارت الألوان وشكل الستائر، تركت لها حرية التصرف في كل ما يخص الديكور والأشكال والترتيبات المتعلقة بالمنزل الجديد، تركت لها الحرية في التصرف إيمانًا من مبدأ أن المنزل هو مملكة خاصة بالمرأة ولا يجوز للرجل إلا للتدخل من باب إبداء الرأي لا أكثر. في الأخير بدا المنزل بشكل جيد جدًا، خصوصًا مع الأثاث الجديد الذي اقتنيناه، والسرير الصغير، وأغطية وردية مزينة بزهرات أقحوان، وبفراشات وردية أيضًا. واللون الوردي كما هو معروف، هو لون أنثوي، لأن كريمة، التي أصبحت زوجتي بحكم الدين والقانون، كانت قد خضعت لاختبار تحديد جنس الجنين، فتبين أن طفلنا القادم لن يكون إلا أميرة صغيرة رائعة.

حين أتممنا تجهيز المنزل، وأثثناه بالأثاث الجديد، كان يجب أن ننقل إليه بعض الحاجيات الأخرى المهمة من المنزل القديم، الفرن والثلاجة التي كانت في حالة جيدة، بالإضافة إلى مكتبي وكتبي وكمبيوتري الشخصي، وعدة حاجيات متعددة، كما أنني لم أنس صور ريم المعلقة على كل جدران المنزل القديم. رأتني كريمة وأنا أجمع تلك الصور، ثم وأنا أضعها في مغلف ضخم بعناية ربما كان مبالغا فيها. لم تعلق، نظرت إلي، ثم انشغلت هي أيضًا بجمع حاجياتها الخاصة. ماذا تراها أحست وهي تراني لا أزال مهتما بتلك الصور؟ طبعًا لن يروقها الأمر، ولكن ماذا عساي أفعل؟ لقد أصبحت مسكونا بطريقة عجيبة وغير مفهومة بهذه الصور، ولا مهرب لي منها رغم عشقي وهيامي بزوجتي كريمة.

جاءت سيارة الشحن التي يمتلكها أحد أصدقائي، تنقلنا بأمتعتنا إلى المنزل الجديد، انتفت من المنزل تلك المسحة التي كانت تضفي عليه الطابع العتيق، وانتفت منه أيضًا رائحة القدم التي كانت تعشش فيه، وذلك بفضل لون الصباغة الحية التي انتقتها كريمة بذوق وحس رفيع. وبسبب الترميمات المتقنة التي أحسن إدخالها على المنزل صديقي المحترف في مهنة الترميمات المنزلية.

بدأنا فورًا العمل أنا وكريمة في المنزل الجديد، تكفلت هي برص الأشياء الصغيرة الخفيفة التي لا تشكل خطرا على حملها،

بينما انهمكت أنا بتركيب خزانة الملابس، وسرير النوم، وسرير طفلنا المرتقب، ووضع الثلاجة في مكانها. ثم ربطت الفرن بأنبوب الغاز، وثبت أيضًا مكتبي في المكان الذي رأيته مناسبًا، وربطت الكمبيوتر بكابل الإنترنت، ثم فتحت المغلف الذي وضعت فيه صور ريم. لم أكن أدري أن كريمة تتابع حركاتي وسكناتي بدقة متناهية، إلا حين سمعتها تقول بطريقة مهذبة ولبقة جدًا:

- هل ترى أن لتلك الصور حاجة أو ضرورة بعد الآن؟

كان سؤالاً وجيهًا في واقع الأمر، من امرأة هي زوجتي وستصبح أم بنتي. لم أعرف كيف أرد ولكنني وجدت نفسي من جديد في مأزق. حين طال صمتي قالت بالنيابة عني:

- أقترح أن تتخلص منها، وأرجو أن تفهم بأنه حان الوقت لكي تمزق وترمي تلك الصور في القمامة.

شعرت بعبارات كريمة الأخيرة قاسية في حق امرأة كنت أجلها بطريقة غبية وغير مفهومة، ظللت صامتا، كنت أدرك أن الأمر بالنسبة لكريمة جد حساس ويتعلق أولاً وأخيرًا بكرامتها، وهو أمر مفهوم جدًا. ثم أنني كنت أريد مراعاة نفسيتها كامرأة حامل والتغيرات البيولوجية والنفسية التي تخضع لها في هذه المرحلة، لذلك وجدت نفسي حقًا في موقف محرج جدًا، ولكنني أدركت بأنه حان الوقت للحسم. استعرضت الصور أمامي واحدة واحدة، وكنت خلال ذلك أتخيل الموقع الذي كانت تحتله في المنزل

القديم، والموقع الذي كان يمكن أن تحتله في هذا المنزل الجديد، وهو أمر مستحيل ولا ينبغي له أن يكون. ولكن هل كان حقًا ينبغي لصور ريم أن تحتل بعد ذلك اليوم حيزا ما سواء في قلبي أو في جدران الشقة؟ لحسن الحظ كلام كريمة جاء ليرتب كل أوراقي من جديد، ولكي يضعني أمام الأمر الواقع، والحقائق التي ما فتئت أهرب منها.

بعد تفكير طويل ورصين أردت أن أراعي فيه الحكمة، قررت أن أدوس على الجانب الآخر من مشاعري الغبية، والتحرر من صور ريم التي ظلت تسجنني لزمن طويل في مزيج من اللذة والعذاب والوهم. كانت الساعة حوالي السابعة مساء، اقترحتُ على كريمة أن ترتدي ملابسها لنتناول وجبة العشاء في مطعم محترم احتفاء بالمنزل الجديد، وافقت كريمة على الفور، ربما وجدتها فرصة للتخلص من موضوع صور ريم التي خيمت بثقلها على الجو داخل المنزل الجديد. سبقتها في ارتداء ملابسي وحذائي وظللت أنتظرها عند الباب، ولما تباطأت وهي تأخذ زينتها على سجيتها المعهودة فقد قررت أن أنفذ قراري المتعلق بصور ريم. فهمت أخيرًا أن أحدنا كان سيحرق الآخر في النهاية، ولذلك قررت حرق ريم قبل أن تحرقني بالكامل. قرّرت حرقها، ليس فقط لأن أحدنا كان يجب أن يحرق في النهاية الآخر، ولكن أيضًا لأن ريم بدأت كذلك تحرق ببطء علاقتي بزوجتي.

وبينما كنت أهمُّ بحرق أول صورة، خرجت كريمة من بيت النوم، بعد أن ارتدت ملابسها، وأخذت زينتها الكاملة، وارتدت حذاءها، ظلت تنظر إليَّ وأنا أبدأ بحرق أولى الصور. أشعل النار بالولاعة في الصورة لتأكلها النار، إلى أن تكاد تصل يدي، فأتركها تسقط على الإسفلت بهدوء لتكمل احتراقها، ثم تصبح حينذاك مجرد رماد. هكذا استمرت العملية، لكن في المرة الخامسة امتدت النار إلى يدي، فلم أستطع مقاومة الحريق الذي لهب أصابعي، فألقيت ببقايا الصورة بعشوائية لتسقط مصادفة على شال كريمة الموضوع فوق الأريكة، لتمتد بعدها النار سريعًا وتنشب في الأريكة ذاتها. حاولت بدهشة وارتباك أن أبحث عن سطل أملأه بالماء، لكن كريمة، بحكمة وسرعة بديهة، سحبتني سحبا من يدي. ثم خرجنا مسرعين هاربين من المنزل الذي اشتعل فجأة بلهب رهيب. وحين أصبحنا في الشارع، تحت أضواء أعمدة المصابيح الملونة، شاهدنا ألسنة النار والدخان يندفعان بهيجان شديد من النوافذ. أحدهم سارع لإبلاغ سيارات المطافئ، التي حضرت في الحال، وبوقها الرهيب يمزق فضاء المنطقة بأكملها. تأبطت ذراع كريمة ورحنا نهيم في أزقة باريس الباردة الموحشة، في بداية ليل كان ينبئ بقسوة صقيعية بالغة. لم نلتفت للوراء، ظللنا نسير ونسير صامتين، وحزن عميق طافح بالخيبة والإحباط يكتنفنا، إلى أن وصلنا إلى جسر ألما.

فكرت في الحريق الذي كان يشبّ في منزلنا الجديد في تلك الأثناء، ثم فكرت في صور ريم التي كانت في بيتي القديم، وكلماتها التي قرأتها ذات يوم بعيد في محادثة خاطفة في الفيس بوك: (قد أكون أميرة، أو.. ربما عروس بحر.. أو.. لا شيء.. ) وأيقنت بحدس عفوي أنها كانت حقًا (.. لا شيء.. ) قلت في نفسي: لن أنكر يا ريم الافتراضية بأنني أشعر بانتشاء لصورك المحترقة التي ستكون قد أصبحت الآن مجرد رماد، ببساطة لأنك (.. لا شيء.. )، غير أنك في المقابل تحرقين، بنهايتك المأساوية، كل شيء هنا في باريس، تحرقين ثلج باريس وبرد باريس، وصقيعها القارس الذي أشعره لا يطاق.. ولكن حتمًا يا ريم، بعد قليل، ستخمد كل الحرائق التي أشعلتِها، وستنبت من رماد تلك الحرائق مروج خضراء يانعة.. مروج ستمرح فيها طفلتنا المنتظرة في فصل ربيع دافئ.. طفلتنا التي تجسد الحب الواقعي الحقيقي.

قالت كريمة وهي تنظر عميقًا الى اللا شيء كالحالمة:

- إلى أين سنذهب الآن؟

أجبتها مبعثر الذهن، وأنا أنظر إلى مياه نهر السين التي كانت تتكسر عليه أضواء باريس الملونة المتراقصة:

- سنعبر الجسر.. إلى الضفة الأخرى.



# المؤلف في سطور

- روائي مغربي من مواليد مدينة الدريوش، المغرب
- مقيم حاليًا في هولندا
- فاز سنة ٢٠١٤ بجائزة الفجيرة للمونودراما
- نوهت لجنة تحكيم جائزة الشارقة للابداع العربي بروايته "كرونة" التي حلت رابعة سنة ٢٠٠٩
- وصلت روايته "يحدث في الظلام" إلى اللائحة القصيرة لجائزة أكيودي الصينية، سنة ٢٠١٤
- يكتب مقالات أدبية في عدد من المواقع والدوريات العربية
- صدر له:

١ـ غواية الجسد : رواية

٢ـ الشيطان والورد : رواية

٣ـ كتاب: غابرييل غارسيا ماركيز في دائرة الواقعية السحرية، قراءة تحليلية

٤ـ حب دافئ تحت الثلج: رواية. شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٥

- البريد الإلكتروني : h.mustapha@hotmail.com





**(+2) 01288890065 /(+2) 02 27270004**

**www.shams- group.net**